عنـــدما
يطلب البابا الغفران

تأليف
لويجي أكاتوللي

ترجمة
الأب الياس زحلاوي

عندما يطلب البابا الغفران

تأليف لويجي أكاتوللي

ترجمة الأب الياس زحلاوي

وجاء يومٌ، ركع فيه البابا بولس السادس،
أمام حشدٍ كنسيّ مذهول، قَدِم إلى روما، من العالم كلّه،
ليسأل الغفران من بعض الحضور، عن بعض ما كان...
ثم أطلّ البابا يوحنا بولس الثاني،
وحمل ثقل خطايا الماضي كلّه،
وطاف في الأرض كلّها، يستغفر الله والبشر...

ذلك هو مضمون هذا الكتاب الفريد،
وهو شاهدٌ خارقٌ على:
انزلاق بعض كبار المسؤولين في كنيسة السيد المسيح، في منزلقات البشر...
وعلى قدرتها، في أعلى مسؤوليها، على مراجعة الحسابات،
في اتّضاع التائب، وفي جرأة المؤمن المحبّ...

عسى أن يكون ذلك دعوةً لجميع المسؤولين في الأرض عن الديانات كلّها،
لمراجعة حساباتهم هم أيضاً،
في اتّضاع التائب، وفي جرأة المؤمن المحبّ...
إنقاذاً لبشريّةٍ باتت تهدّد وجودَها على كلّ صعيد...
وقبل أن تتحوّل جميع "المؤسّسات الدينيّة" إلى مقتل!

المترجم

2011

عندما يطلب البابا الغفران

تأليف لويجي أكاتوللي

ترجمة الأب الياس زحلاوي

عندما يطلب البابا الغفران

تأليف

لويجي أكاتوللي

ترجمة

الأب الياس زحلاوي

2011

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

2011

تقديم المترجم

يؤلمني أن أقدّم لكتاب يُفترض فيه ألاّ يكون!

ليس مَن يجهل أنّ السيد المسيح كان، في كلّ ما كان، وفي كلّ ما فعل، وفي كلّ ما قال، وفي كلّ ما دعا إليه، منزّهاً من كلّ نقصٍ، وكاملاً في محبّته كمالاً مطلقاً.

إلاّ أنّ الكنيسة التي شاءها امتداداً له، تَحمل كمال محبّته إلى البشر جميعاً، في كلّ زمانٍ ومكان، انزلقت، شيئاً فشيئاً، منذ عهد الإمبراطور قسطنطين، أي منذ مطلع القرن الرابع الميلادي، في منزلقات السلطة، الكثيرة والمتشعّبة، فسجّلت على نفسها صفحاتٍ قاتمةً، كادت أن تغيّب وجهَ مؤسّسها، المتألّق أبداً، ووجوه العديد ممّن عكسوا نورَه الحيّ، هنا وهناك، على امتداد التاريخ كلّه...

وجاء يومٌ، ركع فيه البابا بولس السادس، أمام حشدٍ كنسيّ مذهول، قَدِم من العالم كلّه إلى روما، ليسأل الغفران من بعض الحضور، عن بعض ما كان...

ثم أطلّ البابا يوحنا بولس الثاني، وحمل ثقل خطايا الماضي كلّه، وطاف في الأرض كلّها، يستغفر الله والبشر...

ذلك هو مضمون هذا الكتاب الفريد، وهو شاهدٌ خارقٌ على انزلاق بعض كبار المسؤولين في كنيسة السيد المسيح، في منزلقات البشر، وعلى قدرتها، في أعلى مسؤوليها، على مراجعة الحسابات في اتّضاع التائب، وفي جرأة المؤمن المحبّ...

عسى أن يكون ذلك دعوةً لجميع المسؤولين في الأرض عن الديانات كلّها، لمراجعة حساباتهم هم أيضاً، في اتّضاع التائب، وفي جرأة المؤمن المحبّ...

إنقاذاً لبشريّةٍ باتت تهدّد وجودَها على كلّ صعيد...

وقبل أن تتحوّل جميع "المؤسّسات الدينيّة" إلى مقتل!

الأب الياس زحلاوي

دمشق في 2011/1/9

مقدمة المؤلف

فحص الضمير في نهاية الألفيّة

في هذا الكتاب، سيكتشف القارئ، أربعةً وتسعين نصّاً (ولكنّهم ليسوا، دون شكّ، كلّ النصوص)، التي يقرّ فيها البابا يوحنا بولس الثاني بأخطاء تاريخيّة للكنيسة، ويعلن التوبة بسببها. وهو، في خمسةٍ وعشرين منها، يستخدم عبارة "أطلب الغفران"، أو ما يعادلها.

إنّها أهمّ نصوص بابويّته، وأكثر أقواله انفتاحاً على المستقبل. وكلماته هذه، ما كانت لتكون، لولا مبادرته الشخصيّة، ذلك بأنّ أحداً لا يمكنه أن يرغم أحد البابوات على التلفّظ بعبارات التوبة حول الحروب الصليبيّة أو الحروب الدينيّة. فما من أحدٍ يستطيع أن يرغم بابا على استنكار بابا آخر.

إنّ بعض هذه التصريحات لفتت انتباه الرأي العام، فاحتلّت عناوين الصحف اليوميّة ونشرات الأخبار التلفزيونيّة. ومع ذلك، فهي لم تحظَ، في أغلب الأحيان، بأيّ اعتبار. ونادرون هم المختصون القادرون على تقديم تفسيرٍ نقديّ بشأنها. وهذا هو بالضبط الهدف الذي نرمي إليه من مؤلّفنا هذا، وهو يريد أن يكون، في آنٍ واحد، بمثابة مختاراتٍ ودليلٍ للقراءة.

إنّ فكرتنا، وقد دعمناها بجهدٍ وثائقي يُقدّم هنا لأوّل مرة، تقوم على أنّ "فحص الضمير في نهاية الألفيّة"، كما شاءه البابا يوحنا بولس الثاني، هو أنضج ثمار بابويّته، وهو إرثه الأكثر حيويّةً، ذلك الذي ينطوي على أكثر عطاءاته الثقافيّة مثاراً للاهتمام، والذي قد يحظى بأعظم تفهّم خارج الكنيسة.

غداً، قد يندرج هذا الرصيد في كتب التاريخ المدرسيّة. وسيكون مثيراً للاهتمام، بشأن انشقاق الشرق، وغاليليو، والحروب الصليبيّة، ومحاكم التفتيش أو الحروب الدينيّة، أن يُعرف أن أحد صنّاع هذه الأحداث، قد غيّر رأيه أو معسكره. وفي أيامنا هذه، في نهاية الألفيّة الثانية، فإنّ

البابويّة هي المؤسّسة الوحيدة التي تستخدم دائماً اللغة التي كانت تستخدمها في بداياتها، والتي توافق على تحمّل ماضيها كلّه.

ما الذي قاد البابا يوحنا بولس الثاني إلى ما انتهى إليه من فحص الضمير هذا؟

بادئ ذي بدء، كان هناك الإقرار اللّحظي ببعض المسؤوليّات، وطلبات الغفران في هذه أو تلك من المناسبات.

وفي مرحلةٍ لاحقةٍ حدث لهذه المبادرات، بفعل التراكم والعدوى، أو الإنارة المتبادلة، أن أفضت إلى فحص الضمير في نهاية الألفية. وبدورنا سنتتبع هذه المبادرة: سننطلق من تأكيداتٍ منعزلة، لنصل إلى القضيّة التي تستجمعهم. وإذن، نجد أوّلاً تصريحات البابا بشأن موضوعاتٍ مختلفةٍ. ولنصغِ إلى بعضها، وهي من أكثرها إثارة للاهتمام:

« اليوم، أنا، بابا كنيسة روما، باسم جميع الكاثوليك، أطلب الغفران عن الإساءات التي ألحقناها بغير الكاثوليك خلال تاريخ هذه الشعوب المضطرب. »

هذا ما قاله في "أولوموك" (OLOMOUC)، في الجمهورية التشيكيّة، في شهر أيّار 1995، حول الحروب الدينيّة.

وكتب في براءته "ليكونوا واحداً" (أيار 1995)، في إحالة منه إلى الانقسامات بين الكنائس:

« بسبب ما نحن مسؤولون عنه، أطلب الغفران، كما فعل سلفي بولس السادس. »

وكتب في وثيقةٍ أخرى تعود إلى الشهر نفسه، حول الحرب العالميّة الثانية، يقول:

« يتحتّم على مسيحيّي أوروبا أن يطلبوا الغفران، ولو أقررنا بأنّ المسؤوليّات في بناء آلة الحرب، كانت متعدّدة، لأنّهم لم يعرفوا كيف يمنعونها، وقد انتهى بهم الأمر إلى الاشتراك الفعّال فيها. »

وإذ خاطب هنوداً من أميركا، وزنوجاً، كان المسيحيّون البيض قد حوّلوا أجدادهم إلى عبيد، قال لهم في 1992/10/21:

« هؤلاء الناس، نحن لا نكفّ عن طلب الغفران منهم. »

هذا الصوت، نودّ أن نخصّه بكلّ اهتمامنا. إنّه يحدّثنا عن "إساءات" الكنيسة، في المواجهة الطويلة بين العلم والإيمان، عن "إغراء التطرّف الديني"، الذي لم يعرف المجتمع المسيحي في العصور الوسطى، أن يقاومه البتّة، عن مسؤوليّات رجال الكنيسة في العنصريّة إزاء النساء، عن الاهتداءات القسريّة التي رافقت الاحتلال المنفلت للشعوب والقارات، عن "أخطاء" اللاسامية، وعن الأخذ بمبدأ "الشعوب على دين ملوكها".[1]

أجل، إنّ هذه الإقرارات المنفردة بالأخطاء، لا تشكّل فحص الضمير في نهاية الألفيّة، وإنّ تجميعها في حدّ ذاته، لا يحقّقه كاملاً. إنّ هذا الفحص إلاّ خطوة أساسيّة، انتهى إليها البابا يوحنا بولس الثاني في خلال سنوات كثيرة، على أنّه ذروة التعليم الذي قاده، والذي بات بدوره مصدراً لاستقصاءٍ جديد. وهنا أيضاً، يجب الانطلاق من تصريحاته، ويجب الإصغاء إلى ما قال، وملاحظة كيفيّة صياغته، في المرات الأولى، لهذا المقترح:

« في نهاية هذه الألفيّة، يجب علينا أن نسترسل في فحص الضمير: أين نحن؟ أين قادنا المسيح؟ أين انحرفنا عن الإنجيل؟ »

هذا ما صرّح به للصحفي "ياس غورونسكي" (Jas GAWRONSKI).

أين انحرفنا؟ هذا هو السؤال الذي ولّد فكرة فحص الضمير. إنّه يختصر شخصيّة البابا، المتعدّدة والقلقة، رغبته الحارقة في التبشير، التي لا تتيح له هدنة، وتضطرّه لحرمان كنيسته والعالم، منها. وإن هذا التساؤل لَيُظهره لنا وكأنّه أكثر المؤمنين، قلقاً، وربما أكثر معاصرينا قلقاً.

إنّ الإقرار اللحظي بخطأٍ ما، يمكنه أن يحتوي تبريراً مناسباً: مثلاً، فإنّ لقاء البابا بأحفاد أولئك الذين سبّبت لهم الكنيسة أذى ما. وقبل لقائه بهنود أميركا، درس سلوك الكنيسة حيال مختلف الأجيال الهندية. بالمقابل، فإنّ فحص الضمير في نهاية الألفيّة، ينمّ عن خطوةٍ عامة، لا تدين للصدفة بشيء، وتنطلق من المبدأ القائل بأنّ الخطأ الحقيقي ليس طارئاً، بل

[1] هذا المبدأ كثيراً ما استخدم لتبرير الاهتداءات القسرية (الناشر)

أساسي. ذلك، كما يتّضح من قول البابا، أنّ انحرافاً ما قد حدث، خيانةً ما عظمى، عموميّة. إذن، أين ترانا انحرفنا؟ والبابا يوحنا بولس الثاني يطرح هذا السؤال، مدفوعاً بشعوره بالإخفاق، بمسؤوليّةٍ صارخة، وهو يجدّد نقاشاً حيّاً، لم يُطرح مثلُه في نطاق الكثلكة، منذ المجمع الفاتيكاني الثاني.

في الواقع، فإنّ إقرارات البابا بالخطأ، واجهت معارضين كثيرين، مثلما لاقت، في الوقت نفسه، العديد من المؤيّدين. فإنّ تماسك الكنيسة الكاثوليكيّة، التاريخي والجغرافي، هو سرّ قوّتها، وهو سبب بطئها. فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني يودّ الحفاظ على تماسك الكنيسة، فيما هو يحرّض إيقاعها وحركتها. وهو بحدسه الرسولي، الذي قد لا يمسك كليّاً بزمام أموره، يستشعر أنّ رسالته تقتضي مراجعة الصورة التاريخيّة للكنيسة.

وهو ينشط في نطاق هذه المراجعة، ويواصل نشاطه اليوم أيضاً، دون أن يهتزّ للمقاومات التي يصادفها، ولا لشخصيّات أسلافه. فإنّ هذه الشخصيّات وهؤلاء المعارضين يذكّرونه باحترام الماضي، ولكنّه لا يتردّد في مصارعة مجرى التاريخ، بدافع من غيرته الرسوليّة.

فما من شيءٍ أصعب، بالنسبة إلى مؤسّسة ألفيّة مثل الكنيسة الكاثوليكيّة، من "مراجعة" تاريخها، أي صورتها.

ومع ذلك، فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني مقتنعٌ بأنّ الكنيسة يجب عليها أن تسترسل في هذه المراجعة، كي يحقّ لها أن تتوجّه لإنسان العام (2000). بل أكثر من ذلك، يجب عليها أن تفعل ذلك، لأنّها تدين بالولاء والحقيقة حيال ذاتها، وحيال التاريخ، وحيال ضميرها.

وقد تبيّن له أنّ التاريخ في عصره يخضع لتسارع. ولاحظ أنّ ثورة المجمع الفاتيكاني الثاني فاقت بسرعتها استيعاب مجمل الجسم الكنسي لها. وهو يخشى أن تكون إعادة بناء الذاكرة التاريخيّة، التي ائتمنت عليها الجامعات اللاهوتيّة، والهيئة الخاصة بقضايا القدّيسين، تفرط بالبطء إزاء هذا التسارع الذي يمثّله، بطريقةٍ رمزيّةٍ، الانتقال إلى ألفيّةٍ جديدة.

إنّ يوحنا بولس الثاني، وقد اغتنى بالمجمع وبمثال البابوَين، يوحنا الثالث والعشرين وبولس السادس، وانتهز فرصة الانتقال إلى الألفيّة الجديدة، للإقدام على إقرار بالخطأ، يتيح للكنيسة، ولو جزئيّاً، أن تتحرّر من "ثقل الموتى"، وأن ينقذها من المصير الأعمى لشعبٍ حُكم عليه بأن يظلّ سجين ماضيه، أو أن يمارس سياسة الأرض المحروقة.

وهو يجلب أمرين جديدين لمشروع المراجعة التاريخيّة، التي بدأها الفاتيكاني الثاني، وبَابَوَا المجمع:

- الأمر الأول، وقد أحدثه منذ بداية بابويّته، يقوم على رصد الاعتراف بالمسؤوليّات والأخطاء، التي اقترفتها الجماعات الكاثوليكيّة، في مختلف ميادين عملها، وعبر العصور، بفعل سلوكات تعتبرها الكنيسة بالذات، اليوم، غير مقبولة.

- الأمر الثاني، وقد اقترحه في ربيع عام 1994، إعداداً لليوبيل الكبير، هو فكرة فحص الضمير في نهاية الألفيّة، وهو يودّ أن تنصرف إليه جميع الكنيسة الكاثوليكيّة، إذ من شأنه أن يقود إلى الإقرار بأبرز الشهادات المضادة، التي قدّمها "أبناء الكنيسة"، عبر القرون العشرة الأخيرة، ولا سيّما في ما يتعلّق باللاسامية ومحاكم التفتيش.

تتألّف دراستنا من قسمين:

الأوّل يحدّد في التاريخ مسألة الإقرار بالأخطاء، وفحص الضمير في نهاية الألفيّة: سوابقها التاريخيّة والمسكونيّة، الطريق الذي اجتازه البابا يوحنا بولس الثاني في هذا الاتجاه، الأمور الجديدة التي أحدثها، المقاومة التي واجهها، الآفاق المطروحة.

الثاني يقدّم النصوص الأربعة والتسعين بحرفيّتها، ويعلّق عليها. وقد قسمت إلى واحد وعشرين فصلاً - من "الحروب الصليبيّة" إلى تجارة الزنوج - وكلّها موضوعات تكلّم البابا بشأنها، فقوّم حكماً، وأقرّ خطأً، وأعرب عن أسف، وطلب غفراناً.

وبوصفي صحفيّاً، فقد تباحثت، بشأن معظم هذه المواقف التي اتّخذها البابا، إلاّ أنّي، لم أكن أتصوّر، إذ بدأت هذه الأبحاث، رحابة الموضوع، وتماسك فكرته وثباتها، وتطوّرها بمرور الزمن، وإبداع اللغة والمبادرات التي رافقتها.

بفضل هذه المبادرة، أتمّ البابا يوحنا بولس الثاني، عمل المجمع ودفع كنيسته خطوةً إلى الأمام، قد تتكشّف حاسمة من أجل اندفاعها الكلّي في الحركة المسكونيّة. ولكنّه يؤسّس أيضاً لنمطٍ جديدٍ من الدفاع عن المسيحيّة، ويعدّل صورة البابويّة، ويصحّح موقع الكنيسة في المشهد الثقافي المعاصر.

إنّه يُتمّ عمل المجمع، إذ يُجري تمييزاً للمساحات المعتمة في الألفيّة المنتهية، في ضوء الإنجيل وتعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني. سوف نرى أنّ المجمع كان في بدء إعادة قراءة التاريخ: والبابا يوحنا بولس الثاني يودّ المضيّ بها إلى نهايتها. صحيحٌ أنّ هناك خطراً في إضفاء قيمةٍ ذات مفعولٍ رجعي على المجمع الفاتيكاني الأخير. ولسوف يحتاج الأمر إلى حكمةٍ عظيمة، ولكنّ أحداً لا يستطيع أن يجزم أنّ البابا يوحنا بولس الثاني، حتى اليوم، قد أخلّ بالفطنة، بإقراره بأخطاء الماضي.

إنّ الخطوة إلى الأمام، على الصعيد المسكوني، مزدوجة:

- "إنّ تنقية الذاكرة التاريخيّة"، التي باشرها بإقراره بالأخطاء المنفردة، تسهّل اللقاء مع خصوم الأمس.
- في هذه المرّة، فإنّ تبنّي طريقة "الاعتراف بالخطايا" (الحاضرة دائماً في صلاة القداس)، التي تميّزت بها كنائس الحركة الإصلاحيّة، يضع الكنيسة الكاثوليكيّة في مدرسة الأخوة المنشقّين، وعلى صعيد مسألة ليست بثانويّة البتّة.

أخيراً، على صعيد الدفاع عن إيمان الكنيسة، فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني، بفضل فحص الضمير في نهاية الألفيّة، يتخطّى، أو ربّما يقلب النهج السابق، القائم على السجال، فيقترح نهجاً جديداً، غير معروف تاريخيّاً، وهو يعتبره أكثر ملاءمةً لثقافة الحريّة والتسامح. وفي هذا الفصل

من بابويّته، يقول البابا: إنّ العالم قد انحرف، ولكنّ الكنيسة أيضاً قد انحرفت. ولا يمكن تصحيح هذا الانحراف، ما لم يُعترَف بوجوده.

ولكن ليس الجميع، حتى بين صفوف الكرادلة، يشاركون البابا في غيرته الرسوليّة، واندفاعه في تحقيق الوحدة. وكثيرون هم الذين يخشون أن يُسيء الاعتراف بالانحرافات المسيحيّة، إلى استمراريّة وهويّة الكنيسة الكاثوليكيّة، أي المؤسّسة الأقدم والأكثر تماسكاً، التي يمكن العثور عليها اليوم في العالم. من هنا كانت تحذيرات المجمع الاستثنائي المنعقد عام 1994، وكلّها معقولة جدّاً، ولكنها جاءت من أناسٍ لا يتمتّعون بما يتمتّع به البابا يوحنا بولس الثاني من رغبةٍ حارقةٍ. مع أنّه ليس في الكنيسة الكاثوليكيّة مَن له صوتٌ يبلغ من القدرة ما يسعه إسكات البابا، وهو لم يتوانَ، بعد أن سمع الانتقادات، عن معاودة طرح مقترحاته.

ما من أحدٍ يستطيع أن يسكت البابا. ووحده البابا يستطيع حقّاً أن يقرّ بخطأ الكنيسة الكاثوليكيّة. ذلك بأنّ استنكار الكنيسة لماضيها، أو حتى مجرّد مواجهتها لماضيها، قد يعني الاعتراض على بابا آخر. فلا البابا يوحنا الثالث والعشرون، ولا البابا بولس السادس، تجرآ يوم كانا برتبة كاردينال، على التعبير عمّا كانا فكّرا فيه بهذا الشأن، كما أنّ الكردينال "فويتيلا" نفسه لم يستطع أن يعبّر عن قناعاته المجمعيّة والبولونيّة، إلاّ عندما أصبح بابا.

أنا أعتقد أنّ البابا يوحنا بولس الثاني سيواصل العمل بفكرته، إن منّ الله عليه بالعمر، سواء تبعته الكنيسة في فحص الضمير هذا، أو اضطرّ لمتابعته بمفرده، أو تقريباً. ذلك بأنّه، كما أتيح له أن يتحقّق ذلك، إبان المجمع الاستثنائي عام 1994، فإنّ الإنسان يتقدّم بسرعة أكبر، عندما يكون وحيداً. والحال أنّ البابا على عجلةٍ من أمره: فالعام (2000) يقترب، وهو، إن كان لا يزال حيّاً، سيكون قد بلغ الثمانين من العمر.

على كلّ حال، فقد أنجز وحدَه قسماً كبيراً من المراجعة التاريخيّة، التي تحقّقت حتى اليوم، إذا ما استثنينا، من جهة، مراجعة قضيّة

غاليليو، التي ساعدته فيها لجنة بابويّة، ومن جهة أخرى، المشروع القائم بإجراء تحقيق واسع بشأن اللاسامية ومحاكم التفتيش، كلّفت به أيضاً إحدى الهيئات. وقد تصرف وحده في معظم الأحيان، باذلاً من ذاته، إذ إنّ القسم الأكبر من هذه التصريحات، القائمة على النقد الذاتي، قد نطق به خلال سفريّاته، حتى آخر حوادث برلين (ضعف المقاومة الكاثوليكيّة للنازية: حزيران 1996) ومنطقة الفانديه الفرنسيّة ("في مجابهات بالغة القسوة، ارتُكبت أعمالٌ كثيرةٌ، موسومةٌ بالخطيئة من كلا الطرفين") (من خطاب البابا للسكان وطلاب المدارس، في 1996/9/19).

قال المؤرخ "ألبرتو مونتيكونه" (Alberto MONTICONE): "إنّ طلب الغفران هذا من جميع الناس، يشكّل المفتاح السحري لجميع رحلات البابا يوحنا بولس الثاني". وعندما يريد البابا أن يخاطب شعباً ما، فإنّه يعترف بمسؤوليّات الذين اقتربوا من هذا الشعب قبله، ليقدّموا له البشرى الإنجيليّة نفسها. ولو لم يكن قد سافر، ربّما ما كان طلب الغفران.

إنّ البابا يوحنا بولس الثاني يواصل السفر وطلب الغفران بإرادة تفوق قواه، لأنّه يتبنى مسؤوليّة محدّدة للعام 2000. وقد أسرّ، غداة انتخابه للسدة البابويّة، أنّ الكردينال "فيزينسكي" (WYSZYNSKI)[1] كان قد قال له: "أنت مَن يجب أن يدخل بالكنيسة إلى الألفيّة الثالثة". وهو يريد أن يدخل بها هذه الألفيّة، وقد تخفّفت من ثقل التاريخ، وتصالحت مع الجماعات المسيحيّة الأخرى، وبنت علاقة صداقةٍ مع جميع الديانات الأخرى، ومع جميع الأناس ذوي النيّة الطيّبة. وإن كان في ذلك ما يضغط على مجرى التاريخ، فليس ثمّة ما يوقفه. فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني بابا مُرسَل، وهو رجلٌ عمليّ لن يدع الملفّات تعرقل مسيرتَه.

لويجي أكاتوللي

---

[1] إن الكردينال "فيزينسكي" هو أعلى مسؤولي الكنيسة في بولونيا، وأشد مقاومي النظام الشيوعي فيها. وقد كان أحد أبرز المساهمين في انتخاب البابا يوحنا بولس الثاني، إبان المجمع الانتخابي في تشرين الأول عام 1978. (الناشر)

القسم الأول

سوابق تاريخية ومسكونية

الفصل الأوّل

في الماضي، ما من أحد كان يطلب الغفران

"إنه ثقل الموتى":

هذه العبارة هي للاهوتي "هانس أورس ڤون بالتازار" (Hans Urs Von BALTHASAR)، وهو أحد اللاهوتيين الذين قرر يوحنا بولس الثاني أن يرقّيهم إلى رتبة كاردينال، وهو بالتأكيد أحد معلّميه المباشرين في ما يتعلق بـ"الاعتراف" بخطايا الكنيسة التاريخية.

إنّه ثقلٌ لا يعاني منه سائر البشر، وهو أقلّ وطأةً على البروتستانت، الذين لا تثقلهم كثيراً القرون المسيحيّة، الخمسة عشر الأولى. وإنّ الأمر نفسه ينطبق على الأرثوذكس، الذين لا يُسألون إلاّ عن كنيستهم الخاصة.

أما الكاثوليكي، فإنه لا يُفلت من وطأة هذا الثقل. فهو بدوره، "يتمنّى اليوم أن يستعيد كلّ شيء من البدء، ويكون عصرياً مع العصريّين"، كما يقول "أورس ڤون بالتازار"، ولكنه لا يستطيع أن يتحرر من ثقل الموتى:

« إنّ مبدأه في التقليد الكاثوليكي يحظّر عليه ذلك، أيّة كانت الطريقة إلى فهمه. فإنّ الكنيسة ذاتها، التي يخضع لها، قد فعلت أو سمحت بفعل أشياء ليس من الممكن تأييدها اليوم... فما كان يبدو في حكم ما يُسمح به، بل ما يُؤمر به، في عهد بابوات من القرون الوسطى، يبدو لنا اليوم غيرَ قابلٍ للغفران على نحوٍ مطلق، لا بل بمثابة إثمٍ فظيع، إذا ما أقمناه في الوسط بين الإنجيل في كامل نقائه، وضميرنا اليوم. على كل حال، إنّ ذلك يبدو في تناقض مباشر مع روح المسيح وأوامره. »

إذن، لا بد من "القيام باعترافٍ كاملٍ بالخطايا"، يتابع "أورس ڤون بالتازار"، وهو يقترح هذا الجدول لأخطاء الماضي الرئيسيّة:

« العمادات القسرية، المحاكم الخاصة بالهراطقة وإحراقهم، مجازر السان بارتيليمي (La Saint-Barthélémy)، احتلال قارات أجنبية بالنار والدم، بقصد نشر ديانة الصليب والمحبة فيها، في أعقاب استغلالٍ وحشيّ، تدخلات غير مرغوب فيها قطعيّاً، وبمنتهى الغباء، في مسائل العلوم الطبيعيّة، وهي بعدُ في بداية انطلاقتها، تحريماتٌ ونواهٍ، أطلقتها سلطةٌ روحيّةٌ كانت تتصرف بوصفها سلطةً سياسيّةً، وهي تدّعي الاعترافَ بها من حيث كونها سياسيّة: إنّ سلسلة الأخطاء لا يمكن حصرها. » (1)

إنّ الطريقة التي اقترحها "أورس ڤون بالتازار"، تستند إلى مسلّماتٍ ثلاث: لا يمكن بناء نظرية دفاعية، من الأفضل "الإقرار إقراراً كاملاً"، ولكنه من اللائق أيضاً "عدم رشق الحجارة".

هذه العوامل الثلاثة، نجدها في تعليم يوحنا بولس الثاني، الطويل، حول مسألة ثقل الموتى هذه. وإنّ دعوتَه إلى عدم رشق الحجارة، ماثلةٌ في أحد النصوص الأربعة والتسعين، التي يعالج فيها أخطاءَ الماضي. ورد ذلك في خطابٍ خصّ به الهنود الأميركيين، إذ قال لهم، بعد أن أقرّ بمسؤوليّات المسيحيّين في قمع ثقافتهم، وفي جميع المظالم التي أنزلوها بهم: "ولكن، لا نفرطنّ في التوقف عند الأخطاء والمساوئ، حتى لو كان يتوجّب علينا أن نسعى لمكافحة نتائجها، التي نشعر بها حتى اليوم".

إنّ لنا لاهوتيّاً جذريّاً مثل "أورس ڤون بالتازار"، يرسم طريق "الاعتراف الكامل"، وإنّ لنا بابا مقداماً يمشي في خطاه تقريباً، وإنّ لنا رأياً عامّاً كاثوليكيّاً، زاخراً بالإعجاب، يؤيّد ويشكر، في وجه استثناءاتٍ نادرةٍ جدّاً.

ولكنّ الأمور لم تتّخذ دوماً مثل هذا المنحى. فإنّ هذا الاعتراف

الكامل، هو بادرة واجهت مقاومةً طويلة المدى. ذلك بأنّ أحّداً لم يكن في السابق، ليطلب الغفران.

يعود نص "أورس ڤون بالتازار"، إلى عام 1965. إنّه عام اختتام المجمع الڤاتيكاني الثاني، وهو العام الذي يُقدم فيه بحماس الأسقف الشاب "ڤويتيلا" (كان في الخامسة والأربعين آنذاك) "على طلب الغفران ومنحه"، من الأساقفة البولونيّين إلى الأساقفة الألمان، حول تاريخٍ مشترك، قام على صراعاتٍ داميةٍ بين الشعبين، وجدت تتويجها في الإبادة التي ارتُكبت خلال الحرب العالميّة الثانية. سوف نتحدّث عنه مرةً أخرى في الفصل السابع من القسم الأول هذا.

في تلك الفترة، كان "الاعتراف بالخطايا" أمراً متداولاً. فإنّ البابا بولس السادس كان، قبل ذلك بسنتين، قد طلب الغفران، إبّان المجمع الڤاتيكاني، من الإخوة المنشقّين. وقد تبعه المجمع، بعد عامٍ واحدٍ، بإصدار بيانه حول الحركة المسكونيّة.

استند يوحنا بولس الثاني إلى هذه الأسس القوية، وطبّق "الاعتراف بالخطايا" على مختلف الموضوعات، فمضى إلى ما هو أبعد من الجدول المحدود الذي طلع به "أورس ڤون بالتازار". ثم بعد ذلك بثلاثين عاماً، دعا إلى إجراء فحص ضمير، في نهاية الألفيّة الثانية، سوف نتحدّث عنه في الفصلين الثامن والتاسع، من القسم الأول من هذا الكتاب.

ولكن، هل في ماضي الكنيسة، مَن يستطيع البابا التائب أن يستند إليه؟ تُرى، مَن مِن البابوات، كان، قبل بولس السادس، قد طلب الغفران؟

كان البابا "أدريانوس السادس" (1522–1523)، آخر مَن اعترف مِن البابوات بخطايا الكنيسة: فإنّ هذا البابا السيئ الحظ، وهو آخر بابا غير إيطالي من عصر النهضة، قد لاقى مقاومةً داخل إدارته، وهو يحاول القيام بالإصلاح، استجابةً لنداء "لوثر"، وقد اعترف بـ"الأفعال البالغة الفظاعة"، التي كان البابوات الذين سبقوه وبلاطاتهم، قد أقدموا على ارتكابها.

وكان أوّل طلب غفرانٍ حقيقي، حدث بعد طلب "أدريانوس السادس"،

هو ما افتتح به البابا بولس السادس، الجلسة الثانية من المجمع الڤاتيكاني الثاني، في أيلول عام 1963.

في ما سبق، كان يسود نهجٌ دفاعي لا يسلّم بالاعترافات المعلنة، وكان البابا "غريغوريوس" السادس عشر قد نظّره عام 1832. بذلك تكون مقاومة البابوات للنقد الذاتي قد استطالت أربعمائة وخمسين عاماً. ولذلك، فليس ثمّة محلّ للدهشة، إن كانت معظم تصريحات البابا يوحنا بولس الثاني بهذا الشأن، قد أثارت من الاحتجاجات بقدر ما أثارت من التأييد.

لم يكن البابا "أدريانوس السادس" معروفاً إلاّ لدى المختصين. وإنّ يوحنا بولس الثاني هو الذي أعاد إليه الاعتبار. فإنّ انتخابَه عام 1978، كان، في بادئ الأمر، هو الذي لفت الانتباه إلى سلفه هذا، المغرِق في القِدم، والذي، على غراره، لم يكن إيطالياً. ثم إنّ البابا يوحنا بولس الثاني سيعمد إلى ذكره كثيراً، ليدعم مبادراته في طلب الغفران. ولسوف يستشهد بالبابا "أدريانوس السادس"، في الوقت نفسه الذي يستشهد فيه بالمجمع الڤاتيكاني، وبالبابا بولس السادس، ليشير إليه بوصفه آخر بابا ألماني وهولندي. ولسوف يذكره ثلاث مرات على الأقل، إبّان لقاءاتٍ له مع اللوثريّين: في مدينة "ماينس" (عام 1980)، وفي "كوبنهاغن" (عام 1989)، وفي مدينة "بادربورن" (عام 1996).

كان البابا "أدريانوس السادس"، فور انتخابه، قد أرسل إلى ألمانيا، ممثّله "فرنشيسكو كييريغاتي" (Francesco CHIEREGATI)، وقد كلّفه مهمة استبعاد الأمراء الألمان عن "لوثر"، قاطعاً لهم الوعد بأنّ البابا سيتولّى بنفسه مهمّة الإصلاح. فتلا عليهم "كييريغاتي"، وفق التعليمات التي كان قد تلقّاها من البابا، في 1523/1/3، أمام برلمان نورمبرغ، نصّاً للبابا أدريانوس، يعترف فيه بخطأ الكنيسة في التفسّخ الذي قاد إليه الإرجاء المستمرّ للإصلاح:

« نحن لا نجهل أن قد حدثت، منذ سنوات قليلة، داخل الكرسي

الرسولي نفسه، أعمالٌ بغيضة: استغلالٌ للمقدسات واستهتارٌ بالوصـــايا، بحيث كان أدنى مشروع مسخّراً للشرّ. وبالتالي، لا تجوز الدهـــشة مـــن تسرّب المرض من الرأس إلى الأعضاء، ومن البابوات إلى الأساقفة. نحـــن مصمّمون على بذل قصارى جهدنا، أوّلاً من أجل إصلاح البلاط في روما، الذي انطلقت منه ربما جميع هذه الشرور. وفيه سيبدأ التطهير والتجديـــد، مثلما أنّ المرض انطلق منه. ونحن نعتبر أنفسَنا ملزمين بالقيام بمثـــل هـــذا الإصلاح، بقدر ما يتمنى الجميع، في تحرّق، مثل هذا الإصلاح. [...]

"إلا أنه لا يحق لأحد أن يستغرب عدم قدرتنا على إلغاء جميع هـــذه التجاوزات دفعةً واحدةً. وفي الواقع، فإنّ المرض قـــد تجـــذّر عميقـــاً واستفحل. فيجب علينا، إذن، أن نتقدّم خطوةً خطوةً، وأن نقاوم أكثر الشرور استفحالاً وخطراً، باستخدام علاجاتٍ ملائمةٍ، كي لا نـــسبّب بلبلةً أشدّ بلاءً بإصلاحٍ متسرّع. » (2)

إنّ فشل مبادرة البابا أدريانوس الكريمة، ساهمت في إقناع خلفائه بعدم جدوى الاعتراف بمسؤولياتهم. وقد عرف المختصّون نصوصاً مختلفةً من الوثائق البابويّة، حذّرت، طوال أربعة قرونٍ، من الاعتراف بالخطايا. سنعرض لأكثرها صراحةً وشهرةً، وقد وردت في البراءة البابويّة "يدهشنا" التي أصدرها البابا غريغوريوس السادس عشر، عام 1832:

« إنّه لقمّةُ العبث والإهانة بحقّ الكنيسة، الادّعـــاء بـــأنّ الإصـــلاح والتجديد قد باتا ضروريَّين لها كي تضمن بقاءَها وتقدّمها، كما لو كنا نستطيع أن نعتقد أنّها هي أيضاً كانت قابلة إمّا لضعفٍ، وإمّا لجهـــلٍ، وإمّا لأيّ تشويهٍ من هذا القبيل. » (4)

إنّ الإقرار بخطأٍ أو بضعفٍ في الكنيسة، من شأنه أن يقودَ إلى فكرة الإصلاح: ولمّا كان الإصلاح خطيراً، وجب أن نتحاشى الاعتراف بالخطأ. قد يبدو مثل هذا التفكير مشوّهاً، إذا ما صيغ بمثل هذه العبارات. ولكنّ

ذلك كان حقّاً موقف النهج الدفاعي في القرن التاسع عشر، الذي امتثل بأمانةٍ لتوجيهات البابا غريغوريوس السادس عشر. سوف نقتصر على مثالٍ واحدٍ، بين أكثر الأمثلة وضوحاً، وهو يتعلّق بمسألة تجارة الرقيق (التي سنتحدّث عنها في القسم الثاني من هذا الكتاب)، هذه المسألة التي اعتُبرت، بل قُدِّمت، على ما في ذلك من غرابةٍ لا تصدَّق، في صحيفة "شيفيلتا كاثوليكا"[1]، في مداخلةٍ تعود لعام 1865، بوصفها "المفهوم الأخلاقي للعبودية". (4)

طوال قرونٍ، لم يُبدِ البابوات كبير اهتمامٍ بمسألة تجارة الرقيق، التي أيقظتها فجأة حرب الانفصال في أميركا. وفي حين كانت هذه الحرب تمزّق أميركا، وكان الرأي العام الأوروبي قد بدأ يشمئزّ من العبودية - بعد أن أثارته قراءة كتاب "كوخ العم توم" - وكان مؤتمر ڤيينا (تحت تأثير ضغوط مارسها البابا بيوس السابع) قد أدانها، فإنّ مجلة الآباء اليسوعيّين كانت تسعى لأن تبرهنَ على أنّ العبوديّة ليست منافيةً في ذاتها، للحق الطبيعي، إذا ما روعيَت فيها بعض الشروط. وقد أكّدت أنه لا يحقّ توجيه أيّ لومٍ لمن كانوا قد استفادوا منها حتى ذلك الحين، في المناطق التي كان فيها القانون يجيزها، ولا توجيه أيّ لومٍ للبابوات الذين لم يُقدِموا على إدانتها بالمطلق. وقد خلُصت المجلة إلى النتيجة التالية:

« عندما تُعالَج قضية الرقيق، لا يجوز تجاوز حدود الحقوق الطبيعيّة، حتى لا يُرتكب خطأ ينتهي بصاحبه إلى القول بأنّ الكنيسة وتعاليمها قد اتّحدت في ممارساتٍ ظالمة. »

لذلك لم تقُمْ، طوال قرونٍ، أيّة مراجعةٍ تاريخيّة. وقد قوبلت بأقصى

[1] إن المجلة الكاثوليكية الإيطالية "شيفيلتا كاثوليكا"، أسسها عام (1850) البابا بيوس التاسع، كأداة اتصال في خدمة البابوية، وكلّف بإدارتها جمعية الآباء اليسوعيين. وهي، حتى اليوم، أداة اتصال غير رسمية، تخضع لرقابة أمانة سر الڤاتيكان. (الناشر)

درجةٍ من المقاومة، المراجعات التي فرضها التاريخ. سوف نرى، في الفصل الخاص بغاليليو، في القسم الثاني من هذا الكتاب، أنّ كتابه "في دوران العالَم السماويّ"، لم يُسحب من قائمة الكتب المحرّمة إلاّ عام 1757، وأنّ مؤلّفاتِه لم يُسمح بطباعتها في الدولة البابويّة إلاّ عام 1822.

إنّ شكلاً خاصّاً من أشكال الممانعة في الاعتراف بأخطاء الماضي، قد ظهر حيال سائر الكنائس المسيحيّة، وحال دون اشتراك الكنيسة الكاثوليكيّة في المرحلة الأولى من الحركة المسكونيّة. وإذا ما اعتُبر تاريخ ولادة هذه الحركة، انعقاد مؤتمر "إدنبرة" الإرسالي عام 1910، كما يُجمِع على ذلك المؤرّخون، فإنّنا نلاحظ أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة لم تلتحق به إلاّ بعد ذلك بنصف قرنٍ، في مطلع الستينيّات، أي بعد تشكيل أمانة السر من أجل اتّحاد المسيحيّين (عام 1960)، وتأييد المجمع الفاتيكاني لبيانه حول الحركة المسكونيّة (عام 1964).

إنّ الخشية من أن تُعتبَر مشاركة الكنيسة الكاثوليكيّة في الحركة المسكونية، اعترافاً بمسؤوليّتها في الانقسامات التي كان يُرجى إصلاحُها، قد ساهمت أيضاً في هذا التأخير، كما سنرى في الفصل التالي.

الفصل الثاني

البروتستانتيّون كانوا السبّاقين

سنرى هنا أنّ الاعتراف بالخطايا قد ترسّخ أوّلاً في الأوساط البروتستانتيّة، وأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة ظلّت طويلاً في المؤخّرة، وقد تزامن ذلك مع مقاومة البابويّة لانخراطها في الحركة المسكونيّة. بل يسعُنا أن نقول إنّ الاعتراف بالخطايا كان أوّل وأعظم ما تعلّمته البابويّة من اهتدائها إلى الحركة المسكونيّة. سنرى، كلّما تقدّمنا في هذا الطريق، أنّ يوحنا بولس الثاني أقدم مرّاتٍ كثيرةً، على مبادراتٍ وتصريحاتٍ، تعارِض تلك التي كان أقدم عليها بعضُ أسلافه في هذا القرن، وأنّه فعل ذلك أحياناً (كما فعل عندما مدح، إبّان زيارته كنائس أخرى، روّاد الحركة المسكونيّة) وهو يرمي بصراحة إلى إحداث فسحة لقاءٍ، كانت في السابق قد لُغمت بقصد تحاشي لقاءاتٍ اعتُبرت خطيرةً.

كان أساقفة الكنيسة الأنكليكانية قد أكّدوا بصورة رسميّة، بمناسبة انعقاد مؤتمر "لمبث" (LAMBETH)، عام 1920، أنّ خطيئة الانقسام قائمةٌ، وقد ارتكبتها جميع الكنائس: نحن هنا أمام إحدى أولى الوثائق في تاريخ الحركة المسكونيّة، التي تعترف فيها إحدى الكنائس بنصيبها من المسؤولية:

« يجدر بنا أن نبحث في الماضي عن أسباب الانقسام، وهي، بالتأكيد، لا تتّسم بالبساطة ولا بالملامة الكاملة. إلا أنّ أحداً لا يستطيع أن ينفي أنّ الأنانية والطموح وفقدان المحبّة بين المسيحيّين، كانت العوامل الرئيسيّة في خلق هذا الوضع المعقّد، وأنّه يتوجب علينا بصورةٍ خاصّة، أن ننسب أيضاً إلى الأسباب نفسها، فضلاً عن التغاضي الأعمى عن خطيئة الانقسام، انقسام

المسيحيّة. نحن نقرّ بأنّ هذا الوضع من انقطاع الوحدة، هو منافٍ لإرادة الله، ونريد أن نعترف في صدقٍ بنصيبنا من المسؤوليّة، في التشويهات التي أحدثناها في جسد المسيح، وفي العقبات التي انتصبت أمام عمل روحه. » (5)

بعد سبع سنوات، دعا مؤتمر "إيمان ودستور" (لوزان، عام 1927)، الكنائس المشاركة (ذلك بأنّ الكنائس الأرثوذكسيّة كانت مذّاك حاضرةً أيضاً) إلى التحديق في انقسامات الماضي بفكرٍ تائب:

« يرى البعض أنّ ما من انقسامٍ حدث في المسيحيّة دون خطيئة. غيرهم يرى أنّ الانقسامات كانت النتيجة المحتومة لمختلف مواهب الروح، ولمختلف تفسيرات الحقيقة. وبين هذين الرأيَيْن، يقف رأي مَن يحدّقون في انقسامات الماضي بروحٍ تائبةٍ وألم، وبإحساسٍ حادّ بالرحمة الإلهيّة التي جعلت قضية الله تتقدّم في العالم، على الرغم، وربّما بسبب هذه الانقسامات. » (6)

كان الكاثوليك قد دعوا إلى هذا المؤتمر في لوزان. وكان قبل ذلك بسنتين، قد انعقد مؤتمر مماثل، هو مؤتمر "حياة وعمل" (ستوكهولم، عام 1925)، وقد كانت الدعوة وُجِّهت لهم للاشتراك فيه. وفي كلتا الحالتين، كان جوابهم الرفض. على كلّ حال، كان هذان الرفضان قد تحوّلا إلى موقفٍ مبدئيٍّ، وجد تبريرَه الكامل في براءة البابا بيوس الحادي عشر، "روح الموتى" (عام 1928)، التي كرّرت الدعوة التقليديّة إلى الإخوة المنشقّين للعودة إلى "الأب المشترك": "فهو، إذ ينسى الإهانات التي أُطلقت ضدّ الكرسي الرسولي، سيستقبلهم بكلّ حنانه". (7)

وهكذا، بينما كانت سائر الكنائس تعترف بمسؤوليّاتها، كانت الكنيسة الكاثوليكيّة تشير بيدها إلى أخطاء الآخرين وحسب. وكان بين منظّمي مؤتمر "حياة وعمل" في ستوكهولم، الدكتور "سوبربورن" (SOBERBORN)، وهو أسقف "أوبسالا" اللوثري، الذي كان كثيراً ما ألحّ من أجل مشاركة الكاثوليك. وخلال زيارته للسويد في حزيران عام 1989، وضع البابا يوحنا بولس الثاني، باقةً من الورود على قبره، في كاتدرائيّة "أوبسالا"، بروحٍ

تائبةٍ (8). وفي حزيران عام 1982، في "إدنبرا"، كان البابا قد زار الأمكنة التي انعقد فيها، عام 1910، مؤتمر إرسالي، شاركت فيه منظّماتٌ أنكليكانيّة ولوثريّة وإنجيليّة، ولكن الكاثوليك كانوا - بالطبع - غائبين عنه.

بعد أشكال المعاناة الرهيبة، خلال الحرب العالميّة الثانية، اتّخذ الاعتراف بالخطايا في حقل الحركة المسكونيّة، وجهاً أكثر تصميماً. وإليكم العبارات التي صاغه بها مؤتمر أمستردام عام 1948، وكان أوّل مؤتمرات مجلس الكنائس العالمي:

« نحن ننتمي لكنائس مسيحيّة لم تتفاهم زمناً طويلاً، وتبادلت التجاهل والتشهير. نحن خرجنا من بلدانٍ، كثيراً ما حاربت بعضها بعضاً. كلّنا بشرٌ، خطأة وورثة خطايا أجدادنا. نحن لا نتجاوب مع البركة التي منحنا إيّاها الله. » (9)

هذا الموضوع بلغ مرحلة النضج إبّان المؤتمر الثاني لمجلس الكنائس العالمي، الذي عُقد في "إيفانستون" (EVANSTON) عام 1954:

« إنّ الله قد منحنا أيضاً وعياً جديداً للخطيئة التي تَسِم حالة الانقسام التي ورثناها. وفي هذه الحياة، لن يمكنَنا البتّةَ التنصّل من إثمنا. ولكن يسعنا أن نتوب عن الخطيئة، عندما تتكشّف أمامنا. وإنّنا، حتى عندما ننجز ما نعتبره واجباً، يتوجّب علينا أن نتذكّر أنّنا متورّطون على نحوٍ آثمٍ بالخطيئة - حتى لو لم تكن من فعلنا بالكامل - وأنّه لا يسعنا تبرئة ذواتنا من خطيئة الانقسام. إنّ الاعتراف بالوحدة في المسيح يفترض الاعتراف بالتضامن مع إخوتنا في الخطيئة. [...] يجب علينا جميعاً أن نكون متّحدين، أقلّه من أجل التفكّر بتوبةٍ في انقساماتنا. إنّها ليست التوبة التي يجب علينا أن نتوقّعها من الآخرين، ولكنها التوبة التي يجب أن نشعر بها نحن بالذات، أيّاً كان الثمن، حتى لو لم يكن الآخرون مستعدّين للاقتداء بنا. إنّ التوبة الحقيقيّة هي الاعتراف أمام الله بأنّنا أخطأنا على نحوٍ أوقعَنا أسرى في حبال شرٍّ ليس بوسعنا التخلّص منه، بحيثُ بِتنا غيرَ قادرين على شفاء أنفسنا من انقساماتنا. » (10)

مـرّةً أخـرى، يـسعنا أن نقـيس قـوة المقاربـة الكاثوليكيّـة والبابويّـة للاعتراف بالخطايا، إذا ما قارنّا بـين نـصوصٍ صـاغها مجلـس الكنـائس العـالمي، بـنصٍّ ورد في توجيـه المجمـع المقـدس، الموجّـه لأسـاقفة العـالم أجمع، حول "الحركة المسكونيّة"، نُشر في 1949/1/20:

« سيمنع الأساقفة بحنكةٍ وبإلحاحٍ حقيقيّ، وهم يبـسطون تـاريخ الإصلاح والإصلاحيّين، حدوث مبالغةٍ في إبراز أخطاء الكاثوليـك، أو المبالغة في إخفاء أخطاء الإصلاحيّين، أو تسليط الضوء بطريقةٍ مفرطـة، على عناصر طارئة، بحيث يغيب تقريباً عن النظر ما هو جوهريّ، وهـو تخاذل الإيمان الكاثوليكي. » (11)

الفصل الثالث

البابا يوحنا الثالث والعشرون يصحّح الصلوات

أدخل البابا يوحنا الثالث والعشرون تعديلاً على صلاتين، كانتا تُهينان اليهود والمسلمين. وكانت تلك طريقة في الاعتذار عن إهاناتٍ مغرِقةٍ في القِدم. وقد شاء أن يواجه المجمع الفاتيكاني الثاني، من زاويةٍ جديدةٍ، العلاقات مع الإخوة المنشقّين واليهود. وأعطى الكردينال "بيا" (BEA)[1] تعليماتٍ - ومنحه السلطة الضرورية لذلك - كي يحصل، بعد وفاته، على البيانات المجمعيّة الكبرى المتعلّقة بهذين الموضوعين، التي كانت تضمّ الاعتراف بالأخطاء التي سنتصدى لمعالجتها في الفصل الخامس حول المجمع الفاتيكاني الثاني.

اليهود:

"اليهود الدُّهاة إخوةٌ كبار"، ذلك هو عنوان كتابٍ جميلٍ (12) وضعه "إيليو طواف" (Elio TOAFF)، وهو حاخام روما، والحليف الكبير لآخر البابوات، في مسيرة التقارب بين اليهوديّة والكاثوليكيّة. "اليهود الدّهاة"، تلك كانت العبارات التي تصف بها الصلاة الكاثوليكيّة يوم الجمعة العظيمة، اليهود، حتى عام 1960. "إخوة كبار"، هي العبارة التي وصفهم بها البابا يوحنا بولس الثاني، في كنيس روما، في شهر نيسان عام 1986.

هذا القرار الصغير، والعظيم جداً في آنٍ واحدٍ، بتعديل هذه الصلاة، رواه الكردينال "أغستينو بيا" (Agostino BEA):

« في هذا اليوم، خلال الصلاة الرسميّة، أعطى البابا، على حين غرّة،

---

[1] كان هذا الكردينال اليسوعي عميق الإيمان بصحة اندماج الكنيسة في الحركة المسكونية. وقد أصبح عام 1960 أول رئيس لأمانة سرّ وحدة المسيحيين.

الأمر بالتخلي في الصلاة الشهيرة الخاصة باليهود، عن الصفة المزعجة "الدُّهاة"، التي تبدو بالغة الأذى حتى اليوم، حتى لو عنت في اللغة اللاتينيّة القديمة التي تعود إليها، ببساطة: "غير المؤمنين". وقد حرّكت هذه المبادرة الرأي العام اليهودي وأثارت آمالاً كبيرة. » (13)

كي ندرك أبعاد مبادرة البابا يوحنا الثالث والعشرين، يجب أن نتذكّر أنّ هذه الصلاة الكاثوليكيّة القديمة من أجل اليهود، المسؤولين عن قتل المسيح، كانت لا تخلو من هول:

« لنُصلِّ من أجل اليهود الدُّهاة، كي يزيل الربّ إلهُنا الحجابَ الذي يغطّي قلبَهم، فيعترفوا معنا بربّنا يسوع المسيح.

أيّها الإلهُ القدير والأزليّ، الذي لا ينبذ، في رحمته، اليهود الدُّهاة، استجب للصلوات التي نرفعها لك بشأن عمى هذا الشعب، كي يعترفَ بنور الحقيقة الذي هو المسيح، وينعتقَ أخيراً من ظلماته، بشفاعة المسيح يسوع ربّنا نفسه. »

إنّ الصلاة الجديدة (التي أُدخلت في متن كتاب الصلاة الذي أقرّه البابا بولس السادس) تختلف اختلافاً كبيراً عنها، وتبدو وكأنّها من صياغة شعب آخر:

« لنُصلِّ من أجل اليهود، الذين كانوا أوّل مَن كلّمهم الله: كي يتقدّموا في محبّة اسمه وفي الأمانة لعهده. »

لم يكن إلغاء صفة "الدّهاة"، التجديد الوحيد الذي شاءه البابا يوحنا الثالث والعشرون، في صالح اليهود. فثمّة عبارة أخرى، مهينة حقّاً، وربّما أشدّ هولاً من تلك الواردة في صلاة يوم الجمعة العظيمة، كانت تُتلى في صلاة العماد. عندما كان المعمَّد من أصلٍ يهودي، كان يتوجّب على الكاهن المحتفِل، أن يتلفّظَ بهذا الدعاء: "انظر بهلعٍ إلى المكر اليهودي". فأُلغيت هذه العبارة عام 1960.

من أجل إدراك أهميّة قرار يوحنا الثالث والعشرين هذا، يجدر بنا أن نتذكّر أنّ هول هذه العبارة "اليهود الدّهاة"، وقد بات لا يُطاق بعد المحرقة، كان قد أُخضع للبحث في عهد البابا بيوس الثاني عشر، ولكنّ شيئاً لم يحدث آنذاك. وقد صدر بيانٌ من جمعيّة الطقوس في 1948/6/10، أوضح أنّ الكلمة اللاتينيّة "دهاء"، كانت تعني ببساطة "انعدام الإيمان". وكان هذا الشرح يوازي هذه الصلاة هولاً، لأنّ المعنى المهين للعبارة العاميّة، كان وارداً بالضبط من مثيله في الطقس اللاتيني، وهو غير المؤمن أو الكافر: فنرى هنا ما يشبه مثلاً مصغّراً للتأثير الذي مارسته القطيعة بين الكنيسة والكنيس، في نشأة اللاسامية.

إنّ تعديل هذه الصلاة قد لفت انتباه مؤرّخٍ يهودي فرنسي، هو "جول إسحق"، الذي كان قد فقد زوجته وابنته في المعتقلات النازيّة. فطلب مقابلةَ البابا، فاستُقبل يوم 1960/6/13، فسلّم البابا مذكّرةً حول ضرورة "إعادة النظر في التعليم المسيحي بشأن اليهود"، واقترح إنشاء "لجنة تُعنى بدراسة هذه المسألة". فبلّغه البابا أنّه كان قد فكّر في ذلك، وعندما سأله "إسحق" ما إذا كان يحقّ له توقّع "فُتات من الأمل"، أجابه: "من حقّك ما هو أكثر من الأمل". (14)

في إثر هذا اللقاء، نضجت لدى البابا يوحنا الثالث والعشرين، فكرة ضرورة اهتمام المجمع الڤاتيكاني بالمسألة اليهودية. وفي 9/18، سَلّم هذا الملف إلى الكردينال "بيا" (BEA).

لذلك، عندما قدّم الكردينال "بيا" للمجمع، النص المتعلّق باليهود (أي الفصل الرابع من المخطط حول الحركة المسكونيّة)، في 1963/11/19، أُتيح له أن يستند إلى سلطة البابا يوحنا الثالث والعشرين، الذي كان قد توفّي قبل خمسة أشهر:

« خلال شهر كانون الأوّل من العام الماضي، طَرحتُ كتابةً على البابا يوحنا الثالث والعشرين هذه المسألة اليهودية كلّها. وبعد أيّامٍ قليلةٍ، أعرب قداستُه عن موافقته الكاملة. » (15)

الإخوة المنشقّون:

إنّ المراجعة التاريخيّة بشأن الحركة المسكونيّة، كما أجراها البابا يوحنا الثالث والعشرون، بدأت بالدعوة التي خصّ بها الإخوة المنشقّين، كي يرسلوا مراقبين للمجمع الڤاتيكاني الثاني، وبإنشاء أمانة السرّ من أجل وحدة المسيحيّين (عام 1960). وقد كلّفت بدراسة قضيّتهم وبتقديم اقتراحٍ للمجمع بشأن الحوار من أجل الوحدة.

كان تفكير يوحنا الثالث والعشرين في الشأن المسكوني، قديماً. ففي عام 1926، إذ كان في "صوفيا" بصفة زائرٍ رسولي، وكان يومذاك في الخامسة والأربعين، كتب لشابّ أرثوذكسي:

« إنّ الكاثوليك والأرثوذكس ليسوا بأعداء، بل إخوة. نحن نشترك في الإيمان الواحد، ونشترك في الأسرار ذاتها، وخصوصاً في القربان ذاته. لسنا منفصلين إلا بسبب بعض الملابسات التي تدور حول تكوين كنيسة المسيح يسوع. والذين سبّبوا هذه الملابسات، ماتوا منذ قرون. فلننسَ الخلافات القديمة، ولنسعَ، كلٌّ من موقعه، في الارتقاء بإخوتنا نحو الأفضل، إذا ما قدّمنا لهم مثالَنا الطيّب. وفيما بعد، وإن كنّا قد سلكنا دروباً مختلفةً، سنلتقي في وحدة الكنائس، كي تؤلّف كلّها مجتمعة كنيسة سيّدنا يسوع المسيح، الحقيقيّة والواحدة. »

"لننسَ الخلافات القديمة": هذا المفهوم سيتكرّر ظهوره باستمرار، في نصوص يوحنا بولس الثاني، المتعلقة بمنح الغفران وطلبه. ولكن يوحنا الثالث والعشرين كان، بفضل الخبرة المسكونية الواسعة التي جمعها قبل أن يصبح بابا، مقتنعاً أيضاً بضرورة إجراء نقدٍ ذاتيّ علنيّ، بشأن موقف الكاثوليك العدواني من سائر المسيحيّين. وقبل أن يصبح بابا بأربع سنوات، تحدّث عن هذا الموضوع في مؤتمرٍ عُقد حول "الكنيسة الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة اليونانيّة"، في معهد البابا بيّوس العاشر في البندقية، مستخدماً العبارات التالية:

« إنّ طريق الوحدة لمختلف الكنائس المسيحيّة، هو المحبّة، التي قلّما تقيّدنا بها، مع ذلك، في هذه الكنيسة وفي تلك، دون أن تكون هناك نيّةٌ سيّئةٌ، ولكنّنا أسأنا كلّنا إساءةً كبيرةً إلى الكنيسة وإلى النفوس. » (17)

والجميع يعلمون ما الذي فعله عندما انتُخب بابا. سنذكر جملةً خصّ بها، قبيلَ وفاته، الأخ "روجيه شوتز" (Roger SCHUTZ) (مؤسّس الجماعة المسكونيّة في تيزيه TAIZÉ)، الذي كان قد سأله: "أيّ وصيّة تترك لنا في تيزيه؟"؛ "لا نبحثنّ عمّن كان مخطئاً، وعمّن كان محقّاً، ولكن فلنتصالح!". وهذا القول: "أنتم في الكنيسة، فامضوا في سلام!". وإذ كان الأخ روجيه يزداد إلحاحاً (كانت جماعته من منشأ بروتستانتي، مع أنها كانت منفتحة على الكاثوليك وعلى الجميع): "إذن، نحن كاثوليك!" صرّح له البابا: "نعم، لم نعد منفصلين!" (18)

الإسلام:

أطلق يوحنا الثالث والعشرون أيضاً إشارةً، لم تُعرف كثيراً، ولكنّها ذات قيمة، في اتجاه الإسلام، وكان قد أُتيح له أن يعرفه ويحبّه طوال السنوات التي قضاها في صوفيا واسطنبول. وههنا أيضاً، تُرجمت الإشارة، كما في حال اليهود، بتعديلٍ في صلاة. وكانت هي الصلاة التي تُتلى كلّ عام، في الأحد الأخير من تشرين الأول، من أجل تكريس البشريّة لقلب يسوع الأقدس. ففي 1959/7/18، ألغَتْ روما هذا المقطع من هذه الصلاة: "وأنت مَلِك جميع مَن تلفّهم حتى الآن ظلمات الوثنيّة والإسلام". (19) **وبمناسبة الحديث عن هذا التجديد، وجب التذكير، في ما بعد، بالتحيّة الحارة التي وجّهها البابا يوحنا الثالث والعشرون من الجزائر العاصمة، لـ"جماهير العرب" (ولـ"أبناء الوعد، أبناء إسرائيل") إبّان زيارته لها عام 1950، يوم كان سفيراً في باريس.**

وهكذا سلك يوحنا الثالث والعشرون هذا الطريق، الذي كان من شأنه أن يقود خلفاءه إلى طلب الغفران: وهو، إذ طهّر الصلوات، خطا الخطوة الأولى - وكانت أكثر الخطوات أهميّةً - نحو ما سمّاه البابا يوحنا بولس الثاني "تطهير الذاكرة التاريخيّة".

الفصل الرابع

البابا بولس السادس يطلب الغفران ويمنحه

هناك ثلاثة أعمدة تقوم عليها، في نهاية الألفية، القناطر المركزية لفحص الضمير، الذي تجريه اليوم الكنيسة الكاثوليكية:

"الاعتراف بالخطايا" الذي جرى في المؤتمر الأول لمجلس الكنائس العالمي (أمستردام، عام 1948)

"طلب الغفران من الإخوة المنشقّين"، الذي قام به البابا بولس السادس، إبّان افتتاح الجلسة الثانية من المجمع الڤاتيكاني الثاني (أيلول عام 1963)

"الدعوة" التي وجّهها البابا يوحنا بولس الثاني، في رسالته إلى الكرادلة، في ربيع عام 1994، من أجل إعادة النظر في تاريخ الكنيسة. (20)

إنّ كلاً من هذه المحطات قد حدّدتها نصوصٌ هي، في المطلق، أهمّ المواقف المسيحيّة، المتّخذة في النصف الثاني من هذا القرن. يعود أحدها إلى البابا بولس السادس، وهو يختصر كلّ ما فعله بشأن المراجعة التاريخيّة. إنّ هذا النص يزجّ الكنيسة الكاثوليكيّة في مدرسة أكثر الخبرات المسكونيّة غنىً فكريّاً بهذا الشأن، ويقدّم مساهمةً حاسمةً للمواقف المتّخذة في المجمع، ويؤسّس للشجاعة التي تحلّى بها يوحنا بولس الثاني، بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً، عندما عاود المبادرة.

في 1963/9/29، بعد انتخابه بثلاثة أشهر، تكلّم البابا بولس السادس بهذه العبارات في كنيسة القديس بطرس:

« هنا، نوجّه كلمتنا في احترامٍ، إلى المندوبين الذين أرسلتهم المسيحيّة المنشقّة عن الكنيسة الكاثوليكيّة، بصفة ممثّلين إلى هذه الجمعيّة الرسميّة، والذين يسمّون مراقبين. [...] إن كان ثمّة خطأ ما، يجب أن يُنسَب إلينا في أصل هذا الانفصال، فنحن نطلب، بسبب ذلك، الغفران من الله في

اتّضاع، وأيضاً من الإخوة الذين يرون أنّنا أسأنا إليهم. وفي ما يتعلق بنا، فإنّنا مستعدّون لمنح الغفران لقاء الإساءات التي وُجِّهت إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، وللتغاضي عن الآلام التي تحمّلَتها بفعل السلسلة الطويلة من الخلافات والانقسامات. » (21)

وبعد ذلك بعشرين يوماً، في 10/17، علّق البابا بولس السادس، على تصريحه هذا، عندما استقبل المراقبين المندوبين إلى المجمع، في مكتبته الخاصة. فجاء التعليق بأهميّة التصريح، إذ أنّه أبرز ما فيه من تصميم على اعتباره مثالاً يُحتذى وبرنامجَ عمل:

« لقد تجرّأنا، في خطابنا بتاريخ 9/29، ولجأنا قبل كلّ شيءٍ، إلى الغفران المسيحي، المتبادل إن أمكن. إنّه حقّ نطالب به من أجلنا، ونهبه للآخرين. إنّ أرواحنا بحاجة إلى هذا الاطمئنان، إن كانت مطالبة بإحداث علاقات صداقة، ومحاورات صافية. أوّلاً، لأنّ ذلك شأنٌ مسيحي؛ يقول الرب: **"فإذا كنت تقرِّب قربانك إلى المذبح وذكرتَ أنّ هناك لأخيكَ عليك شيئاً، فدع قربانَكَ هناك عند المذبح، واذهبْ أوّلاً فصالحْ أخاك، ثمّ عد فقرّب قربانك"**. (متّى 5: 23-24)

"ثم إنّ ذلك، بالنسبة إلينا، هو أفضل السبل: أن ننظر لا إلى الماضي، ولكن إلى الحاضر، وخصوصاً إلى المستقبل. هناك من سيستطيعون، بل سيضطرّون للقيام بدراسات حول التاريخ الماضي. نؤثر الآن أن نركّز انتباهنا لا على ما حدث، بل على ما يجب أن يكون. نحن نلتفت نحو جديدٍ يجب أن نلدَه، وحلمٍ يجب أن نحقّقَه. » (25)

ما هو مدهشٌ في هذا السياق، هو اللّجوء إلى استشهاد بالشاعر اللاتيني "هوراشيوس"، يتجاور مع الاستشهاد بالمسيح. إنّه الدليل على أن البابويّة لا تريد التخلّي - حتى ولا لدى أكثر ممثّليها حداثةً، وهذا ما كانه، دون أدنى شك، البابا بولس السادس - عن تقليدها الثقافي

والإنساني! وهو الدليل أيضاً على قَدَر بعض الكلمات الغريب: فإنّ كلمات "هوراشيوس" التي تُحيل، في البيت الحادي عشر من ديوانه "الفن الشعري"، إلى التسليم بالتجاوزات الشعريّة، قد اكتسبت شرفاً في هذا التصريح البابوي، وأصبحت الصيغة التي اعتمدها الأساقفة البولونيون ليخاطبوا، في آخر المجمع الڤاتيكاني، الأساقفة الألمان، من أجل تحقيق المصالحة بين شعبيهما. وسيستخدم يوحنا بولس الثاني هذه الصيغة مرات كثيرة، ليؤكّد تبشيره الثابت بالغفران، في حقل الحركة المسكونيّة، كما في حقل العلاقات بين الشعوب. (23)

لكي نبرز مرمى التصريح الثوري للبابا بولس السادس، سنذكر نصّاً آخر يعود إلى بداية بابويّته، وهو مستمدٌ من خطابٍ خصّ به دائرته في روما، بتاريخ 9/21، حول ضرورة الإصغاء إلى الانتقادات، حتى أشدّها قسوةً، دون إثارة أيّ سجال:

« يجب أن نتقبّل الانتقادات التي تحيط بنا، في اتّضاعٍ، وتفكيرٍ، بل وشكرٍ. روما ليست بحاجة، للدفاع عن ذاتها، إلى تجاهل الاقتراحات التي ترِدها من أصوات صادقة، فكم بالأحرى إن وردتها من أصوات صديقة وأخويّة. أمّا الاتهامات التي تفتقر في الغالب إلى أساس، فإنّ روما ستقابلها بالتأكيد بجوابٍ يكون دائماً لائقاً بها، ولكن دون تأفّف، ودون حدّة وسِجال. » (24)

إنّ طلب الغفران من الإخوة المنشقّين، الذي كان البابا قد عبّر عنه خلال المجمع، حثّ المجتمعين على استعادة نصّ مماثل، كان قد أُدرج في مشروع دراسةٍ مسكونيّةٍ أولى، يتعلق بالكنائس الشرقيّة، وكان قد استُبعد إثر انتقاداتٍ حادّةٍ جداً، أثارها خلال الجلسة الأولى، في تشرين الثاني عام 1962. فمن المهم إعادة قراءة هذه الانتقادات التي أثارها، بعد ذلك باثنين وثلاثين عاماً، الاقتراح بفحص الضمير في أواخر الألفيّة، الذي كان البابا يوحنا بولس الثاني قد تقدّم به، والذي سوف نتحدّث عنه في الفصلين الثامن والتاسع.

يومذاك، كان الكردينال "أرنستو روفيني" (Ernesto RUFFINI)[1] قد طرح السؤال حول العلاقة بين الكنيسة المقدّسة والمسيحيّين الخطأة، القائمة حتى اليوم في قلب النقاش الدائر (سنرى في الفصل الثامن أن الكردينال "بيغي"[2] عاد إلى النقاش نفسه)، وقد لاحظ أنّه من الأصحّ القول بأنّ "قسماً من المسيحيّين" وليس "قسماً من الكنيسة"، قد انشقّ إبّان الانفصال. وإنّ الأسقف الكرواتي "ف. فرانيتش" (F. FRANIC) أكّد على التمييز الكلاسيكي بين الأخطاء الخاصة بالكاثوليك، وخطيئة الآخرين الأساسيّة، وهذه وتلك تختلفان جوهريّاً:

« من الناحية التاريخيّة، لم تكن أخطاء الكاثوليك بغريبة عن الانفصال، ولكن من الناحية اللاهوتيّة، فإنّ خطيئة الانفصال لم يرتكبها سوى الآخرين، في حين أنّنا ظللنا نحن أوفياء لكرسي بطرس. »

وشكا الأسقف البولوني "أ. بفلوفسكي" (A. PAWLOWSKI) من النزعة إلى "اتّهام الكنيسة اللاتينيّة بإفراط"، وطالب حيالها بممارسة "المحبّة المسالمة إيّاها"، التي نريد إظهارها للآخرين. وسجّل الأسقف الماروني "جوزيف خوري" ملاحظة مماثلة:

« لقد بالغنا، كما لو كان يترتّب على الكاثوليك وحدهم، أن يقرعوا صدورهم. »

إنّ الاعتراض القائل بأنّه ليس من حقّ أحدٍ اتّهام الموتى، والآخذ بالانتشار، ضد اقتراح البابا يوحنا بولس الثاني، يستند إلى جذور قديمة، وقد عبّر عنه الأسقف الصيني الوطني "ج. فيلاسكو" (J. VELASCO)، بالكلمات التالية:

« إنّه من المؤسف أن يحاول بعضهم، في خفيةٍ وفي عمليّة مباغتة، إن صحّ التعبير، أن ينتزعوا من المجمع حكماً بشأن مسألةٍ تاريخيّةٍ خطيرةٍ

---

[1] كان إيطالياً، وعُيّن رئيس أساقفة في "باليرما" بصقلية، وكان أحد زعماء المحافظين في المجمع الفاتيكاني الثاني. (الناشر)

[2] كان رئيس أساقفة بولونيا بإيطاليا، ويُعتبر من الجناح المحافظ في الكنيسة الإيطالية. (الناشر)

جدّاً، أعني بذلك مسؤوليّة كنيسة روما، ولو جزئيّاً، في انشقاق الشرق: يجب أن نتخلّص من اتّهامٍ كهذا. في أسوأ الأحوال، فلنتّهم أنفسنا، ولكن لا نتّهمنّ أمواتاً لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. »

وأضاف الأسقف الإيطالي "ر. أدازي" (R. ADDAZI)، وهو أسقف "تراني"، أنه لا بدّ من تجنيب المجمع مثل هذا الامتهان، بالنسبة إلى الماضي والحاضر، سواء بسواء:

« إنّه لا يشرّف مجمعاً أن يدينَ، حتى ضمنيّاً، هؤلاء البابوات القدّيسين، الذين كانوا يقودون الكنيسة في عهد الانشقاق. لا نريد لإخوتنا المنشقّين أن يقرعوا صدورهم أمامنا. ولكنّا لا نريد أيضاً لنا، نحن الذين يشكّلون الكنيسة المعلِّمة، أن نركع ونتّضع عند أقدامهم. » (25)

في أعقاب تصريح البابا بولس السادس، خفّت المقاومة في وجه دعاة الاعتراف بالخطايا، واشتدّ ساعد مَن كانوا يدعون إلى النقد الذاتي، وأُخذ مجدّداً بهذا النص، ولكن في صيغةٍ جديدةٍ، ملطّفة. سنرى ذلك في الفصل الخامس.

بعد استعراضنا لهذه المساهمة الأساسيّة، التي قدّمها البابا بولس السادس في تاريخ الاعتراف الكاثوليكي بالخطايا، سنقصر البحث على الإشارة السريعة إلى مبادراتٍ أخرى في ذات الاتّجاه، تمّت في عهده. سيتوجّب علينا أن نتحدّث عن الدور الذي لعبه في تصريحات أخرى من النقد الذاتي، صدرت عن المجمع الفاتيكاني الثاني، التي سنأتي على ذكرها في الفصل الخامس.

يتوجّب علينا أن نصِف زياراته للقدس والقسطنطينيّة وجنيف، وكلّها محطّاتٌ على درب المصالحة مع اليهوديّة وسائر الكنائس المسيحيّة. كما يتوجّب علينا التذكير بإعادة الذخائر إلى مختلف الكنائس الشرقيّة، وعَلَم معركة "ليبانت" (LEPANTE) إلى المسلمين، بوصفها مبادراتٍ تنطوي على

مراجعة تاريخيّة.وأخيراً يتوجّب علينا الحديث عن تقدمته تاجه[1] للفقراء، إذ إنّه ينطوي بدوره، هذه المرّة، على النقد الذاتي بشأن البذخ في روما.(27)

ولكن علينا أن نتوقّف عند مبادرةٍ مجمعيّةٍ أخرى، ذات دلالة بالغة، بوصفها مثالاً يمكن أن يُقتدى به في المستَقبل: عنَينا بها الإلغاء المتبادل لحُروم عام 1054**، مع بطريركيّة القسطنطينيّة. إنّ هذا الإجراء** (1965/12/7) **توّج أفعال البابا بولس السادس المجمعيّة، التي كان قد افتتحها بطلب الغفران. وقد شاء البابا أن يعبّر عن ذلك بأقوالٍ رسميّة، بإعلانٍ نموذجيّ يحسن به أن يُعتبر قيمةً يُقتدى بها، في مبادراتٍ مستقبليّةٍ مماثلة، ذلك بأنّ الحروم التي كان البابوات قد أطلقوها، كانت من الكثرةٍ بحيث أنّ أحداً من البابوات اليوم لا يمكنه أن يؤيّدَها:**

« نؤكّد، أمام الأساقفة المجتمعين في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، أنّنا نشعر بأسف شديد للأقوال التي أُطلقت في ذاك العهد، وللأعمال التي تّمت آنذاك، والتي لا يمكن تأييدها. فضلاً عن ذلك، فنحن نرغب في استبعاد قرار الحرم الذي أُطلق في ذاك العهد، وإلغائه من ذاكرة الكنيسة، واعتباره نسياً منسيّاً إلى الأبد. » (28)

هذه المبادرة العظيمة، سبقتها وتلتها مبادرتان دونها أهميّةً، ولكنّهما تضفيان عليها قيمةَ بادرةٍ شخصيّة، في سبيل البحث عن الأخ التائه: إنّها أوّلاً قبلة السلام المتبادلة مع البطريرك "أثيناغوراس"، يوم 1964/1/6**، وإنّها ثانياً تقبيل أقدام مندوب القسطنطينيّة، بمناسبة مرور عشر سنوات على إلغاء الحُروم.**

يعرّف البابا القبلة المتبادلة مع البطريرك "أثيناغوراس"، على أنّها "رمزٌ ومثال المحبّة التي تستخلص العِبر من الماضي، وتبدي استعدادها للغفران".(29)

إلاّ أنّ مبادرة 1975/1/14**، بمناسبة حلول الذكرى العاشرة للمصالحة مع القسطنطينيّة، على جانبٍ أكبر من الإدهاش: يومها، كان البابا، في**

---

[1] كان التقليد يقضي بتقديم التاج إلى البابا المنتخَب، من قِبل أبناء أبرشيته السابقة، فوضع البابا بولس السادس تاجَه في المزاد العلني، وقدّم عائدات المزاد للفقراء. (الناشر)

كنيسة القديس بطرس، يرتدي كامل ثيابه الطقسيّة، وإذ به يركع فجأةً ويقبّل قدمَي الأسقف "ميليتون" (MÉLITON)، مندوب بطريرك القسطنطينيّة. فكان تقبيل القدمَين حدَثاً: إنّه ألغى إهانةً سابقةً. وقد شاءه البابا بولس السادس "تعويضاً عن عملٍ مناقضٍ، فرضه سلفه البابا أوجين الرابع على البطريرك جوزيف الثاني، إبّان انعقاد مجمع "فيراريه - فلورنس" (FERRARE-FLORENCE)". (31)

خارج نطاق مبادرته المسكونيّة والمجمعيّة، قام البابا بولس السادس أيضاً، بمبادراتٍ فيها مراجعاتٌ تاريخيّةٌ وطلبُ غفرانٍ. نذكر أنّه، مثلاً، في خطابٍ له في كنيسة "السيكستين" (SIXTINE)، طلب من الفنانين أن يعذروا الكنيسة، لما بدر منها من إساءة فهمٍ لهم خلال القرون السابقة.

لقد كان البابا ينطوي على ما يشبه غريزة الاتضاع، فتحثّه على السعي لمعرفة حجج الآخرين، وعلى إعادة الاعتبار لهم، منذ الاتصالات الأولى. وقد كان المطران "مونتيني"، قبل اعتلائه السدّة البابويّة، مشبعاً بالفكرة القائلة بأنّه يترتّب على الكنيسة ألاّ تكتفي بطلب الغفران من الله، بل من الإخوة أيضاً (بل "قَبْل الله"، كما قال في إحدى المرات). وقد ألِفَ، يوم كان رئيس أساقفة ميلانو، أن يطلب الغفران في محاولةٍ قصوى منه لجلب الاستماع إليه، حيث كان الحوار معدوماً. من ذلك أنّه، في 1957/11/10، قام بطلب "الغفران بمودّة" من "الأبناء البعيدين"، مفتتحاً بذلك "الإرساليّة غير العاديّة التي خصّ بها مدينة ميلانو":

« أيّها الأبناء البعيدون،

إن كان ثمّة صوت يستطيع أن يَطالكم، فإنّ أوّل ما يترتّب فعله هو طلب الغفران بمودّةٍ منكم. أجل، نحن نطلبه منكم، قبل أن نطلبه من الله... إن كنّا لم نتفهّمكم، وزجرناكم بسهولة، وإن لم نُبدِ حيالكم أيّ اهتمام، إن لم نكن معلّمين روحيّين صالحين وأطبّاء صالحين للأرواح، إن لم نُؤتَ القدرة على التحدث إليكم عن الله كما يجب، إن كنّا تعاملنا معكم في سخريةٍ، في تهكّمٍ، في سجالٍ، فإنّنا اليوم نطلب منكم الغفران. » (32)

الفصل الخامس

المجمع يسير في خطا البابا

أخيراً حلّ المجمع، فأخذت الكنيسة الكاثوليكيّة بدورها تستخدم اللغة المسكونيّة في الاعتراف بالخطايا، وفي طلب الغفران. وإنّ أبلغ هذه النصوص ورد في القرار الخاص بالحركة المسكونيّة، الذي وافق عليه المجمع الفاتيكاني الثاني، في شهر تشرين الثاني عام 1964. وقد رأينا أنّ البابا بولس السادس قام فيه بدور حاسم، وقد استبق جوهر هذا الاعتراف، وشجّع المجمع على المضيّ قدُماً إلى الأمام. وما من شكّ أنّه كان من الضروري أن يكون البابا هو مَن يقود الكنيسة الكاثوليكيّة، في مهمّة الإقرار بمسؤوليّتها التاريخيّة، طالما أنّ البابوات كانوا في ما مضى، هم مَن خنقوا جميع الأصوات الرامية إلى هذا الاعتراف.

هوذا إذن الاعتراف الرئيسي الصادر عن المجمع الفاتيكاني الثاني، والوارد في الفقرة السابعة من القرار المتعلّق بالحركة المسكونيّة (تشرين الثاني 1964)، الذي يُحيل إليه باستمرار البابا يوحنا بولس الثاني، كلّما طلب الغفران من محدّثيه:

« يمكننا أن نطبّق شهادة القديس يوحنا، على الأخطاء ضدّ الوحدة: "إن قلنا إنّنا لم نُخطئ، نجعل من الله كاذباً، وكلمتُه ليست فينا". إذن، يجب علينا أن نطلب الغفران في صلاةٍ متّضعة، من الله ومن إخوتنا المنشقّين، مثلما أنّنا نغفر لمن أساء إلينا. » (33)

هناك نصٌ آخر في القرار حول الحركة المسكونيّة، يشير إلى خطيئة انقسام الكنائس، وقد استشهد به أيضاً البابا يوحنا بولس الثاني:

« في كنيسة الله هذه، الوحيدة والواحدة، ظهر منذ البدء بعض

الانقسامات، التي شجبها الرسول بقوّة، على أنّها غير مقبولة. وخـــلال القرون التالية، برزت خلافاتٌ على جانبٍ أكبر من الخطر، فانـــشقّت جماعاتٌ واسعةٌ عن الشركة الكاملة مع الكنيسة الكاثوليكيّـــة، أحيانـــاً بفعل أخطاء ارتكبها أشخاصٌ من هذا الطرف ومن ذاك. » (34)

إن كانت كنيسة الفاتيكاني الثاني تستطيع أن تقرّ بخطاياها، وتطلب الغفران، فذلك يعود إلى أنّها تقرّ بأنّها في آنٍ واحدٍ، مقدّسةٌ وخاطئةٌ، كما ورد في هذه الفقرة من القرار المجمعيّ: "نور الأمم" (تشرين الثاني 1964):

« ولكن، في حين أنّ المسيح، القدّيس، البريء، النقـــيّ، لم يعـــرف الخطيئة، وقد جاء فقط ليكفّر عن خطايا الشعب، فإنّ الكنيسة، بالمقابل، تحتوي في حضنها خطأةً أيضاً، وهي إذن مقدّسةٌ ومدعوّةٌ لتطهير ذاتها، لتواصل جهودها الدائمة في التوبة والتجديد. » (35)

إن هذا النص يعادل بأهميّته نصّ القرار حول الحركة المسكونيّة، الذي كان يطلب الغفران من الإخوة المنشقّين. وهو يضمّ رؤيتَي الكنيسة، من حيث كونُها "مقدّسة في المسيح" و"خاطئة في أعضائها"، اللتين تلازمتا في عصر الآباء الأوّلين وفي العصور الوسطى، ولكنّهما انفصلتا بعد ذلك بسبب الحرب بين الإصلاح البروتستانتي والإصلاح الكاثوليكي المضاد، حيث شدّد البروتستانت على فضح الخطيئة، فيما شدّد الكاثوليك على الدفاع عن القداسة. وقد تجدّد حديثاً النقاش المجمعي الذي قاد إلى تأييد هذا النص، بعد أن اقترح يوحنا بولس الثاني فكرة فحص الضمير في نهاية الألفيّة. يومذاك، انتهى النقاش إلى ما يشبه مساومةً لغويّةً، التزم بها البابا بصورةٍ عامّةٍ، وهي تنسب الأخطاء والخطايا إلى "أبناء الكنيسة"، وليس إلى الكنيسة مباشرة، حتى لو كان الأمر يتعلّق بمسؤولين في الكنيسة أو في إدارتها. (36)

اعترف المجمع الفاتيكاني الثاني بمسؤوليّات الكنيسة الكاثوليكيّة، في

اضطهاد اليهود، في مجال الحريّة الدينيّة وفي قضيّة غاليليو. سنُقدِّم لاحقاً النصوص التي تتعلّق بكلٍّ من هذه القضايا، ونعترف بأنّ هذه الاعترافات غير كافية، وأنّ البابا يوحنا بولس الثاني نفسه يعتبرها غير كافية. وقد تناول البابا مجدّداً، مرّاتٍ كثيرةً، هذه الموضوعات، كما سوف نرى في الفصول المتعلّقة بكلٍّ منها، في القسم الثاني من هذا الكتاب.

قبل كلّ شيء، فيما يتعلّق باللاسامية، إنّ الاعتراف بالمسؤوليّة الكاثوليكيّة متضمَّنةٌ في الفقرة الواردة في "التصريح الخاص بعلاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحيّة" (تشرين الأول عام 1965)، وهي تأسف لهذه الأفعال "أيّاً كان مرتكبوها"، وهي تعني إذن الأفعال التي ارتكبتها الكنيسة. إنّ ذلك لقليلٌ، ولكنّا سنرى، في الفصل الخاص باليهود، في القسم الثاني من هذا الكتاب، أنّ طلباً صريحاً للغفران لم يقدَّم بعد، وقد مضى على التصريح المجمعيّ قرابة ثلاثون عاماً:

« فضلاً عن ذلك، فإنّ الكنيسة، التي تشجب جميع الاضطهادات إزاء جميع الناس، أيّاً كانوا، لا يسعها أن تنسى الإرث المشترك القائم بينها وبين اليهود، وهي، مدفوعةً بأسباب لا سياسيّة، بل بمحبّة الإنجيل الدينيّة، تأسَف للأحقاد والاضطهادات وسائر أفعال اللاسامية، التي حلّت باليهود، أيّاً كان زمانها ومرتكبوها. » (37)

ثمّة نصّ آخر، مشتقٌ من "القرار حول الحريّة الدينيّة" (كانون الأول 1965)، أُدرج ضمن مواقف يوحنا بولس الثاني، من الحروب الدينيّة ومحاكم التفتيش والأصوليّة:

« مع أنّه حدثت أحياناً في حياة شعب الله، السائر عبر تقلّبات التاريخ البشري، طرائق في العمل لا تتّفق وروح الإنجيل، بل تناقضه، فإنّ الكنيسة قد علّمت دائماً أنّه لا يجوز إرغام أحدٍ على الإيمان. » (38)

كذلك هي الحال بشأن غاليليو - الذي لم يذكره المجمع، ولكنه يشير

إليه في الفقرة التالية من "الدستور الرعويّ حول الكنيسة في عالم اليوم" (كانون الأول 1965) - فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني سينتهز الفرصة ليقول المزيد:

« على هذا الصعيد، ليُسمح لنا بإبداء الأسى حيال بعض المواقف التي حدثت بين المسيحيّين أنفسهم، الذين لم يكونوا على بيّنة كافية من استقلاليّة العلم المشروعة. وقد كانت مصدراً لتوتّرات ونزاعات، قادت كثيراً من المفكّرين إلى الاعتقاد بأنّ العلم والدين يتعارضان. » (39)

فضلاً عن هذا الاعتراف الخجول المتعلّق بغاليليو، فإنّ القرار "فرح ورجاء" يحتوي فقرات أخرى كثيرةً من النقد الذاتي، تتعلّق بمجمل خبرة الكنيسة التاريخيّة، سواء منها ما يتعلّق بخصوصيّة الحياة الدينيّة أو بترجمتها الاجتماعيّة:

« إنّ الإلحاد، إذا ما دُرس في مجمله، لا يجد أصلَه في ذاته، وهو يجده في أسباب مختلفة، يجب أن نقحم فيها ردّ فعلٍ انتقاديّاً حيال الديانات، وعلى الأخص في بعض المناطق، حيال الديانة المسيحيّة. ولذلك، فإنّه يمكن للمؤمنين، في نشوء الإلحاد هذا، أن يكون لهم نصيبٌ ليس بقليل، كلّما كنّا نستطيع أن نقول عنهم، بسببٍ من اللامبالاة في تنشئتهم الإيمانيّة، وبسببٍ أيضاً من أخطائهم في حياتهم الدينيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، إنّهم يحجبون الوجه الحقيقي لله وللديانة، بدل أن يتجلّيا فيهم. [...] وعلى الرغم من أنّ الكنيسة ظلّت، بقوة الروح القدس، وفيّةً لربّها، و لم تكفّ يوماً عن كونها علامةَ الخلاص في العالم، فهي تعرف جيّداً أنّه وُجد، عبر تاريخها الطويل، بين أعضائها، من رجال كنيسة وعلمانيّين، عددٌ لا بأس به، ممّن كانوا غيرَ أمينين لروح الله. والكنيسة اليوم لا تجهل المسافة القائمة بين الرسالة التي تحملها، والضعف البشري لدى من ائتُمنوا على الإنجيل. وأيّاً كان حكم التاريخ على هذه الزلاّت، فإنّه يتحتّم علينا أن نعيَها وأن نقاومَها بقوّةٍ، كي لا تُسيءَ إلى انتشار الإنجيل. » (40)

في ذاك الوقت، بدت اعترافات المجمع فادحةً، بل بالغة الفداحة في نظر بعضهم. وبعد ذلك بعشر سنواتٍ، أو أكثر قليلاً، (إنّ مداخلة الكردينال "كارول فويتيلا" حول غاليليو حدثت بعد ذلك بأربعة عشر عاماً فقط، بعد إقرار القرار "فرح ورجاء")، ستبدو هذه الاعترافات غير كافيةٍ في نظر إدارة الڤاتيكان، أو على كل حال، في نظر البابا الجديد. ولكنّ الاعترافات المجمعيّة، بالطبع، لم تعتّم أن خيّبت المراقبين المسكونيّين. سنكتفي بذكر أكثر الأصوات أهميّةً، وهو صوت "كارل بارث" (Karl BARTH)[1]. إنّ استياءه من مبادرات التوبة في المجمع الڤاتيكاني الثاني، كان ينطوي على دلالةٍ كبيرةٍ، بحيث جاء تعبيره في نصّ صاغ فيه حكماً مؤيّداً جداً لهذا المجمع، وقد انتهى فيه إلى تعريف نفسه على أنّه "كاثوليكي- بروتستانتي": جاء ذلك في كُتيّبٍ مثيرٍ بعنوان "محادثات في روما بعد المجمع"، كتبه عام 1967، إثر رحلة إلى روما، قابل خلالها البابا وإدارته، وحيث تسنّى له أن يعمّق معرفته بأعمال المجمع الڤاتيكاني الثاني.

نجد في كُتيّب "بارث"، ثلاثة مقاطع يأسف فيها لغياب الاعتراف الصريح بالخطايا، في وثائق المجمع الڤاتيكاني.

أولاً، بالنسبة إلى اليهود:

« أَوَليس هنا (وهذا أَوْلى من الحديث عن "الإخوة المنشقّين" المسيحيّين) كان الأجدى هو الإقدام الصريح على الاعتراف بالخطايا، إذا ما فكّرنا بلاسامية الكنيسة القديمة والوسيطة، وفي الغالب أيضاً كنيسة العصور الحديثة؟ » (42)

ثمّ من أجل المسلمين:

لمّا كان القرار المجمعي "في زماننا هذا" يذكرهم صراحةً:

« أَوَلَم يكن مثل هذا الاعتراف بالخطايا، قد وجد مكانَه المناسب في

[1] كارل بارث هو أحد أعظم اللاهوتيين الكالفينيين في القرن العشرين، وهو يؤيد اللاهوت العمودي المعارض للبروتستانتية الليبرالية. وهو لم يتردّد، في زمانه، في التنديد بتسلّم هتلر الحكم. (الناشر)

الحديث عن المسلمين، نظراً للدور المشؤوم الذي لعبته الكنيسة في ما يسمّى "الحملات الصليبيّة"؟! »

وهو "بارث" نفسه الذي يضع علامتَي الاستفهام والتعجب، وكأنّي به يقول: إنّ ذلك لأمرٌ أكثر من صارخ. (43)

أخيراً، "بشأن القرار حول الحريّة الدينيّة"، وقد فهمه "بارث" على أنّه طلبٌ من الحكومات "ليضمنوا للمسيحيّين والكنيسة، حريّة العمل"، يقول:

« لمّا كانت الكنيسة (وليس فقط كنيسة روما!) قد تحالفت مع الدولة، كي تطبّق، خلال الفترة الكبرى من تاريخها، مبدأ: "أرغميهم على الدخول"، أيحقّ لها حقّاً أن تصوغ مثل هذا المطلب؟ وهنا أيضاً، أوَلَم يكن من الأفضل لها أن تعترفَ بخطاياها؟ » (44)

إنّ الروح الكامن وراء صياغة "بارث" لهذه المساءلات، يكتسب وضوحاً بسؤالٍ رابع، واضحٍ وغير قابلٍ للنقاش، يتعلّق بالقرار الخاص بالحركة المسكونيّة:

« لمّا كانت هذه الوثيقة تقرّ صراحةً أنّ الحركة المسكونيّة قد وُلدت خارج الكنيسة الكاثوليكيّة، ولما كانت تدعو الكاثوليك للمشاركة فيها، "لماذا لم تعترف هي بهذا السبق الذي حقّقته حيالها الكنائس غير الرومانيّة؟" » (45)

هذه الأسئلة الأربعة التي وجّهها "كارل بارث" لروما، تلقّى منها حتى اليوم الجواب عن اثنين فقط، وقد جاءا على لسان البابا يوحنا بولس الثاني، بشأن الحركة المسكونيّة والحريّة الدينيّة. ففي براءته "ليكونوا واحداً" (عام 1995)، أعلن البابا بصراحة أنّ الحركة المسكونيّة قد نشأت وتطوّرت لدى البروتستانت والأرثوذكس. (46) **وكان قد اعترف "بالخطيئة" ضد الحريّة الدينيّة، في خطابه أمام البرلمان الأوربي، في تشرين الأول عام 1988.** (47)

وحتى اليوم، لم يتمّ الاعتراف الحقيقي بالخطايا المتعلّقة بالإسلام واليهود. وما قال يوحنا بولس الثاني حتى الآن، ليس سوى مقدّمةٍ لكلّ ما يجب أن يُقال أيضاً.

الفصل السادس

البابا يوحنا بولس الأول كان له مشروع

ظلّ على الكرسي البابوي ثلاثةً وثلاثين يوماً. لم يتلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ حول ضرورة مراجعة تاريخ الكنيسة. ولكنّه قام بعملٍ يساوي الكثير: تخلّى عن التّاج، واستبدل الاحتفال بالتنصيب بصلاةٍ افتتح بها بابويّته.

إن كنّا لا نملك منه أيّ كلمةٍ موثوقةٍ، بشأن المراجعة التاريخية، فلدينا بالمقابل عددٌ كبيرٌ من التصريحات المنقولة أو المنسوبة إليه - ولكن قطعاً من دون متحدّثين أو شهودٍ مباشرين - ومع ذلك، فهي تستحقّ أن تُجمع، لأنّها تعلّمنا دون شكٍّ شيئاً كثيراً عن الروح الذي كان يواجه به المستقبل، منذ انتخابه، ولأنّها تستبق، في الواقع، مبادراتٍ كثيرةً قام بها يوحنا بولس الثاني. وهي تشكّل، على الأقلّ، شهادةً حول ما كان يُقال له، أو حول ما كان يدور في خلد مَن حوله، وحول ما تردّد من أقوالٍ في ما بعد، إحياءً لذكراه: فقد تكون هذه الخواطر، بعد أن انتشرت بين الناس، قد أثّرت، بصورةٍ أو بأخرى، في سلفه.

إنّ من ائتُمن على مشاريع البابا يوحنا بولس الأول (وهو "خليل" غير مباشر، ولكنّه الأوحد الذي يمكن حالياً الاتصال به) هو صحفي وكاتبٌ من البندقيّة، يُدعى "كميّو باسوتو" (Camillo BASSOTTO)، وهو المسؤول الإعلامي السابق في مهرجان البندقيّة، ولا سيّما المهرجان السينمائي العالمي، وقد كتب وصفاً للبابا يوحنا بولس الأول، بعنوان: "قلبي ظلّ في البندقية"، وفيه نصّان كبيران يتعلّقان بمشاريع بابويّته، والنصّان يرتكزان على شهادتين لمتحدّثَين مباشرَين مع البابا، أحدهما توفّي، والآخر غفل.

الأول هو "جرمانو بتّارو" (Germano PATTARO)، وهو كاهنٌ ولاهوتيّ

من البندقيّة، ناشطٌ على صعيد الحوار المسكوني، وقد قضى عليه السرطان في أيلول عام 1986. كان البابا يوحنا بولس الأول، فور انتخابه، قد استدعاه إلى روما، وأجرى معه ثلاثة أحاديث، ائتمَنَه فيها على مشاريعه، سائلاً إيّاه العون والنصح. ويؤكد "باسوتو" أنّه تلقّى من "بتّارو" تقريراً شفهيّاً مفصّلاً عن هذه المحادثات مع البابا، وملاحظاتٍ مكتوبةً أكثر إيجازاً. وهو يستخدمها في روايته أيضاً دون أن يميّز بينها، كما أنّه، في حدود علمنا، لم ينشر حتى اليوم نصّ هذه الملاحظات، ولم يستودعها الأرشيف العام.

أما الشهادة الثانية، فقد حصل عليها "باسوتو" من "مسؤولٍ كنسيّ روماني"، شاء أن يبقى مجهولاً، وهو يذكر فيها ما أسرّ به إليه البابا يوحنا بولس الأول مباشرةً، وهو يتّسم بتوازنٍ أكبر، أقلّه في اللهجة، من الأشياء التي ينسبها إليه "بتّارو"، وإن كانت تتوافق بالروح. سألنا "باسوتو" إن كان بوسعه أن يطلعنا على هويّة "رجل الكنيسة هذا"، أو على النصوص الأصليّة لكتاباته ولكتابات "بتّارو"، فأجابنا أنّ ذلك يحتاج إلى مزيد من الوقت.

نبسط بعض هذه الأحاديث الخاصة المنسوبة إلى يوحنا بولس الأوّل، كما جاءت في كتاب "باسوتو"، مرجّحين تلك التي تداني اعترافات يوحنا بولس الثاني، ونحن نميّزها قدر الإمكان، بعناوين ثانويّة تناسب مختلف فصول القسم الثاني من هذا الكتاب، ونبسطها في الترتيب نفسه. وقد استخدمنا الحروف المائلة، لنبرز الفقرات ذات العلاقة المباشرة مع نصوص يوحنا بولس الثاني، التي كُتبت بعد نشر كتاب "باسوتو".

الانقسامات بين الكنائس:

« يجب أن نراجع بعمقٍ الموقف والتعليم، اللذين تبنَّيناهما طوال قرونٍ، حيال إخوتنا في الكنائس المسيحيّة. كان يجب علينا أن نبحث منذ زمانٍ طويلٍ، بمزيدٍ من تصميمٍ ومحبّة، بذهنٍ منفتحٍ وثقةٍ وتواضعٍ، عن طريق

الوحدة، دون تغييب شيءٍ من جوهر إيماننا وجذوره وإرثه. يقول لنا يسوع: "بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي، إذا كنتم تحبّون بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا". نحن لم نحبّ بعضنا بعضاً طوال قرونٍ، وتجاهلنا بعضنا بعضاً، وحاربنا بعضنا بعضاً. فجميع الكنائس المسيحيّة، بما فيها كنيستنا، ارتكبت الخطيئة ضد الحبّ، وضد وصيّة المسيح... أعرف أنّ انقسام المسيحيّين خطيئةٌ، وأنّ وحدة المسيحيّين عطيّةٌ من الله. ***لا يسعنا الحديث عن مسكونيّة حقيقيّة، طالما نحن لم نُتبْ بعد، طالما نحن لم نتبادل السلام والغفران، طالما نحن لم نهتد بعدِ. لقد ارتكبنا الخطيئة. كلّ عملٍ مسكونيّ يجب أن يكون عمل "مصالحة"، نحياه في التوبة والتواضع.*** وطالما نحن على الأرض، سنكون خطأة. إنّ الكنيسة "التي لا عيب فيها ولا غضن، وهي نقيّةٌ وبلا عيب" (أفسس 5: 27)، إنّما هي كنيسة الوعد، التي لن يحقّق المسيح اكتمالها التام إلا يوم الدينونة، وليس قبل ذلك. » (ص 135، 144، 233).

النساء:

« إنّ الأحكام المسبقة حيال النساء، لا تزال قويّةً في المجتمع كلّه. وفي الكنيسة، يتوجّب على البابا أن يقول كلماتٍ واضحةً، قويّةً، وافيةً، حول كرامة المرأة ومساواتها، واستحقاقاتها وحقوقها، وقيمتها ورسالتها. وعلى خطى يسوع، يجب على البابا أن يعيد التأكيد على المكان اللائق، الذي يعود للمرأة في جماعة الرجال، وفي جماعة الكنيسة، في انسجام مع توجيهات المجمع. » (ص 143 و 234)

اليهود:

« إنْ منحَني المسيح ربّنا الحياة، إنْ منحَني القوة والنور الحقّ والتأييد الحقّ، فلديّ مشروع هو دعوةٌ مندوبين عن أساقفة العالم

كلّه، كي نُقدِم على فعل توبةٍ واتّضاعٍ وتعويضٍ وسلامٍ ومحبّة، تقوم به الكنيسة جمعاء، ويجدر بنا أن يجدّده كلّ عام البابا وأساقفة الكنائس المحليّة يوم الجمعة العظيمة. فنحن المسيحيّين، قد أخطأنا ضد اليهود، إخوتنا في الله وفي إبراهيم: لقد تجاهلناهم، وافترَينا عليهم طوال قرونٍ. وباسم يسوع، يجب أن نحقّق السلام مع اليهود إلى الأبد. إنّ الحوار بين اليهود والمسيحيّين قد قطع شوطاً لا بأس به. ولكن هناك أيضاً ظلالٌ كثيفةٌ تراكمت عبر القرون. نحتاج إلى شفافيّة في النيّات، وإلى وضوحٍ في الأفكار، وإلى اتّضاعٍ وتصميمٍ صريحٍ على المتابعة. وقد كنّا بحاجةٍ إلى معسكرات الإبادة النازية، كي تستيقظ ضمائر البشريّة والمسيحيّين إزاء اليهود. وإنّ المحرقة هي أيضاً واقعٌ ديني. لقد قُتل اليهود من أجل دينهم. إنّ فكرة الكنيسة وموقفها قد تبدَّلا تبدُّلاً عميقاً إزاء اليهود. يجب علينا أن نُفهم المسيحيّين، ونُشجّع الكهنة والأساقفة على التكلّم بوضوح وعلناً. ونحن المسيحيّين، لدينا أيضاً الكثير نتعلّمه من تاريخ الشعب اليهودي. يجب علينا أن ننزع عن يوم الجمعة العظيمة، ما ينطوي عليه من نقمةٍ توجَّه ضد اليهود، وقد انتشرت منذ ما يقارب ألفي عام. إنّ البابا يوحنا قد بدأ، ولكن علينا الآن أن نذهب إلى أبعد من ذلك. لا ننسَيَنّ أنّ هاتين الكلمتين، "الجمعة العظيمة"، تحملان في فكر المُسنّين من اليهود، المنتشرين في العالم، ذكرى محزِنة، وأحياناً مأساويّة، بسبب المآسي التي كانت، في هذا اليوم، تحلّ بجماعاتهم. يجب أن يكون هذا اليوم، يوم سلامٍ وأخوّةٍ، يوم توبةٍ وصمتٍ، يُدعى فيه جميع الناس، إلى اكتشاف رحمة الله غير المحدودة. » (ص 134–135)

الهنود والأميركيّون والزنوج:

« دعني أأتمنك على إحدى قناعاتي، التي نضجت منذ رحلاتي الأولى إلى أفريقيا وأميركا اللاتينيّة.

نحن المسيحيّين، قد تساهلنا، خلال فترات من التاريخ، إزاء المجازر التي ارتُكبت بحقّ هنود أميركا، وإزاء العنصريّة وتجارة الرقيق الأفريقي.

يُقال إنّ خمسين مليون زنجي قد اقتيدوا قسراً من أفريقيا إلى أميركا، حيث أصبحوا عبيداً. مع ذلك، وجِد رجالٌ شجعان، ندّدوا بهذه الفضيحة والجريمة.

أعرف أحدهم، وهو الراهب الدومينيكاني "لاس كاساس" (Las CASAS)، إلاّ أنّ أحداً لم يُصغِ إلى هذا النبي واضطُهِد. إنّ الجماعات المسيحيّة في ذاك العصر، لم يستمعوا إلى الاتهامات التي كان يطلقها ضد إبادة هذا الشعب، و لم يبادروا البتّة للدفاع عن هؤلاء الناس.

مع داود، سنقول للرب: (المزمور 31: 5)

"أبحتُك خطيئتي، وما كتَمتُ إثمي.

قلت: "أعترفُ للربّ بمعاصيَّ"

وأنت رفعتَ وِزرَ خطيئتي"

إنّ الاعتراف بأخطاء الكنيسة التاريخيّة، هو علامة اتّضاعٍ وحقيقة؛ إنّه أيضاً علامة رجاء في مستقبل أفضل. فمنذ ألفي سنة، لا مقياس للمسيحيّين سوى مقياس المحبّة، سوى إنجيل يسوع، ربّنا. يقولون: لا يحقّ لنا الحكم على أحداث من ذاك العهد، بإحساس اليوم. القضية ليست قضيّة إحساس، بل هي قضيّة حقيقة. والكنيسة هي الوجدان الناقد اليوم، كما كانت الوجدان الناقد بالأمس. عليها أن تستعيد قوّتها النبوية. عليها أن تقول: نعم أو لا، وفق الإنجيل، في وضح النهار وعلى وجه الدنيا. »

محاكم التفتيش:

« إنّ الكنيسة، إذ تقرّ بذاتها خاطئة في رجالها ومؤسّساتها، تأسف في تواضع للأزمنة الصعبة والمؤلمة، التي رافقت مسيرتها التاريخيّة، مثل محاكم التفتيش المشؤومة، والعهد المشؤوم لسلطة البابوات الزمنيّة. لا يجوز لنا أن نخشى الإقرار بخطيئتنا... أتمنّى أن تتخلّى هيئة عقيدة الإيمان عمّا تبقّى من رائحة وأثر محاكم التفتيش، اللذين لا يزالان يلازمانها. إنّ محاكم التفتيش قد سبّبت جراحاتٍ قاتلةً، لم يتحقّق شفاؤها بعد. إنّ المحبّة هي أمّ العدالة والحقيقة. » (ص 135 و 239)

شهداء البلدان الشرقية:

« أريد، بوصفي راعي الكنيسة جمعاء، أن أحيّي وأكرّم ذكرى الأساقفة والكهنة والرهبان والمسيحيّين، الذين يعيشون في الديامس، ويتألّمون من أجل يسوع المسيح، في روسيا السوفييتيّة، وبلدان الشرق الأوربي، في بلاد البلطيق، وفي بلدانٍ أخرى... لقد نسينا بسرعةٍ بالغةٍ، شهود المسيح هؤلاء، الذين سجّلوا آلامهم في مصافّ الشهداء المسيحيّين. صمّمتُ هذا المشروع في روحٍ دينيّ صرف. أعرف جيّداً أنّ ذلك من شأنه أن يوقظ "أفكاراً" دفينةً، ولكن لا يسعُنا أن نصمت. إنّ الإفراط في الدبلوماسيّة يفضي أحياناً إلى دهاءٍ خالصٍ، وليس هذا بروح الكنيسة. » (ص 244–245)

إعادات اعتبار:

تحدّث يوحنا بولس الأوّل طويلاً مع "بتّارو"، بشأن أربعةٍ من رجال الكنيسة "تحمّلوا محناً مُرّة" بسبب الكنيسة، وهم: الأب "أنطونيو روسميني" (Antonio ROSMINI)**، الكردينال "أندريا فيراري"** (Andréa FERRARI) **الذي سيعلنه البابا يوحنا بولس الثاني طوباويّاً، والكاهنين "لورنزو ميلاني"** (Lorenzo MELANI) **و"بريمو مازّولاري"** (Primo MAZZOLARI)**.وقد قال له**

حول شكوك البابا بيوس العاشر بالكردينال "فيراري": "أنت تعرف أنّ القديسين أنفسَهم يمكنهم ألاّ يُصيبوا".(ص 129) وقال له حول "ميلاني ومازّولاري": "إنّ لهذين الرجلين عليّ دَيناً، وقد عرفتهما شخصيّاً. تحمّلوا محناً قاسيةً بسبب أساقفتهم والكنيسة. إنّهما كاهنان، راعيان، نبيّان... أُهمِلا".(ص 129) وأيضاً: "نحن الأساقفة والكهنة، وقد تجمّدنا في ترهّلنا، لم ندرك أنّهما كانا يتمتّعان برؤيةٍ واضحةٍ سليمةٍ، وبعيدة المدى".(ص 130) كان يخطّط لتكريم "ميلاني ومازّولاري" (وهو يقول عنهما: "إنّهما يستحقّان أن يستعيدا رسميّاً الشرف والمكان اللذين يعودان لهما في الكنيسة" ص 131)، ولإعادة الاعتبار لـ"روسميني"، بعد أن كان المجمع المقدس قد أدانه (راجِع فصل "تاريخ البابوية" ص 216)

تاريخ البابويّة:

« خلال أسفاري، أرغب أن يحدث كلّ شيءٍ في بساطةٍ ومحبّة. لم يكن لا يسوع المسيح، ولا بطرس ولا بولس ولا يوحنا، رؤساء دوَل. أعرف وأقدّر جميع الأسباب التاريخيّة، التقليديّة والأمنيّة، التي يمكنها أن تُضفي شيئاً من المهابة على الكنيسة والبابا، وتساعد الناس حيث يعيش المسيحيّون وينشطون. ولكن كيف يسعُ المرء أن يغيّر جلده فجأةً، ويحمل ثوباً غاية في الاختلاف، ولقباً وسلطةً، مغايرةً في جوهرها لرسالة الأسقف والراعي، مثل "حاكم" حاضرة الڤاتيكان؟ أعرف تمام المعرفة أنّي لستُ مَن يستطيع تغيير عاداتٍ ترسّخت منذ قرون، ولكن ليس للكنيسة أن تملك سلطةً وتمتلك ثرواتٍ... لا أريد حاشيةً ولا جنداً؛ ولا أرغب في أن يركع الحراس السويسريّون أو أيّ شخصٍ آخر عندما أعبر. » (ص 127)

ألقاب البابا:

« هذه الأيّام، دفعني الفضول للاطّلاع في الدليل البابوي على الألقاب التي تُطلَق على البابا. ولنفرض إذن أنّ اسمي واردٌ في هذا الدليل.

فأنا أقرأ: "يوحنا بولس الأول، أسقف روما، نائب المسيح، خليفة أمير الرسل، الكاهن الأعظم للكنيسة الجامعة، بطريرك الغرب، المسؤول الأعلى في كنيسة إيطاليا، رئيس أساقفة ولاية روما، رئيس دولة حاضرة الڤاتيكان، خادم خدّام الله". إنْ هذا إلا إرث سلطة زمنيّة، ينقصه فقط لقب البابا الملِك. يجب أن تكون الألقاب الحقيقيّة: انتُخِب أسقفاً على روما، وهو بالتالي خليفة الرسول بطرس، وإذن هو خادم خدّام الله. كيف يسعُ البابا، وهو يحمل جميع هذه الألقاب، أن يتصرّف كأخٍ وأبٍ في المسيح، ويحاور الكنائس الشقيقة؟ يبدو لي أنّ شخص البابا غارقٌ في التملّق. أرى هنا خطر السقوط في عبادة الشخصيّة، وهذا الأمر أرفضه رفضاً قاطعاً... لقد مضى أكثر من مائة عامٍ على سقوط سلطة البابوات الزمنيّة، ولولا ذلك، لكنت أكون الآن البابا الملِك، محاطاً بجحافل من الجنود، وربما بشرطة تدافع عن ممتلكات البابا وأراضيه وقصوره. وَلَكَم كان يكون أمراً جميلاً لو أنّ البابا تخلّى تلقائيّاً عن سلطته الزمنيّة! كان يتوجّب عليه فعل ذلك من زمان. لِنقدِّم الشكر للربّ الذي أراد ذلك، وللإنسان الذي نفّذه. » (ص 233، 236، 248)

الفصل السابع

امتياز البابا البولوني

لولا المجمع الشاتيكاني، لما استطاع البابا يوحنا بولس الثاني أن يطلب الغفران. ولولا أسفاره، لما جاءت طلباتُه للغفران بمثل هذه الكثرة والملاءمة. وإنّ فحص الضمير الذي أجراه في نهاية الألفيّة، وهو إبداعه الحقيقي الذي يفوق بقيمته جميع طلباته للغفران، ما كان ليكون لولا الفشل الذي واجهه: لا سيّما فشل الحركة المسكونيّة في الشرق، الذي حدث في أعقاب انهيار الشيوعيّة. ولكن، في أصل مبادرته، نجد بولونيا.

في الواقع، فإنّ العنصر البولوني موجودٌ أيضاً في هذا الجانب من بابويّة يوحنا بولس الثاني. سندعوه امتياز البابا البولوني: فهو عاملٌ هيّأ أول بابا سلافي في التاريخ، لمدىً من الحريّة، أعظم ممّا كان أُتيح لبابا إيطالي آخر، كي يصفّي الحسابات مع تاريخ البابويّة، لأنّ ثقل هذا التاريخ كان أخفّ وطأةً عليه. والأمر الأهم يكمن في هامشيّة بولونيا، جغرافياً وكنسيّاً، ليس لأحدٍ فضل فيها. فلم يكن ثمّة أيّ بولوني، لا في "الحملات الصليبيّة"، ولا في محاكم التفتيش، ولا بين قضاة غاليليو، ولا بين جلاّدي الهنود الأميركيّين، ولا بين روّاد تجارة الرقيق.

ولكن، من ناحيةٍ إيجابيّةٍ أيضاً، فثمّة لمسة بولونيّة في الحريّة التي برهن البابا يوحنا بولس الثاني على أنّه يُتقن التسلّح بها حيال "ثقل الأموات"، وفق عبارة "أورس ڤون بالتازار". فلم يحدث في بولونيا إصلاحٌ مُضادّ، ترافق بقمعٍ للبروتستانت أو بطردهم بقوّة السلاح. وقد روعيَت فيها حرية الضمير، قبل أن تُراعى في أيّ من البلدان الأوربية. ولم يحدث فيها قط تعارض بين الكنيسة والقضيّة الوطنيّة، وبين الكنيسة والثقافة العلمانيّة.(50)

أخيراً، لم يحدث في نطاق الثقافة البولونيّة، ما يشبه قضيّة غاليليو. من الصعب تفسير أسباب هذا الواقع، في كلماتٍ قليلةٍ، ولكن من السهل فعل ذلك، من خلال قصيدة للمطران "كارول فويتيلا" (Karol WOJTYLA)، يشيد فيها بكوبرنيك (COPERNIC)، وهو غاليليو بولونيا، الذي لم يُدَنْ قطّ، والذي ما فتئت كنيسة بولونيا تفتخر به شديدَ الافتخار:

« نحن نسير على الحوافي:
في ما سبق، كانت الأرض ملساء، بطحاء.
اعتُقِد طويلاً أنّ اسطوانتها المنبسطة
كانت تعوم على المياه، والشمس فوقها.
أتى كوبرنيك: فقدت الأرض مفاصلها الثابتة
وصارت الحركة مفصلها.
نحن نسير على الحوافي، ولكن ليس كما في الماضي.
كوبرنيك، إذ أوقف الشمس، أطلق حركة الأرض. » (51)

لقد وُصِف كوبرنيك بكلماتٍ كتابيةٍ، بالكلمات إيّاها التي وضعها الكتاب المقدّس على شفاه يوشع، والتي استُخدمت في إدانة غاليليو.

في إيطاليا، وحده رجلٌ معادٍ للكنيسة كان بوسعه أن يتكلّم على هذا النحو عن غاليليو، وفي بولونيا، كان البابا القادم عشيّة ترقّيه إلى رتبة كردينال. وفي عام 1973، ترأس الكردينال "فويتيلا"، بوصفه رئيس أساقفة كراكوفيا، اللجنة الأسقفيّة البولونيّة، من أجل الاحتفال بالذكرى الخمسمائة لولادة نيقولا كوبرنيك، الذي كان كاهناً بولونياً، أمضى حياتَه كلّها في خدمة المرضى والفقراء، والذي أهدى البابا بولس الثالث دراسته حول دوران الأجرام السماوية. (52)

في هذه الذكرى المئوية، ألقى الكردينال "فويتيلا"، في كلية اللاهوت في كراكوفيا، محاضرةً افتتاحيّةً بعنوان: "العلم بوصفه خيراً مشتركاً بين الأمّة والكنيسة والبشريّة"، أكّد فيها أنّه ينظر إلى إنجاز كوبرنيك على أنّه مفخرةٌ للكنيسة. (53)... **وبمثل هذا الشعور بالاعتزاز، بما استطاعت**

الكنيسة أن تقوم به في سبيل العلم (بعيداً عن العقدة الخاصة التي عانى منها، على هذا الصعيد، رجال الكنيسة الإيطاليّون)، سيعود يوحنا بولس الثاني، بُعيدَ انتخابه، إلى قضيّة غاليليو، بسبب عدم ارتياحه للطريقة التي عالجها بها المجمع، كي يسلّط الضوء نهائيّاً على هذا "الالتباس المؤلم". ولسوف تكون له، بعد غاليليو، مراجعاتٌ كثيرة.

بعد بولونيا، جاء دور المجمع. لقد تأثّر جداً الأسقف الشاب "فويتيلا"، بخطوة البابا بولس السادس، إبّان افتتاح الجلسة الثانية من المجمع، في أيلول عام 1963، إذ طلب الغفران من الإخوة المنشقّين. وفي الحقيقة، لكَم من مرّة ذَكَر هذا الإعلان للبابا "مونتيني". ولسوف يستند إليه، عندما سيقول في براءته "ليكونوا واحداً": "أطلب الغفران، كما فعل سلَفي بولس السادس". (55) وسيتّخذ منه قدوةً في معظم الحالات التي طلب فيها الغفران، في الميدان المسكوني. ولكن الأسقف الشاب أصغى أيضاً في المجمع، بتأثّر، إلى "الكلمات المشحونة بالحزن"، التي تلفّظ بها الكردينال "بيران" (BERAN)[1]، عندما تحدّث في مطلع الجلسة الأخيرة من المجمع، حول "القرار بشأن الحريّة الدينيّة"، يوم 1965/9/20، فذكر "الأخطاء والخطايا التي ارتُكِبت في الماضي، باسم الكنيسة، ضد حريّة الضمير". (56) هذه "الكلمات المشحونة بالحزن"، ستعود إلى ذهن البابا يوحنا بولس الثاني، عندما سيقوم بزيارة براغ، في 1990/4/21. وهو لن يستعيد ذلك، فقط بسبب "يان هوس" (Yan HUS)، الذي أُدين وأُحرق حيّاً، بل أيضاً ليُبدي أسفه لشعار "الشعوب على دين ملوكها"، وليَسِم الكنيسة بعبارة "الخطايا التي ارتُكِبت باسمها"، وليشرح أنّ الاعتراف بالأخطاء "يعزّز مكانتها الأدبية". فإنّ أبرز عناصر فحص الضمير، الذي أجراه في نهاية الألفيّة، كانت حاضرةً إذ ذاك في هذا الخطاب الناري الذي ألقاه كردينال براغ، وهي لن تغيب عن ذاكرة الأسقف "كارول فويتيلا".

[1] كان الكردينال "بيران" يومذاك رئيس أساقفة براغ، وقد اعتُقل في عهد النظام الشيوعي.

ضمن فعاليّات المجمع ذاته، تبدو مشاركة المطران "فويتيلا"، في مساعي المصالحة بين الأساقفة الألمان والأساقفة البولونيّين، على درجةٍ أكبر من الأهميّة. إنّها مرحلةٌ حاسمةٌ في تشكيل قناعاته، حول ضرورة مراجعةٍ إنجيليّةٍ دائمةٍ لتاريخ الكنيسة، وهي ترسم قمّة تطوّر هذه القناعات، قبل اعتلائه السّدّة البابويّة، كما أنّها تشكّل المهماز الأخير قبل انتخابه: فقد كان "فويتيلا" ضمن وفد الأساقفة البولونيّين، الذي قام بزيارةٍ للأساقفة الألمان في أيلول 1978، وقد اكتملت هذه الزيارة، في "ماينس" في 9/27، أي قبيل انتخابه بابا بعشرين يوماً تقريباً. في وثائق هذه المصالحة، استُخدم شعار "نغفر ونطلب الغفران"، الذي كان الكردينال "فويتيلا" قد تلقّاه من البابا بولس السادس (57)، والذي تحوّل إلى قرارٍ ملزمٍ، لكلّ ما تقدّم به من مقترحاتٍ في نهاية الألفيّة، وذلك انطلاقاً من المجمع الأوربي عام 1991، إلى النصوص المتعلّقة ببرنامج اليوبيل الكبير، فنداءاته من أجل السلام في ما كان يوغوسلافيا (في أعقاب الزيارة الملغاة لـ"ساراييفو" و"زغرب" في أيلول 1994)، فالوثائق المسكونيّة الكبرى في ربيع 1995.

إنّ الأساقفة البولونيّين هم الذين اتّخذوا، في ختام المجمع الڤاتيكاني الثاني، هذه المبادرة، استعداداً للاحتفال بالذكرى الألفيّة لعماد بولونيا (966–1966). وإنّ رسالة الأساقفة البولونيّين إلى الأساقفة الألمان، تحمل تاريخ 1965/11/18، وفيها دعوة للغفران المتبادل، في إحالة إلى مجمل تاريخ الشعبين، وخصوصاً إلى أحداث الحرب العالميّة الثانيّة، كي يُتاح لهم الاحتفال بعيد الذكرى الألفيّة "بضميرٍ مطمئنّ".

والرسالة تذكّر بالاحتلال النازي لبولونيا، بإبادة "أكثر من ستّة ملايين مواطنٍ بولوني، غالبيّتهم من أصلٍ يهودي"، وباستشهاد الكنيسة، "فقد أُرسل إلى المعتقلات النازيّة ألفا كاهن وخمسة أساقفة (أي ربع عدد الأساقفة آنذاك). ثمّ إنّ المئات من الكهنة وعشرات الألوف من المدنيّين، أُعدِموا دون محاكمة، في الأيّام الأولى من الحرب". ثمّ جاءت الدعوة إلى الحوار والغفران:

« على الرغم من هذا الماضي المثقل بإفراط، بحيث يكاد يُلغي كـلّ أمـلٍ، وبالضبط بسبب هذا الماضي، نقول لكم: لنحاول النسيان، ولنضع حدّاً للسجال، وللحرب الباردة، ولندخل في حوارٍ يطالبنا به اليوم، في جميع الميادين، المجمع والبابا بولس السادس. [...] وبهذا الروح، المسيحيّ جدّاً والإنساني جدّاً في آنٍ، نمدّ لكم أيادينا في مقاعد هذا المجمع المنتهي، ونغفر لكم، ونطلب منكم الغفران. »

فـصافح الأسـاقفة الألمـان، "بتـأثّرٍ وفـرح"، اليـد الـتي مـدّها لهـم البولونيّون، وأجابوهم في 1965/12/5، بهذه العبارات:

« بذلك نطلب لنا النسيان والغفران. فالنسيان أمرٌ بشريّ. وطلـب الغفران هو دعوةٌ لمن حلّ به الأذى، كي يُلقي على هذا الأذى عين الله الرحيمة، وبذلك يسمح بالبدء من جديد. »

عـاد الـسلام بـين الجمـاعتين الكـاثوليكيّتين، ولكـن الحكـم الـشيوعي البولـوني شـنّ حربـاً دعائيّـة ضـدّ الأسـاقفة، وهـاجم بـصورةٍ خاصـةٍ الكردينال "فيزينسكي" (WYSZINSKI) والمطران "فويتيلا". وكانت شتائمه تنصبّ بصورةٍ خاصةٍ على عبارة "نغفر ونطلب الغفران". وكان التوجيه بهذا الشأن هو: "لن ننسى ولن نغفر". وكتب عمّال معامل "سولفي" (SOLVAY) للمطران "فويتيلا"، يعبّرون له عن احتقارهم، إذ كان عاملاً في صفوفهم إبّان الحرب.

فجـاء ردّه في صحيفـةٍ بولونيّـةٍ هـي "دزينيـك بولـسكي" (Dziennik POLSKI)، بتاريخ 1966/5/13. فأجابوه بأنّ بولونيا لم ترتكب ما يوجب عليها طلب الغفران. وفي 3/7، تدخّل رئيس مجلس الوزراء، مُحتجّاً على الأساقفة البولونيّين، الذين كانوا قد غفروا للألمان جميع الجرائم التي ارتُكبت ضد بولونيا، "بما فيها جريمة الإبادة العرقيّة"، دون أن يكونوا قد تلقّوا أي طلب للغفران من قبل الألمان.

وجاء ردّ الأساقفة الرسمي في رسالة بتاريخ 1966/2/10، وقد صيغت في أصفى ما عُرف عن لغة المطران "فويتيلا":

« إن كان يتوجّب علينا، بعد مرور ألف عامٍ، مشحونة بالعديد من المحن القاسية، أن نحيا في حُسن جوارٍ، لا يسعنا ذلك إلاّ بوفاقٍ متبادلٍ. [...] هل للأمّة البولونيّة، بما هي عليه، ما يدفعها لطلب الغفران من جيرانها؟ بالتأكيد لا! نحن مقتنعون أنّنا كأمّة لم نُسِئ إلى الأمّة الألمانيّة، لا على الصعيد السياسي، ولا على الصعيد الاجتماعي، ولا على الصعيد الثقافي. ولكنّنا نؤمن أيضاً بالمبدأ المسيحي، الذي طالما أشارت إليه، في هذه الأيام، بعض المؤلّفات الأدبيّة، والقائل بأنّه "ليس هناك بريء" (ألبير كامو). ونحن نرى أنّه، إن لم يوجد، طوال قرون، إلا بولوني واحد، يمكن أن يكون ارتكب عملاً واحداً مشيناً، فإنّ ذلك يكفي كي نطلب الغفران. »

إنّ مسيرةَ المصالحة بين أساقفة البلدين، عَرفَت قمّتها إبّان الزيارة التي قام بها وفد الأساقفة البولونيّين لزملائهم الألمان، في أيلول 1978. فألقى الكردينال "فويتيلا" خطابين في مدينة "فولدا" (FULDA)، أحدهما أمام هيئة الأساقفة الألمان، وخطاباً ثالثاً في مدينة "كولن" (KÖLN). وقد قال، بصورةٍ خاصّة خلال عظته في كاتدرائيّة "فولدا"، يوم 9/22، إنّ هذا اللقاء من شأنه أن "يثبّت" الكنيستين "في الحقيقة والمحبّة"، ويساعد، في الوقت الذي بلغت فيه الألفيّة الثانية نهايتها، في "لأم جراح الماضي، أكثرها قِدماً، وأقربها زمناً".

بذلك قدّم الكردينال "فويتيلا" مساهمةً حاسمةً وعاليةً إلى وثائق عامي 1965–1966، وكذلك أيضاً إلى مبادرات عام 1978. يشهد على ذلك التذكير بهذه المصالحة، كما أورده هو نفسه في أكثر نصوص بابويّته مأسويةً: العظة من أجل السلام في البلقان، التي ألقاها في "كاستل غوندولفو" (Castel GONDOLFO)، يوم 1994/9/8، وهو اليوم الذي كان يُفترض فيه أن يقوم بزيارته للمدينة الشهيرة "سارايفو" (SARAJEVO):

« أيّة أهميّة كانت للتعبير التاريخي الذي وجّهه الأساقفة البولونيّون لزملائهم الألمان، في ختام المجمع الفاتيكاني الثاني: "لنغفر ولنطلب

الغفران!" إن كنا، في هذه المنطقة من أوربا، استطعنا أن نحقّق السلام، فإنّه يبدو واضحاً أنّ ذلك تمّ بفضل هذا الموقف الذي جاء التعبير عنه على نحو فعّال بمثل هذه الكلمات. » (58)

بعد بولونيا والمجمع، كانت الأسفار هي التي قادت يوحنا بولس الثاني إلى طلب الغفران، وقد اضطرّته للاجتماع بمتحدّثين كانوا ما زالوا يحتفظون بالضغينة، بسبب الأخطاء التي حلّت بهم في الماضي. وقد تحدّث خلال هذه الأسفار، للمرة الأولى، بلغة النقد الذاتي، عن الانقسامات بين الكنائس (1980)، عن محاكم التفتيش (1982)، عن العلاقة مع الإسلام (1982)، عن مسؤوليّات الكاثوليك في الحروب (1983)، عن ألمانيا (1983)، عن هنود أميركا (1984)، عن الزنوج (1985)، عن الحروب الدينيّة وعن الأصولية (1988)، عن الانقسام الشرقي (1991). وخلال هذه الأسفار، تكلّم، للمرّة الأولى، عن ضرورة تنقية الذاكرة التاريخيّة بشأن "لوثر" (LUTHER) (1980)، و"كالفان" (CALVIN) و"زفينكلي" (ZWINGLI) (1984)، و"هوس" (1990). وإنّها لأسفارٌ صغيرةٌ، تلك التي قادته إلى زيارة الكنيسة اللوثريّة في روما (1983)، وزيارة الكنيس اليهودي في روما (1986)، وقد قادتاه إلى الاعتراف بقمع الأقليّات الدينيّة، الذي مورِس حتى القرن الماضي في روما البابوات.

إنّ البابا يوحنا بولس الثاني، وقد هيّأته خبرته البولونيّة والمجمعيّة، وحرّضته لقاءاته مع محدّثيه خلال أسفاره، قد أنجز حتى الآن مراجعةً تاريخيّةً واسعةً، طبّقها على موضوعاتٍ مستقلّة. إلاّ أنّ الخبرة المريرة التي عرفها إثر الفشل في الميدان المسكونيّ، قد دفعته لاقتراح فحص ضمير في نهاية الألفيّة، يُمثّل إبداعه الخاص في هذا الشأن. سيفعل ذلك في الرسالة التي خصّ بها الكرادلة في ربيع عام 1994. ولكن فكرته بهذا الشأن كانت قد نضجت عام 1991، حيث عبّر عنها للمرة الأولى على الملأ:

« في ختام هذه الألفيّة الثانية، يجب علينا أن نسترسل في فحص الضمير: أين تُرانا نقف؟ أين قادنا المسيح؟ أين انحرفنا بالنسبة إلى الإنجيل؟ »

الفصل الثامن

معارضة الكرادلة

إنّه ليس سوى "وثيقة عمل"، ولكنّه يمكن أن يكون أهم النصوص في عهد البابا يوحنا بولس الثاني: نريد أن نشير به إلى الرسالة التي خصّ بها الكرادلة في ربيع عام 1994. نجهل مَن كتبها؛ نجهل تاريخ كتابتها. وقد أُرسِلت إلى الكرادلة المجتمعين في مؤتمرٍ استثنائي. ثم سُرِّبت إلى الصحف. فتناولها الجميع، وعلّقوا عليها، ولكنها لم تُنشر قطّ بصورةٍ رسميّة. وقد تبنّاها يوحنا بولس الثاني مرتين، أمام مؤتمر الكرادلة الاستثنائي، حيث قال: "كما أشرت إلى ذلك في الوثيقة المذكِّرة". و"أشرت إلى ذلك في الوثيقة المذكِّرة التي سبق لي أن ذكرتُها".

إنّه إذن نصّ من البابا. ربّما لم يكتبه هو نفسه، كما أنّه لا يكتب معظم ما يمهره بتوقيعه، ولكنّه شاءه، وألهمه وأمعن التفكير فيه. إنّ تبنّيه له يتجلّى، أكثر ممّا يتجلّى في تصريحاته أمام المؤتمر الاستثنائي، من خلال المتابعة الجليّة، القائمة بين المقترحات الموجودة في النص، والمواقف القويّة التي لازمت بابويّته كلّها. في القسم الثاني من هذا الكتاب، سنعالج هذه المتابعة من خلال الموضوعات المستقلّة. وهنا، نناقش الجِدّة التي يمثلها في هذه المتابعة، اقتراحه القائم على فحص الضمير في ختام الألفية الثانية، كما ورد في هذه الرسالة.

إنّ هذه الجِدّة تقوم في هذا: أنّنا ننتقل من "الاعترافات بالخطايا" المنعزلة، إلى الاقتراح باعترافٍ شاملٍ للخطايا، يتناول تاريخاً يمتدّ عبر ألفَي سنة. ولمزيدٍ من الوضوح، ننتقل من الاعترافات المنعزلة بمسؤوليّة تاريخيّة، إلى القيام بفحصٍ شاملٍ لتاريخ الكنيسة من وجهة نظر الإنجيل، لنسلّط الضوء على السلوكات المضادة التي تواجِهنا فيه.

حتى ذلك الحين، أُحصي على الأقل أربعون نصّاً، اعترف فيها يوحنا بولس الثاني، خلال أكثر من خمسة عشر عاماً من البابويّة، بخطايا أو بأخطاء. لقد تكلّم أو ترك مَن يتكلّم، بأسلوب النقد الذاتي، عن اليهود وغاليليو، عن هوس ولوثر، عن هنود أميركا ومحاكم التفتيش، عن الأصوليّة والإسلام، عن المافيا والعنصريّة، عن الانشقاقات والبابويّة، عن تجارة الرقيق، عن الحروب والمظالم. أمّا عن الحروب الصليبيّة، والأنظمة الاستبداديّة، والنساء، والحروب الدينيّة، و"رواندا"، فإنّ تصريحات البابا جاءت بعد هذه الوثيقة. هوذا إذن قد اتّخذ موقفاً، وطلب الغفران بشأن ستة عشر، من واحدٍ وعشرين موضوعاً أدرجناها في القسم الثاني من هذا الكتاب. وإنّ اقتراح البابا لم يفاجِئ مَن كانوا على علمٍ بهذه النصوص. وإنّ هذا الاكتمال وهذا الحصاد جاءا نتيجة جهودٍ طويلة. بالمقابل، فإنّ الذين كانوا يجهلون مدى هذه الرسالة، اعتبروا أنّ الوثيقة مزوّرة، وأنّها تتعارض مع خطوط بابويّته. (60)

بعد كلّ ذلك، قد يميل البعض إلى القول إنّ يوحنا بولس الثاني قد قال، قبل هذه الوثيقة، الكثير، وإنّه ربّما أفرط في الكلام، وإنّه في الوقت نفسه، لم يقل كلّ ما هو مطلوب، أو ما هو جوهريّ. إنّ الرسالة إلى الكرادلة تكمّل العمل الذي أُنجز، وتهيّئ لتطوراتٍ لاحقة.

تضمّ هذه الوثيقة ثلاثاً وعشرين ورقة، وتحمل العنوان التالي: "خواطر حول اليوبيل الكبير عام 2000". إنّ المبادرات الرئيسيّة المقترحة على الكرادلة، والمطلوب رأيهم فيها، هي خمس:

الدعوة إلى مجامع كنسيّة للأميركيّتين وآسيا

لقاءٌ بين جميع الكنائس المسيحيّة

لقاءٌ آخر مع اليهود والمسلمين

إعادة النظر في كتاب الشهداء

"إلقاء نظرة متيقّظة على تاريخ الألفية الثانية" للكنيسة، بقصد "الإقرار بالأخطاء التي ارتكبها رجالها، وبطريقةٍ ما، باسمها".

أمّا الفقرة السابعة من هذه الوثيقة، وهي تحمل عنوان "مصالحة وتوبة"،

فقد خُصِّصت لهذا المشروع الأخير: "لمّا كانت الألفية الثانية للمسيحيّة تقارب نهايتها، وجب على الكنيسة أن تُدرك في وعيٍ متجدّد، أنّ مؤمنيها، طوال التاريخ، تصرّفوا بانعدام أمانة، وخطئوا ضدّ المسيح وإنجيله".

والوثيقة، إذ تذكر ما كان أُنجز بشأن قضيّة غاليليو، "من أجل التعويض عن الخطأ الذي حلّ به"، تتابع بهذه العبارات:

« إنّ نظرةً يقظةً إلى تاريخ الألفيّة الثانية، قد تُتيح لنا أن نُبرز أخطاء أخرى مماثلةً، أو ربّما خطايا، في ما يتعلّق باحترام حقّ العلوم في استقلاليّتها. كيف لنا أن نصمت أمام جميع أشكال العنف، التي اقتُرِفت باسم الأديان؟ حروب دينيّة، محاكم تفتيش، وأشكال أخرى من خروق حقوق الإنسان... [...] يجب على الكنيسة، في ضوء ما قال المجمع الڤاتيكاني الثاني، أن تُعيد النظر، بمبادرة ذاتيّة، في الجوانب المظلمة من تاريخها، وتتفحّصها في ضوء المبادئ الإنجيليّة. [...] عسى أن يكون ذلك نعمة اليوبيل القادم. وإنّ ذلك لن يمسّ، بأيّ شكلٍ، هَيبة الكنيسة الأدبيّة، وهي ستخرج منه بالمقابل، أشدّ قوةً، بفضل هذه الشهادة، من حيث صدقها وشجاعتها في الإقرار بالأخطاء التي ارتكبها رجالها، وعلى نحو ما باسمها".

في افتتاح المؤتمر الاستثنائي، يعلن البابا تبنّيه للوثيقة المذكِّرة، التي أحاط بها الشكّ علناً، ويُعيد التأكيد على مشروع فحص الضمير في نهاية الألفيّة، والذي كان أُمطِر بالاعتراضات من داخل الإدارة الرومانيّة وخارجها. فردّ بذلك، بصورةٍ غير مباشرة، على الذين كانوا قد طلبوا منه أن "يتخلّى عن فكرة لقاءٍ مسكونيّ مع اليهود والمسلمين في جبل سيناء، وعن كلّ نقدٍ ذاتي للكنيسة الكاثوليكيّة، كالذي اقترحه في رسالته إلى الكرادلة. » (61)

ولقد قال البابا يوحنا بولس الثاني في افتتاح أعمال المؤتمر: "كما كنت شدّدت عليه في المذكِّرة الوثيقة، التي أُرسلت إلى كلّ واحد منكم"، وأضاف، بعد ذلك بقليل: "في الوثيقة المذكِّرة التي ذكرتُها آنفاً، شدّدت على الحاجة إلى إعداد "كتاب للشهداء المعاصرين".

ولكن ما هو أهمّ من تبنّيه الرسالة إلى الكرادلة، كان تشديده من جديد على الفكرة:

« أمام هذا اليوبيل الكبير، تحتاج الكنيسة إلى التوبة، أي إلى التمحيص في أخطاء أبنائها التاريخيّة وأشكال لامبالاتهم حيال مقتضيات الإنجيل. وحده الاعتراف الشجاع بالأخطاء وبأشكال الإهمال التي يتحمّل المسيحيّون، على نحوٍ ما، مسؤوليّتها، والتصميم السخيّ أيضاً، على التعويض عنها بمعونة الله، يستطيعان أن يُضْفيا انطلاقةً فعّالةً للتبشير الجديد بالإنجيل، ويُمهّدا على نحوٍ أفضل، للسير نحو الوحدة. »

إن كان البابا يجدّد اقتراحَه بمثل هذه القوة، فلأنّه، من خلال إجراءات الاستشارة التي حقّقها بطريق البريد، قد أثار شكوك الكرادلة واعتراضاتهم. ولكن هذه الشكوك وهذه الاعتراضات وجدت أيضاً التعبير عنها، خلال أعمال المؤتمر الاستثنائي.

يبدو أنّ غالبيّة الكرادلة (وقد صفّقوا مع ذلك للمشاريع المتعلّقة باللقاء المسيحي العام، وباللقاء المسكوني مع اليهود والمسلمين في سيناء، وللمجامع الخاصّة بالأميركيّتين وآسيا، وبكتاب الشهداء) أبدَوا الملاحظة بأنّه من المستحسن توجيه اليوبيل الكبير توجيهاً يتركّز على المسيح، أكثر من تركيزه على الشؤون الكنسيّة. وإنّ فحص الضمير حول الألفيّة، لا يمكنه أن يُهمِل الحاضر، وأنّه يجب تحاشي الاندفاع وراء أبحاثٍ لا نهايةَ لها، وأنّه يجب تحاشي النظر إلى الماضي بعيون اليوم.

وكان أن ظهر، بعد ذلك، تمايزٌ جغرافي كنسي، ذو دلالةٍ كبيرة، فعبّر كرادلة كنائس الشرق الأوروبي، عن خشيتهم من أن يقود فحص الضمير في أواخر الألفيّة، إلى إعلاء شأن دعاية الأنظمة الشيوعيّة القديمة، المعادية للكثلكة، فيما برهن كرادلة العالم الثالث، من ناحيتهم، على لامبالاة كلّية حيال خلافاتٍ تاريخيّة تخصّ أوروبا وحدها، وأبدَوا الخشية من أنّ الإقرار بأخطاء غريبةٍ عن ثقافةِ شعوبهم، قد يكون له تأثيرٌ سلبيّ، دون أيّ مكسبٍ رعوي.

وقد عبّر الكردينال مارتيني (MARTINI)[1] (الذي يبدو أنّه لم يقُل شيئاً خلال المؤتمر الاستثنائي) عن قلق كرادلة البلدان الشيوعيّة سابقاً، في مقابلة صحفيّة، بالعبارات التالية:

« كان البعض يُبدون قلقَهم من أن يُساء فهم تحريض البابا. وقد وردت اعتراضاتٌ في هذا المنحى، من كرادلة بلدانٍ شيوعيّة سابقاً، كانت قد أمطرت الكنيسة بوابلٍ من الاتّهامات. لم يكن أحدٌ راغباً في تأييد طريقة في الإدانة بمثل هذا الشمول الكلي. وكانت لذلك أسبابٌ تاريخيّةٌ لها أهميّتها. » (62)

وصرّح الكردينال البرازيلي "موريرا نيفيس" (Moreira NEVES) للصحفيّين:

« ولكن ما من أحدٍ أراد أن ينسف مشروع النقد الذاتي، ومشروع التوبة الكلّيّة، وما من أحدٍ رفض أن يبحث بعض أحداث الماضي المؤلمة، المشابهة لقضيّة غاليليو. » (63)

مع ذلك، ربّما كان من الأفضل أن نرجع إلى حصيلة الاستفتاء السابق، الذي قدّمه في افتتاح المؤتمر الاستثنائي، الكردينال أمين سر الدولة، لأنّ هذا النص في حوزتنا (ولكنه وصلَنا بطريقةٍ غير مباشرة، لأنّ نصّ الخطاب الافتتاحي وحدَه، نُشر، دون جميع وثائق المؤتمر)، في حين أنّنا لا نملك من المناقشات إلاّ أصداء غير مباشرة. يبدو لنا أنّ الكردينال "سودانو" (SODANO)[2] كان قد قال ما أعيد قوله فيما بعد، في "الدوائر الصغيرة"، أوّلاً في أمر التأكيد على دور المسيح، بدل تركيزه على

---

[1] كارلو ماريا مارتيني (Carlo Maria MARTINI)، هو من الرهبانية اليسوعية، وعميد سابق للجامعة الغريغورية في روما، ورئيس أساقفة ميلانو. اكتسب احتراماً كبيراً، بسبب ثقافته وانفتاحه العظيم. أشار مؤلف الكتاب إلى صمته خلال المؤتمر الاستثنائي. ولكنه عبّر بصورة مطوّلة، منذ فترة قريبة، عن هذا الموضوع (في مجلة "يسوع" عدد ت1 عام 1997) وكتب في ما كتب: "إن اليوبيل الذي نستعد للاحتفال به، يجب أن يكون من أهدافه الجوهرية، تحقيق استعادة الأخوّة بين الكنيسة واليهودية، من منظور ديني، ينطوي أيضاً على التوبة من قبل الكنيسة الكاثوليكية". (الناشر)

[2] الكردينال سودانو تسلم أمانة سر الدولة في 1990/12/1، وهو مركز بمثابة الوزير الأول.

دور الكنيسة، وقد قال:

« إنّ التوجّه المركّز على الكنيسة، عن طريق الذاكرة التاريخيّة، وقد أُخضعت لدراسة وافية، وجد ترحيباً جيّداً على العموم. ولكن بدا للبعض، في الوقت نفسه، أنّ كلّ ذلك من شأنه أن يلقي بظلاله على دور المسيح... إذا ما شدّدنا بإفراطٍ على المسألة الكنسيّة، قديماً وحالياً. »

ثم جاء على نقد فحص الضمير، فقال:

« لا شكّ أنّ اليوبيل يوفّر للكنيسة فرصةً للتفكير في الطريقة التي استجابت فيها لطلب المسيح منها، بإنجاز دعوته لها في العالم [...]. إلاّ أنّه، فيما يتعلّق بإعادة فحصٍ، كلّية وشاملة، لتاريخ الكنيسة الماضي، فإنّ بعض الكرادلة المرموقين دعَوا لفطنةٍ كبيرة، لأنّ المسألة المطروحة في غاية الصعوبة والحساسيّة، خصوصاً إذا ما عولِجت بطريقةٍ مقتضبة. ولذلك، تشير بعض التوجيهات إلى أنّه من الأفضل أن يُصار إلى فحصٍ ضميرٍ كنسيّ قادم، يأخذ بعين الاعتبار ليس أزمنةً قديمةً، لا بدّ من دراستها في سياقها الزمني الحيّ، بل الحقبة الحالية التي تضمّ، إلى جانب العديد من الإضاءات، مساحات واسعةً من الظلّ. والحقبة الراهنة تتوقّف علينا، ولذا كان فحص الضمير مُحقّاً وممكناً. »

ومع ذلك، ففي قائمة التساؤلات النهائيّة، أخضع تقرير أمين سرّ الدولة، من جديد، المسألة لحكم الكرادلة:

« إنّ المراجعة العامّة، على ضوء الإنجيل وتعاليم المجمع الڤاتيكاني الثاني، لجوانب مظلمةٍ من تاريخ الكنيسة، قد تكون لها أهميّةٌ وتأثيرٌ خصوصيّان: فقد يمكن استثمارها من قبل البعض، ولكنّها من شأنها أن تشهد، على نحوٍ مميّزٍ من المصداقيّة والفعاليّة، على صدق انتمائنا للمسيح. »

إلاّ أنّ الكردينال كاسيدي (CASSIDY)[1] **كان قد قدّم دعمه للبابا. ففي**

[1] هو الرئيس الحالي للمجلس البابوي من أجل وحدة المسيحيين. كان سابقاً سفيراً بابوياً في أفريقيا الجنوبية وسويسرا.

تقريرٍ افتتاحيّ قُرئ بعد تقرير الكردينال سودانو مباشرةً (64)، كان قد شدّد على الأهميّة المستقبليّة "لتنقية التراكمات، التي يمكن أن نساندها بعرضٍ تاريخيّ موضوعيّ، حتى لو لم تخدم هذه الموضوعيّة مصلحة جماعتنا الكنسية". وقد دعا إلى الإقرار بأنّنا "لم نكن دائماً على مستوى ما كان يُنتظر منّا في علاقاتنا مع مَن لا يشاركونا، في معظم الحالات ودون خطأٍ منهم، في كامل ثرواتنا".

يبدو أنّ انتقاداً مدروساً للوثيقة المذكِّرة، لا سيما في ما يتعلّق بمسألة التوجيه الكنسي فيه، قد اقترح استبداله بالتوجيه المسيحي، قد طُرح من قبل الكردينال راتزنجر (RATZINGER)[1] إبّان الاستشارة الاستباقيّة. وقد يكون جدّد طرحه أمام المؤتمر الاستثنائي، بوصفه تحذيراً لطريقة العمل، أكثر منه موقف رفضٍ لهذه المبادرة. ويبدو أنّ الكردينال رويني (RUINI)[2] قد تبنّى موقفاً مماثلاً، في حين أن الكردينال بيفي (BIFFI) أبدى معارضته الكاملة.

والكردينال بيفي هو الوحيد الذي عُرفت بالتفصيل اعتراضاته على مشروع البابا. لقد تدخّل خلال المؤتمر الاستثنائي، ولكنّا لا نعرف ما الذي قاله. إلا أنّه تكلّم بعد ذلك علناً، وكتب حول هذا الأمر. فالكردينال بيفي معارضاً، والكردينال أتشيغاراي مؤيّداً، هما الكردينالان الوحيدان – في حدود علمنا – اللذان أبْدَيا رأياً صريحاً حول المسألة، التي تبدو غارقةً في شيءٍ من التحفّظ الكردينالي. فيجب علينا أن نكرّم هذين المسؤولَين، إلاّ أنّ هذا التكريم مبررَّ في حال الكردينال بيفي، الذي له موقفٌ ناقدٌ، والمعروف أنّ ما من شيءٍ أصعب على كردينال من انتقاد بابا.

نظراً لندرتها، نبسط هذه الصفحات الأربع بنصّها الكامل، وهي مشتقّةٌ من دراسةٍ رعويّةٍ أوسع، خصّ كردينال بولونيا بها هذه المسألة، تحت عنوان: "النقد الذاتي الكنسي". (66)

---

[1] جوزيف راتزنجر هو لاهوتي ألماني شهير، رئيس المجلس البابوي من أجل العقيدة.

[2] هو المسؤول الكنسي الأعلى عن إدارة شؤون أبرشية روما، وهو بذلك يحمل لقب نائب البابا لشؤون كنيسة روما

« توبة ونقد ذاتي:

إنّ يوحنا بولس الثاني يدعونا بإلحاحٍ شديدٍ للاستعداد لليوبيل الكبير عام 2000، في روحٍ عميقٍ وصادقٍ، من التوبة والنقد الذاتي.

إنّه موضوعٌ ذو أهميّةٍ بالغةٍ، وهو، في الوقت نفسه، ذو دقّةٍ خاصّة، يمكنه أن يصبح مصدر ملابساتٍ، بله قلقٍ روحيّ، لا سيما لدى أبسط المؤمنين وأصغرهم، الذين خُصّوا قبل غيرهم بأسرار ملكوت السماء (متّى 11: 25)، والذين أُوليهم بالدرجة الأولى عنايتي الرعوية.

التوبة عن الخطايا الشخصية:

إنّ الأخطاء التي يجب، دون أدنى شكّ، أن نطلب بسببها الغفران من الله ومن إخوتنا، هي تلك التي يرتكبها كلّ واحدٍ منّا، عندما يخالف وصايا وأوامر المحبّة، البالغة اللّطف، وعندما لا نحترم إنذارات ضميرٍ أحسنَ تهذيبه.

إنّ الدعوة إلى الاهتداء الشخصي يجلجل منذ بدأ المسيح تبشيره، ولا يني يظلّ صالحاً وراهناً للجميع.

الكنيسة لا خطيئة فيها:

هل الكنيسة، بوصفها كنيسة، ارتكبت خطايا؟

كلاّ، لأنّ الكنيسة، إذا ما نُظر إليها في حقيقة كيانها، لم ترتكب الخطايا، ذلك بأنّها "المسيح الكليّ": فرأسها هو ابن الله، الذي لا يمكننا أن ننسب إليه أيّ شيءٍ معيبٍ أخلاقيّاً. ولكنّ الكنيسة، يمكنها ويجب عليها أن تتبنّى مشاعر الأسف والألم، للتجاوزات الشخصيّة التي ارتكبها أعضاؤها.

إنّ يوحنا بولس الثاني يعبّر عن ذلك بهذه الكلمات:

"إنّ الكنيسة، على كونها مقدّسة بحكم انصهارها في المسيح، لا تكفّ عن فعل التوبة: فهي تعترف دائماً، أمام الله وأمام الناس، بأبنائها بوصفهم خطأة". ("في حلول الألفية الثالثة" ص 33). إنّهم أبناؤها،

ولكن هذه الخطايا ليست خطاياها، حتى لو استدعت خطايا أبنائها، أن تذرف، هي الأم النقيّة، دموعها عليها.

وبمثل هذا الوضوح، جاء في براءته "ليكونوا واحداً" قوله:

"إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تقرّ وتعترف بسقطات أبنائها، وهي تدرك أنّ خطاياهم تشكّل بالقدر نفسه خيانات وعقبات دون تحقيق هدف المخلّص. وهي، إذ تشعر دائماً بالدعوة إلى التجدّد الإنجيليّ، لا تكفّ إذن عن القيام بالتوبة. وهي، إلى ذلك، في الوقت نفسه، تعترف بقدرة الربّ، وتسترسل في تعظيمها، لأنّه، وقد غمرها بهبة القداسة، يجتذبها ويؤالفها مع آلامه وقيامته" (رقم 3).

"تلك هي العقيدة التي تعلّمتُها من القديس أمبروسيوس. فهو يرى أنّ الجراح الناجمة عن التصرفات السيّئة، لا تطال بالمرة عروس المسيح، بل الذين قاموا بها: "فالكنيسة لا تُجرح في ذاتها، بل فينا". ("في البتولية" رقم 48). فنحن متّحدون، ونحن مُلكُ "المسيح الكلي"، بقدر ما نكون قدّيسين، وليس عندما لا نكون قدّيسين: فإنّ أعمالنا السيّئة هي، بوصفها أعمالاً سيّئة، خارج نطاق الكنيسة. ولذلك، فالكنيسة هي دائماً مقدّسة، مع أنّها مؤلّفة من خطأة. ممّا لا شكّ فيه، أنّها تبدو للعالم خاطئة، ولكن هذا هو أيضاً، قدر عروسها.

الأخطاء الكنسيّة الماضية:

هل من الواجب والمناسب أن نطلب الغفران من أجل الأخطاء الكنسيّة في القرون الماضية؟

هذا واجب، إن ثُبتت هذه الأخطاء، إثر دراسات تاريخيّة موضوعيّة، وخصوصاً دون إصدار تقديرات مسبقة (وهذا لا يتحقّق دائماً).

من شأن هذا الأمر أن يجمّل صورتنا قليلاً، وأن يحسِّن علاقاتنا مع ممثّلي الثقافة المسمّاة "علمانيّة"، الذين سيُسَرّون برحابة صدورنا، حتى لو

لم يدفعهم ذلك إلى تجاوز شيء من إلحادهم. ولكن لا يجوز لنا أن ننسى التأكيد على أنّ الكنيسة، حتى عندما تُرتكب خطايا أو أخطاء من قِبل أعلى المسؤولين فيها، كانت دائماً قادرةً على متابعة إنتاج ثمار قداسة رائعة، فبرهنت بذلك على أنّها دائماً، وعلى الرغم من كلّ شيء، عروس المسيح المقدّسة والطاهرة. إنّ مثل هذا التوضيح يبدو مُحقّاً بصورة خاصّة بالنسبة إلى جمهور المؤمنين الذين، بسبب عجزهم عن إجراء مثل هذه التمييزات اللاهوتيّة الكبيرة، يجدون انتماءهم الصافي إلى سرّ الكنيسة، مهزوزاً بسبب هذه الاتهامات الذاتيّة.

فعل إيمان غريب:

بالمقابل، فقد يبدو مفيداً أن نلاحظ أنّ الارتياح الذي يبديه غير المؤمنين، في اتّهام الكنيسة بسبب الأخطاء المرتكبة عبر تاريخها، هو، في ذاته، فعلُ إيمان ضمنيّ في عروس المسيح، إذ إنّها حاضرةٌ وناشطةٌ في جميع العصور، تحت حقيقتها غير الملوّثة. وإنّها لَديمومةٌ فريدة، لا يُعترف بمثلها لأيّ منظمة اجتماعيّة أخرى.

لنُعط بعض الأمثلة:

غاليليو وُوجهَ باستياء عام، بسبب نظريّته الكوبرنيكيّة، من قِبل الأوساط الجامعيّة في زمانه. ومع ذلك، فما من مسؤول أو عميد في زماننا، لم يُدعَ لتحمّل مسؤوليّة السلطات الأكاديميّة في ذاك العهد. ومَن عساه يفكّر في توجيه اللّوم لمحافظ مدينة ميلانو أو لرئيس مقاطعة اللومبارديا، بسبب الكوارث التي سبّبتها سياسة "لودوفيك الموري" (Ludovic LE MORE)؟ وهكذا دواليك.

المساوئ المجهولة الفاعل:

وإلى ذلك، فالجميع يُجمع على أنّ المسؤولين عن الجرائم الحقيقيّة التاريخيّة الكبرى ضد البشريّة – وهي كلّها مُغلّفةٌ اليوم بصمتٍ ثقافي رحيم – لم يعودوا بيننا.

مثال على ذلك:

مِمّن ستطالب البشريّة بتقديم الحساب عن الأعداد غير المعروفة من الفرنسيّين الذين قُطعت رؤوسهم عام 1793، والذين قُتلوا لسببٍ واحدٍ هو انتماؤهم الاجتماعي؟ مِمّن ستطالب البشرية بتقديم الحساب عن عشرات الملايين من الفلاحين الروس الذين قتلهم البلاشفة؟ ألا يجدر بنا، بشأن خطايا التاريخ، أن ننتظر كلّنا يوم الدين؟ »

إنّ ردّ فعل الكردينال "بيفي" لم يواجه اقتراح البابا بكامله: فقراءته له توقّفت دون غايات هذه المبادرة، على صعيد التوبة والمسكونيّة والرسالة، أي دون الأسباب الجوهريّة التي قدّمها البابا. فهو قد توقّف على صعيد التوبة عند العامل الفردي، في حين أنّ ما يميّز فكرة البابا هو بالتحديد البُعد الجماعي لفحص الضمير. وهو لم يُشِر البتّة إلى الجانب المسكوني، وعارض صريحاً موضوع الرسالة، وقد لاحظ أنّ طلبات الغفران لن تحمل أحداً على الإيمان.

إنّ الكردينال يهتمّ حصراً بمزالق المبادرة: تأثيرها السلبي على الناس البُسطاء، الملابسات المحتملة بشأن خطيئة الكنيسة، ضرورة إثبات الأخطاء بدراساتٍ موضوعيّة، صعوبة تحاشي التقديرات المغلوطة تاريخيّاً، ضرورة ربط الإقرارٍ بالخطايا، بالملاحظة القائلة بأنّ هذه الخطايا لم تمنع الكنيسة من إنتاج ثمار قداسة.

إنّ الكردينال "بيفي" يكتفي شكليّاً بتقديم تحذيراتٍ فطنة حول طريقة إجراء وإنهاء فحص الضمير الذي يقترحه البابا، وهو لا يقول ما إذا كان يجب القيام به أم لا. ولكن معنى ندائه هو أنّه قد يكون من المستحسن عدم إجرائه، لأنّه من الممكن أن يصبح "مصدر ملابسات، بله قلق روحي". ومن الثابت أنّه ما كان هو ليطرحه. سنرى في الفصل التالي، كيف ردّ البابا على الكردينال "بيفي" والآخرين، أو بالأحرى كيف استنهض الردود.

الفصل التاسع

يوحنا بولس الثاني يواصل السعي بمفرده

لم يُقنِع البابا الكرادلة، ولكنّه واصل سعيه بمفرده.

وهو يردّ على اعتراضاتهم بكلماته وتصرّفاته، أو يترك لآخرين أن يردّوا عنه.

جاء أوّل ردّ جامع في رسالته الرسوليّة "في حلول الألفيّة الثالثة" (1994/11/14). وسيعطيهم رداً لاهوتياً، فيه مزيدٌ من التفصيل، عن طريق اللاهوتي الموثوق لديه، الأب "جورج كوتييه" (Georges COTTIER)، في نهاية عام 1995: يومذاك، لم يعدالراهب الدومينيكي السويسري "لاهوتي البيت البابوي" وحسب، بل أصبح رئيس لجنة اللاّهوت والتاريخ، وهي أعظم اللجان في هيئة اليوبيل الكبير، وقد كُلّفت بالقيام بفحص الضمير في نهاية الألفيّة. هذا النص نُشر - دون ضجّة - في مؤلَّف جماعي (68)، فاتّخذ قيمة البيان والبرنامج. إلا أنّه يأتي بأجوبةٍ مدروسةٍ على اعتراضات الكرادلة. وكانت الأجوبة ثلاثة:

إطلاق ورشة اليوبيل الكبير، في استمراريّةٍ صريحةٍ مع الوثيقة المذكِّرة، ومع البراءة "في حلول الألفيّة الثالثة".

توسيعٌ متماسكٌ للاعتراف بالخطيئة على الصعيد المسكوني.

تطبيق المراجعة التاريخيّة على موضوع المرأة، الذي لم يكن بعدُ قد أُثير.(70)

يمكننا أن نعتبر أنّ هذه القرارات وهذه التوسّعات تردّ على الكرادلة، بقدر ما هي تؤيّد الدعوة إلى التزام الفطنة في اختيار الكلمات وفي أسلوب العمل، ولكنها ترفض الاعتراض على عدم ملاءمة المشروع، الذي وفِّق بشرح متماسك.

في حلول الألفيّة الثالثة:

كي نقيس قوة الردّ على الاعتراضات، كما جاءت في الرسالة البابويّة، يجب علينا أن نذكّر بالمسار الذي اتّبعه اقتراح البابا، والذي كنّا قد بيّناه بالتفصيل، في الفصل السابق:

بعد أن نُشرت بحذَرٍ الوثيقة المذكِّرة، واجهتها انتقاداتٌ فطِنةٌ، واعتراضاتٌ عنيفةٌ علنيّةٌ، لحظة تسرّبت إلى الإعلام.

يُخضِع البابا الوثيقة المذكِّرة، من جديد، للمؤتمر الاستثنائي، حيث يجمع الانتقادات القديمة، وأخرى جديدة.

مع ذلك، لم يقرّر البابا المضي وحده، ويصوغ قراره في الرسالة الرسولية، استعداداً لليوبيل الكبير. وإليكم كيف بُسطت فكرة فحص الضمير في نهاية الألفيّة، والدفاع عنها في هذه الوثيقة الشخصيّة جداً:

« من الواجب إذن، والألفيّة الثانية للمسيحيّة قد شارفت على نهايتها، أن تواجه الكنيسة، بمزيدٍ من ضميرٍ حيّ، خطيئة أبنائها، متذكّرة جميع الظروف التي ابتعدوا فيها، خلال تاريخها، عن روح المسيح وإنجيله، فقدّموا للعالم، لا شهادة حياة مستوحاةً من قيَم الإيمان، بل مشهد طرق في التفكير والعمل، كانت أشكالاً حقيقيّة من شهادات مضادّة ومن فضائح.

لا بدّ **للباب المقدس** في يوبيل سنة الألفين، أن يكون برمزيّته أوسع من الأبواب السابقة، لأنّ البشريّة، وقد بلغت هذا الحدّ، ستترك وراءها لا قرناً وحسب، بل ألفيّة. ويجدر بالكنيسة أن تعبر هذه العتبة، وهي تعي بوضوح ما عاشته خلال القرون العشرة الماضية. إنّه لا يسعها أن تتجاوز عتبة الألفيّة الجديدة، دون أن تحثّ أبناءها على تنقية ذواتهم، في توبة، من أخطائهم وخياناتهم وتذبذباتهم وتهاوناتهم. إنّ الاعتراف بانهيارات الأمس، إنّما هو فعل صدقٍ وشجاعة، يساعدنا على تقوية إيماننا، يجعلنا نكتشف التجارب والمصاعب القائمة اليوم، ويهيّئنا لمواجهتها » (في حلول الألفية الثالثة، 33).

هنا، لم يعُد الدفاع عن الفكرة، كما ورد في الوثيقة المذكِّرة. ففي حين

كان يشير في الوثيقة المذكِّرة، بالدرجة الأولى، إلى الغاية الخارجيّة من فحص الضمير، بات في تلك يشير إلى غايةٍ ذاتيّة، تستهدف اهتداء الكنيسة أكثر من إقناع معارضيها. إنّنا نشعر أنّ انتقادات الكردينال "بيفي" وأصدقائه، حول جدوى فعاليّة ما يمكن أن يعود به فحص الضمير هذا على الكنيسة، من إعادة بعض الاعتبار لها، قد آتت أُكلها.

الأب جورج كوتييه:

إنّ المحاولة التي كتبها لاهوتي البيت البابوي، بعنوان "الكنيسة في مواجهة الاهتداء"، تكتسب أهميّةً كبيرةً: إنّه النص الذي يبسط، في الوقت الذي أكتب فيه (أيلول 1996)، أعمق ما قُدّم من شرحٍ ودفاعٍ عن فحص الضمير في نهاية الألفيّة. ويتساءل المرء، إذ يقرأه، ما إذا كان اللاهوتي الدومينيكي تلقى من البابا مهمّة الردّ على الاعتراضات التي أثارها فحص الضمير هذا. فبعض الفقرات توحي بذلك:

« إنّ الكنيسة ستقرّ بأخطاء أبنائها، ولكن أيضاً بنقائصها في الاقتداء بالمسيح، وهذا ليس بالأمر نفسه، لأنّه يتوجّب عليها أن تتساءل دون توقّف بشأن "خطايا أبنائها"، وبشأن "تاريخها الخاص" سواء بسواء (ص 161-162): هذا الجواب يتوجّه للذين يحتجّون بأنّ الكنيسة لا خطيئة فيها.

"إنّ الذاكرة الحيّة للكنيسة لا يمكن فصلها عن وعيها لهويّتها عبر القرون" (ص 162) و"إنّ إعادة قراءة التاريخ في روح توبة، تجد معناه الكامل في وحدة الكنيسة في الزمن" (ص 169): هذا الردّ يتوجّه للذين يقارنون الكنيسة بسائر المؤسّسات، كي يُوحوا بأفضليّة التخلّي عن كلّ حكمٍ على الماضي. والدعوة إلى قيام علاقة بين "النظرة اللاهوتيّة" و"العلم التاريخي"، دون أن يمسّ أحدهما الآخر (ص 163)، جاءت ردّاً على الذين يخشون تقديراتٍ مغلوطةً تاريخيّاً:

"إنّ الضغط الذي تمارسه الذهنيّة السائدة على الأشخاص، ليست

بضرورة، وإن كانت النيّة الطيّبة عذراً، فإنّ ذلك لا يعني بالقدر نفسه أنّ سلوكاً نشجبه اليوم، كان يمكنه أن يكون بصورة موضوعيّة سليماً في ذاك العهد" (ص167): وهو بذلك يردّ على الذين يقولون مثلاً إنّ الحملات الصليبيّة كانت سليمةً، لأنّ الرجال الذين اشتركوا فيها كانوا ذوي نيّة طيّبة.

"إنّ وجود ظروف ملطّفة لا تعفي الكنيسة من أداء فعل التوبة" (ص169): وهو يردّ بذلك على الذين يتمنّون أن يفسّروا كلّ شيءٍ بالظروف التاريخيّة.

نحو اليوبيل الكبير:

في مطلع عام 1996، افتُتحت ورشة اليوبيل الكبير، في أهمّ قطاعاته. فإنّ النظرة الإجماليّة تكشف عن مشروعٍ ضخم، بله عن مشروع لا يخلو من مبالغة، من شأنه، على كلّ حال، أن يجيّش قسماً كبيراً من البُنى والطاقات الكنسيّة حتى عام 2000.

وفي 15 و 16 شباط، عُقد، في الفاتيكان، "أوّل لقاءٍ دوليّ للجنة المركزيّة لليوبيل الكبير للعام 2000، مع ممثّلي الكنائس المحليّة". كان حاضراً مائة وسبعة ممثّلين عن الأسقفيّات الوطنيّة والكنائس الشرقيّة. شاركت فيه أيضاً بعثات أخويّة (من بطريركيّة القسطنطينيّة، والكنيسة الأنكليكانية، والاتحاد اللوثري العالمي، والاتحاد الإصلاحي العالمي، والمجلس الميتودي العالمي، ومجلس الكنائس الأوروبيّة "غير الكاثوليكية"). ثمّة عددان من مجلة "الألفيّة الثالثة" - صدرا في شباط وحزيران من عام 1996 - يقدّمان معلوماتٍ وافيةً عن هذا اللقاء، عمّا اقتُرح على المشتركين فيه، وعمّا خرجوا به من نقاشاتهم. (71)

يخرج المرء بالانطباع من أنّ ورشة اليوبيل تتقدّم بصورةٍ متماسكة، بالنسبة إلى الانطلاقة الأولى التي رسمها البابا. ربّما كانت الآلة المندفعة على شيءٍ من المبالغة، إلاّ أنّ مضمون البرامج الكامنة يترجم، كما يبدو، جميع الأبعاد الأساسيّة (من مسكونيّةٍ ودينيّةٍ وتاريخيّةٍ

واجتماعيّةٍ) لفكرة اليوبيل الكبرى لدى البابا. يبدو، في الوقت نفسه، أنّ ما من شيءٍ، مما كان باعثاً لجديد في هذه الفكرة، تُرك جانباً، وأنّها تلقّت تطوّراً منسجماً عبر مختلف المراحل التي اجتازتها حتى اليوم:

من الرسالة المرسلة إلى الكرادلة، في مطلع عام 1994، إلى المناقشات داخل المؤتمر الاستثنائي، يومي 13-6/14، من العام نفسه.

ومن البراءة الرسوليّة "في حلول الألفيّة الثالثة" (1994/11/14) إلى تشكيل المجلس المركزي (1995/3/16)

ومن نشرٍ للأعمال الجماعيّة الأولى لمجلس رئاسة اللجنة، إبّان اللقاء الاستشاري مع الأساقفة (15-1996/2/16)

قبل أن ننتقل إلى فحصٍ محدّدٍ بتشكيل وأعمال لجنة اللاهوت والتاريخ، سنتناول بالبحث عناصر المراجعة والنقد الذاتي، الواردة في أعمال اللجان الأخرى، لأنّ الوثائق المتوفرة تشير بوضوح إلى أنّ فحص الضمير في أواخر الألفيّة، ليس برنامجاً من مجموع برامج، ولكنه، في ذهن البابا، كما فهمه الكردينال أتشيكاراي وزملاؤه، المفتاح لدراسة سائر موضوعات البرنامج العام. فهناك أربع لجان من ثمانية، تختصّ بفحص ضمير نهاية الألفيّة: فهذا الفحص كُلّفت به لجنة اللاهوت والتاريخ، ولكنه سيجنّد، بصورةٍ ما، أيضاً اللجنة المسكونيّة ولجنة الحوار بين الديانات واللجنة الاجتماعية.

بذلك يمكننا أن نلاحظ أنّ الرجال المسكين بمفاتيح المشروع هم، كما يبدو لنا، أربعة: خارج رئيس المجلس، الكردينال أتشيكاراي، وأمين سرّه المطران سيباستياني، الكرادلة أرينزيه (ARINZE)[1] وكاسيدي (CASSIDY) (وهما عضوان في لجنة الرئاسة) والمطران فورتينو (FORTINO) (نائب رئيس اللجنة المسكونية) والأب جورج كوتييه (رئيس لجنة اللاهوت والتاريخ).

---

[1] فرنسيس أرينزيه، نيجيري الأصل، وهو رئيس اللجنة البابوية من أجل الحوار بين الأديان، وهي هيئة تابعة للكرسي الرسولي، مكلفة بالعلاقات مع جميع المؤمنين غير المسيحيين. وقد أحدثها البابا بولس السادس عام 1964. (الناشر)

ولنبدأ باللجنة المسكونية (72). "تَقَرّر أن يضاف "إلى الأعضاء العشرة الكاثوليك"، ستة ممثّلين عن سائر الكنائس والجماعات الكنسيّة، بصفة "أعضاء معاونين": إنّ في ذلك ما يساعد على إجراء فحصٍ أدقّ للإمكانيّات المسكونيّة المحدّدة، وعلى تسهيل التعاون". هذه اللجنة ذُكرت لأوّل مرة في جداول اللجنة المركزيّة، وهي مدعوّة لتلعب "دوراً حاسماً، نظراً للبُعد المسكوني الذي شاء البابا أن يُكسب ختام الألفيّة الثانية". كانت غايتها "إيجاد طرق لمشاركة مسكونية قبل الاستعداد، وإذن قبل الاحتفال نفسه بالعام 2000"، وكان يحدوهم الرجاء، في هذا العام، "أن نستطيع تنظيم لقاءٍ مسيحيّ عام، كي يعلن المسيحيّون على الملأ، وبصورة رسميّة، عن إيمانهم المشترك". فلا بدّ إذن (وذلك هو جانب المراجعة التاريخيّة التي تعنينا) من التفكّر في "بعض الممارسات المتّبعة إبّان يوبيلات الماضي، والتي سبّبت توتّرات حادّة مع المسيحيّين الآخرين"، آخذين بعين الاعتبار أنّ الاحتفال باليوبيلات ممارسةٌ كاثوليكيّةٌ لم يعرفها الأرثوذكس، وقد قاومها الإصلاح وورَثتُه في الماضي.

إنّ اللجنة من أجل الحوار بين الديانات (73)، تريد أن تقدّم سنة اليوبيل "ليس بوصفها حدثاً مسيحيّاً حصراً، أو خالياً من أيّ دلالة بالنسبة إلى مؤمني الديانات الأخرى، وأبعد من أن يكون معارضاً لها". وهي، مثل اللجنة المسكونيّة، يتوجّب عليها أن تُعدّ "لقاء صلاة مع اليهود والمسلمين وزعماء الديانات الأخرى"، الذين ستقدِّم لهم اليوبيل - وذلك هو موضوعنا - "بوصفه فرصة لفحص ضميرٍ متبادلٍ، ووقفة توبةٍ وغفران".

أمّا اللجنة الاجتماعيّة نفسها (74)، فقد يمكنها توفير الفرصة لمبادرات وكلمات تخصّ المراجعة التاريخيّة. وستشجِّع المبادرات "كي تجعل من العام 1999، عاماً حقيقيّاً من المحبّة" (من الاهتداء الشخصي إلى الديون الدوليّة)، وكي تكون "سنة 2000، سنة سلام": "سنقوم بأعمال بعيدة المرمى، بقصد وضع حدّ للنزاعات بين الشعوب، من أجل هدنةٍ، دون الامتناع عن اللجوء إلى مبادراتٍ رمزيّةٍ، مثل سهرات الصلاة والصوم".

لجنة التاريخ واللاهوت:

يرأسها الأب الدومينيكي جورج كوتييه، وهو لاهوتي البيت البابوي، وكان نائبه الأب "رينو فيزيكيلا" (Rino FISICHELLA)، الذي يدرّس اللاهوت العقائدي في الجامعة البابويّة الغريغوريّة (75). وتقسم اللجنة إلى قسمين: قسم التاريخ، والمسؤول عنه الأب كوتييه، وقسم اللاهوت، والمسؤول عنه الأب فيزيكيلا.

إنّ القسم التاريخي "سيحاول أن يسلّط الضوء على الصفحات المظلمة من تاريخ الكنيسة، لكي يطلب الغفران، وفقاً لروح التوبة". وهو يتوجه - "أقلّه حتى الآن" - نحو استبعاد الحالات المنعزلة، الخاصة بمؤلّفين أو شخصيّات شهيرة (76)، ليختار بالأحرى الانصراف إلى "المراجعة التاريخيّة لموضوعين رئيسيّين، لهما أهميّة كنسيّة وتاريخيّة وثقافيّة، وهما اللاساميّة واللاتسامح، في إشارة إلى محاكم التفتيش". ومن أجل تحقيق مراجعة ناجحة، سيُصار على الأرجح إلى تنظيم "مؤتمرَين دوليين رفيعَي المستوى العلمي، ينظَّمان في روما، قبل الاحتفال باليوبيل الكبير".

قدّم المطران سيبستياني (SEBASTIANI) هذا المشروع بالعبارات التالية، إبّان لقاء عام 1996، الذي أشرنا إليه:

« إنّ اللجنة مقتنعة بأنّ من شأن هذا الاختيار أن يسهّل تفهّم الأحداث التي حدثت بالفعل، وسيساعد على رسم الحقيقة التاريخيّة دون تشريطاتٍ ذاتيّةٍ ولا خصومات، ويمكنه أن يشكّل قاعدةً لإبداع ثقافةٍ جديدة، خاليةٍ من أيّ حكمٍ مسبق. وهي، في الوقت نفسه، ستتمكن من الاستجابة لرغبة البابا في القيام بمبادرات غفران محدّدة. »

أجل، هي "رغبة البابا"! حول موضوع شائك مثل هذا، يبدو أنّ البابا وحده يستطيع، في النظام الكاثوليكي، أن يقول: "لقد أخطأنا!" وعلى كلّ حال، يبدو أنّ ذلك يصحّ، حتى بعد أن أعطى البابا الأمر ببدء التنفيذ.

وعندها، كان على الجميع أن يستعينوا بسلطة البابا! ولقد ردّد كلّ من الكردينال أتشيكاراي والأب كوتييه، خلال هذا اللقاء بالذات، أنّ هذا الموضوع يلبّي بالكامل تعليمات البابا، وقد حدّدا الاتجاه الذي كانا ينويان المضي فيه.

أما جورج كوتييه، فقد استخدم في كلمته العبارات التالية:

« إن كنّا باشرنا المسألة التاريخيّة، فلأنّ الأب الأقدس أثارها في براءته "في حلول الألفية الثالثة". وفي ما يتعلّق بالجوانب الخاصّة أو الشخصيّات الفرديّة، سيُصار إلى تنظيم مؤتمرات ستحاول، بمساعدة مؤرّخين، إقرار الحقيقة التاريخيّة. وفيما بعد، سنتدارس ملاءمة وطرق الاعتراف بالأخطاء. وعلى كل حال، هذا الجانب من اليوبيل، علينا أن ننظر إليه على أنه إيجابي، مفرح، ولا سلبيّة فيه قطّ. »

خلال هذا اللقاء، وُجِد أيضاً أناس - وهم أشخاص مدعوّون خصّيصاً لليوبيل، عيّنهم البابا أو أرسلهم الأساقفة - أثاروا المعارضات، واستعادوا، قليلاً أو كثيراً، معارضات المؤتمر الاستثنائي عام 1994: منها، أنّ التحديق في الماضي يذكّر بنظرة "ضيّقة"، ومنها أنّنا لا نرى "العلاقة بين المسائل التاريخية الكبرى واليوبيل"، ومنها أن الجوانب الإيجابيّة في التاريخ الكاثوليكي قد أُهمِلت بالكلّية، ومنها في البلدان التي كانت خاضعة للحكم الشيوعي، أنّ موضوع محاكم التفتيش سيُفضي إلى التأكيد على صحة دعاية الدولة الإلحاديّة القديمة. وفي ردّه على هذه المخاوف، أكّد الكردينال أتشيكاراي أنّ "لجنة التاريخ واللاهوت، ستأخذ بالاعتبار أهميّة ودقّة المواضيع المطروحة، وستُخضع اقتراحاتها لتقييم وتقرير لجنة الرئاسة". إذن، سنتقيّد بتعليمات الأب الأقدس، الواردة في براءته: "في حلول الألفيّة الثالثة".

إنّ المسعى لواضح: الأب كوتييه يقود الأعمال، ويعود بها إلى الكردينال أتشيكاراي، الذي ينقلها بدوره إلى البابا. ويقول المسؤولان بوضوح: إنّ العمل سيتمّ. سيكون بالغ الحجم، وسيكون على الأرجح

مترابطاً بإحكام، بحيث يُبرز، دون مبالغة، الأنوار والعتمات: إنّ أداة المؤتمر في غاية التوفيق، كي تقرّب مختلف الأصوات. ويعود للبابا، بعد ذلك، أن يُقرّ الطريقة التي يمكن بها العمل على "الاعتراف بالأخطاء". فهناك، سابقاً، خبرة قضيّة غاليليو، وحسبهم التقيّد بدروسها. يومذاك، لم يكن مؤتمر، بل لجنة هي التي نسّقت أبحاث اللجان الثانويّة، الأربع. فبعد عشر سنوات من العمل، تمّ الانتهاء إلى "تقرير" الرئيس، وإلى قرار البابا. سنتحدّث عن كلّ ذلك في الفصل الخاص بغاليليو، في القسم الثاني من هذا الكتاب. ومن المعقول أن نتصوّر أنّ هذين المؤتمرَين سيُفضيان إلى "تقارير" مماثلة، يتبعها تدخّل من البابا.

وسيكون أيضاً من مسؤوليّة هذه اللجنة، البحث عن طرق "من أجل تمثّل شعب الله، تمثّلاً كاملاً لأهداف المجمع الڤاتيكاني الثاني، ولإصلاحاته الكبرى"، ومن أجل تعميق موضوع التوبة، وارتباطاً به، مسألة الغفرانات.

إنّ مسألة الغفرانات الشائكة جداً، ستقود أيضاً - ربّما - إلى إعادة نظر: فهي التي أشعلت شرارة الإصلاح اللوثري. ولكن موضوع "تمثّل" المجمع الأخير، يبدو مثيراً للاهتمام أكثر، حتى لو كان، آنئذٍ، أقل إثارة. وكما صرّح بذلك المطران "سيباستياني"، إبّان اللقاء السابق، ستعالج أربعة موضوعات، وفق تعليمات البابا. سوف يدرس:

مدى تمثّل « أولويّة كلمة الله، كما تظهر في براءة "كلمة الله" »

المشاركة الكنسيّة، كما أُعلنت في القرار المجمعي: "نور الأمم".

الحياة الطقسيّة، كما وردت في القرار المجمعي: "المجمع المقدّس".

حوار الكنيسة مع العالم، كما تمنّاه القرار المجمعي: "فرح ورجاء".

إذن، فما من موضوع سيُهمَل. ويختتم المطران سيباستياني:

« إنّ تحليل هذه الموضوعات الكبيرة سيتم في ضوء المجمع الاستثنائي لعام 1985، الذي خُصّص للاحتفال بمرور عشرين عاماً على انعقاد المجمع الڤاتيكاني الثاني. »

كانت مراجعة سينودس عام 1985 محفِّزة، ولم تسبّب أيّ خمول، على الرغم من المخاوف التي كانت قد أُثيرت قبل ذلك! ربما كان علينا أن نتوقّع الأمر نفسه بالنسبة إلى إعادة النظر في نهاية الألفيّة.

اللاسامية ومحاكم التفتيش:

ما الذي يسعنا أن نتوقّعه من هذين المؤتمرَين الدوليّين، اللذين سيُعقدان في روما حول هذين الموضوعين؟ في اللحظة التي نختم فيها بحثنا، لا يتوفر لدينا أيّة معلوماتٍ موثوقة. إلا أنّه في ما يتعلق باللاساميّة، يسعنا توضيح التوقّع الذي يمكن لهذا المؤتمر أن يستجيب له. أما بالنسبة إلى محاكم التفتيش، فإنّنا نعرف لماذا تَقرّر استعمال هذه الكلمة بصفة الجمع، ويسعنا أن نسأل مؤرّخاً مختصّاً أن يحدّد لنا قلب المسألة.

في ما يتعلّق باللاسامية، فإنّ المؤتمر الدولي الذي أُعلن عنه، قد يمكنه أن يفضي إلى مشروعٍ مضى عليه حتى اليوم عشر سنوات، وهو مشروع تحرير وثيقةٍ من الفاتيكان حول المحرقة، طال الحديث عنها، ولكنّها لم تُنشر البتّة. إنّ أوّل صدامٍ يعود للقاء استفسار وتوضيح (إثر الاحتجاجات اليهوديّة، بعد استقبال البابا للسيد "كورت فالدهايم Kurt WALDHEIM" في 1987/6/25) تمّ في الفاتيكان، يومَي 8/31 و 1987/9/1، بين وفدٍ من الفاتيكان ووفدٍ آخر من اللجنة اليهوديّة العالميّة، من أجل الاستشارات المشتركة بين الأديان. وفي ختام هذا اللقاء، أعلن الكردينال "فيلبراندز" (WILLEBRANDS)، على رأس الوفد الفاتيكاني، عن "نيّة اللجنة المختصّة بالعلاقات الدينية مع اليهودية، في إعداد وثيقة كاثوليكيّة رسميّة حول المحرقة، حول الأسس التاريخيّة للاسامية، وحول مظاهرها المعاصرة". (77)

لدينا فكرة عن المضمون المحتمل لهذه الوثيقة، بفضل "إعلان براغ"، الذي نشرته في 1990/9/6، اللجنة الدوليّة للاتصال بين اليهود والكاثوليك، جاء فيها: "بعض التقاليد على مستوى الفكر والتعليم والوعظ الكاثوليكي، وخلال عهد الآباء الأوّلين والعصور الوسطى، أسهمت في نشوء اللاساميّة

في المجتمع الغربي. وفي العصر الحديث، كثيرون هم الكاثوليك الذين افتقروا إلى اليقظة، ليواجهوا مظاهر اللاساميّة. وإنّ المندوبين الكاثوليك قد شجبوا اللاسامية، كما شجبوا أيضاً جميع أشكال العنصرية، بوصفها خطيئة ضد الله والبشريّة، وأكّدوا أنّه لا يمكن للمرء أن يكون مسيحيّاً حقيقيّاً ومشدوداً إلى اللاساميّة". (78)

بوسع المؤتمر أن يدلي بمساهمته في هذه الوثيقة الشهيرة حول المحرقة، وهي بدورها، يمكنها أن تتيح الفرصة لطلب الغفران من اليهود، هذا الطلب الذي طالما استُجديَ ولم ينفَّذ، والذي سنتكلّم عنه في الفصل المتعلّق باليهود، في القسم الثاني من هذا الكتاب.

وفيما يتعلق بمحاكم التفتيش، فإنّ اللاهوتي جورج كوتييه، رئيس اللجنة، قد فسّر استخدامه لصيغة الجمع، إبّان مداخلته في لقاء اللجنة مع ممثلي الأساقفة، يومَي 15 و 1996/2/16، فقال: "من الأصحّ أن نتحدّث عن محاكم التفتيش بصيغة الجمع، لأنّنا نواجه ظاهرةً تاريخيّةً تنوّعت أشكالها وفق الأمكنة". (79)

ما عسى أن تكون نتيجة هذا المؤتمر؟ يمكنه أن يُفضي إلى تقرير نهائي في الإقرار بالأخطاء، على طريقة تقرير الكردينال "بوبار" (POUPARD) في قضيّة غاليليو، الذي نشرناه في القسم الثاني من هذا الكتاب، في الفصل المتعلّق بغاليليو. وقد تأتي نتيجةُ هذا التقرير على النحو التالي، أو قد تشبهه كثيراً:

« إنّ الأخذ بالوشاية، والتكتّم حول هويّة الواشين، واستبعاد المحامين بصورةٍ شبه منتظمة، والإفراط في توسيع مفهوم الهرطقة، وممارسة التعذيب، حتى لو كان ذلك ضمن حدود القانون وما يتطلّبه من احترازات، وتنفيذ حكم الإعدام، كلّ ذلك كان أعمالاً بعيدة جداً عن روح الإنجيل الحقيقي، ونحن مضطرون للاعتراف بأنّ العصر الحديث، في هذا الأمر أقلّه، وعلى الرغم من الأخطاء والانحرافات، قد أدرك، على نحوٍ أفضل، مقتضيات الرسالة المسيحيّة. » (80)

القسم الثاني

تصريحات البابا يوحنا بولس الثاني[1]

[1] احتُفِظ بترتيب الموضوعات كما جاء في الطبعة الإيطالية، مع أنه لا ينسجم مع الترتيب الأبجدي. على كل حال، بوسع القارئ أن يطالع هذا القسم الثاني، في الترتيب الذي يختاره، لأن الفصول فيه مستقلة عن بعضها البعض.

الفصل الأوّل

الحملات الصليبية

منذ 1996/6/14، استُبدل اسم "ساحة الحملات الصليبيّة" في ميلانو، باسم بولس السادس. وفي روما، أُطلق اسم بولس السادس، على الشارع الذي كان يسمّى "المجمع المقدس". وإذن، يعود للبابا مونتيني - وإنّ ذلك لحقٌ له - أن يمهر هذا التطور بتوقيعه.

ولكن "كارول فويتيلا" هو الذي تولّى، في الغالب، تطبيق التغيير، بطريقةٍ تعليميّةٍ، على هذا أو ذاك من فصول تاريخ الكنيسة. ذلك أيضاً، كان حال الحملات الصليبيّة. وفي شهر شباط عام 1995، بمناسبة الصلاة الملائكيّة ظُهراً، تحدّث البابا يوحنا بولس الثاني على هذا النحو، مذكّراً بشخصيّة القديسة كاترين السيانيّة:

« نعرف الصرخة التي توجهت بها كاترين إلى البابا غريغوريوس الحادي عشر، لتشجّعه على تحقيق السلام بين المسيحيّين": "السلام، السلام، السلام، يا أبتِ الوديع، وتبّاً للحرب!" (رسائل، رقم 218)... أجل، يجب الاعتراف بأنّها كانت أيضاً، ابنة زمانها، يوم تبنّت، في اندفاعها العادل للدفاع عن الأماكن المقدّسة، العقليّة السائدة آنذاك، والتي كانت تجيز لمثل هذه الرسالة، اللجوء إلى السلاح. واليوم، يجب علينا أن نكون شاكرين لروح الله، الذي اقتادنا إلى أن نفهم على نحو أوضح، أنّ السبيل الأفضل، والأكثر انسجاماً، في الوقت نفسه، مع الإنجيل، لمواجهة المسائل التي يمكنها أن تنشأ في العلاقات بين الشعوب والديانات والثقافات، هو سبيل الحوار الصبور، والذي يجمع بين الصرامة والاحترام. إلاّ أنّ اندفاع كاترين يظلّ، مع ذلك، مثالاً للحبّ الشجاع والقوي،

وتشجيعاً للانخراط في جميع الاستراتيجيّات الممكنة من أجل حوارٍ بنّـــاءٍ، كي نبني سلاماً يتنامى في الاستقرار والاتساع. » (1995/1/12)

نحن هنا إزاء كلماتٍ موزونة. ليس ثمّة أيّ حكمٍ مباشرٍ على مغامرة الصليبيّين، التي كانت أيضاً مغامرةَ مسيحيّين، ولكنّنا أمام انقلابٍ صريحٍ في وجهة النظر باسم الإنجيل. ويتّخذ هذا الانقلاب درجةً أكبر من الوضوح، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ البابوات هم بالتحديد الذين دعَوا إلى الحملات الصليبيّة، وقد حاولوا طوال قرونٍ، أن يدفعوا إليها الأمراء المسيحيّين.

وما لا يقوله يوحنا بولس الثاني (وهذا أمر مفهوم: فما مِن بابا ينتقد بابا آخر، وقد يعارضه بالأفعال، ولكن لن يفعل ذلك أبداً بالأقوال)، وهو أنّ كاترين أدّت مهمّتها من أجل الحملات الصليبيّة، لتطيع البابا غريغوريوس الحادي عشر، الذي أقنعها بذلك، بل كان قد أمرها بذلك في الاجتماع العام للرهبنة الدومينيكيّة (وكانت تنتمي إليها). وما بين عام 1376 وعام 1380، حيث توفِّيت وهي بعد في الثالثة والثلاثين، أكّدت كاترين أنّ بوسع المرء، بفضل الصليبيّة، أن يكتسب "ثلاثة خيرات": «سلام المسيحيّين، توبة هؤلاء الجنود، وخلاص مسلمين كثيرين». ["الخلاص الأبدي": باعتقالهم وتعميدهم قسراً (1)]. هوذا، إذن، ما يُخشى أن يحدث لمسيحيّة كرّست طاقتها كلّها للانصياع لأمر البابا: أن يأتي بابا آخر بعد ستّة قرون، ليلوم فيها "ابنة زمانها"!

يبدو موضوع الحملات الصليبيّة مرتبطاً بموضوعات الإسلام، والحرب والسلام، والحروب الدينيّة. وفي الحرص الخاص الذي يبديه البابا يوحنا بولس الثاني، إزاء هذا الموضوع، إذ هو يتحاشى التطبيق الرجعي للثاتيكاني الثاني على القرون الوسطى، نلمس شيئاً من الإلحاح الذي يوجّه به بعض الأئمّة والمثقّفين المسلمين عتابهم للبابوات، بسبب "جحافل الحجيج المسلّحة" [كما يدعونا المؤرخ "كارديني"

(CARDINI) (2) لتسمية الحملات الصليبيّة في بدء نشأتها]، لعدّة قرون خلت، والتي سرعان ما تحوّلت إلى حملات فتوحاتٍ عسكريّة. وقد أثار موضوع الحملات الصليبيّة، الزعماء المسلمين الذين رفضوا اللقاء مع البابا يوحنا بولس الثاني، في شهر شباط عام 1982 في نيجيريا، وفي شهر أيلول عام 1995 في كينيا. وقد وُصِف المجمع الأفريقي الذي دعا إليه البابا، والذي عُقد في روما، في ربيع عام 1994، من قِبل الأوساط الإسلاميّة المتشدّدة، بـ"الحملة الصليبيّة ضد الإسلام". (3)

ولكن، هل يمكن لبابا يضع مسافةً بينه وبين الحملات الصليبيّة، أن يلقى تفهّماً من مسلم؟ الجواب هو نعم! فهناك مثقّفٌ مسلمٌ، هو "خالد فؤاد علاّم"، شارك في اللقاء المتعدّد الأديان، في مدينة أسيزي عام 1986، وقد علّق على تصريح البابا يوحنا بولس الثاني حول الحملات الصليبيّة، على النحو التالي:

« إنّ دعوة البابا إلى حوار "صبور، فيه من الحزم بقدر ما فيه من الاحترام"، بين الديانات، هي، موضوعيّاً، انقلاب في وجهة النظر بشأن الحملات الصليبية. وإنّ هذا التوجه الجديد، أراه، بوصفي غير مسيحي، توجهّاً إنجيليّاً حقّاً. » (4)

والعالم المسيحي، هل بوسعه أن يفهم هذا النقد الذاتي الصادر عن البابا؟ أنا لا أتحدّث عن العلماء، بل عن الكهنة، ومدرّسي التعليم المسيحي؟ وهنا أيضاً، الجواب هو نعم! إذا ما قلّلنا من شأن المسألة الخاصة بالحملات الصليبيّة، وركّزنا على مسألة أوسع، تُحيل إليها حتماً المسألة الأولى، وهي مسألة العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي. ذلك بأنّ مسألة الحملات الصليبيّة محدودة، نظريّة، إذا ما عزلناها عن مجمل العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين. ولكن، إذا ما حدّدنا موقعها بدقّة، فإنّها ضخمةٌ وليست ببعيدة: فهناك، حتى اليوم، أشكال من الخلاف بين الإسلام والعالم المسيحي (أو الذي تخطّى المسيحيّة)، يبدو أنّها تدفع باتجاه حلولٍ عنيفة.

إنّ "كتاب التعليم المسيحي للبالغين" الذي أصدره، عام 1995، مجمع أساقفة إيطاليا، يشير إلى الحملات الصليبيّة، ويضعها في إطار "صعوبة الحوار" مع الإسلام. جاء فيه:

« إنّ ذكرى الماضي تثقلنا حتى اليوم: عشرة قرون من التصادم العنيف، شهدت العرب والأتراك يحاولون، مرات عديدة، اجتياح أوربا، وشهدت الغرب يدعو لحملات صليبيّة في القرون الوسطى، أو يبادر إلى الاستعمار الحديث بالقوة. واليوم، فإنّ الحضارة الغربيّة، وهي حضارةٌ علمانيّةٌ، فرديّة، استهلاكية، تتسرّب إلى العالم الإسلامي، وتنخره من الداخل، فتثير ردّ فعل التشدّد الإسلامي، وتجرّ معها أيضاً المسيحيّة في الكراهية نفسها. » (5)

هذا الرأي بشأن الحملات الصليبيّة، يرجّع صدى رأي البابا، ومثله السعي إلى الحؤول دون أن يعطي الإسلام فرصة النظر إلى العالم المسيحي على أنّه تحالفٌ مسلّحٌ، لا يتحرّك إلا بقصد قهر الإسلام.

الفصل الثاني

الأنظمة الاستبدادية

إنّ الفصل الخاص بالأنظمة الاستبداديّة لم يُكتب بعد. وهو يتعلّق بالجماعات الكاثوليكيّة الوطنيّة، أكثر ممّا يتعلّق بالبابوات. ويعود الفضل للبابا يوحنا بولس الثاني، في أنّه فرض هذا الموضوع على أنّه مادة يجب التفكّر فيها، كما أنّه وجّه إليه المجامع الأسقفية الوطنية، وأثار، بشأن ألمانيا النازيّة، سؤالاً جوهريّاً، يتوجّب على الجميع الإجابة عنه. فإنّ العنوان الذي وضعه البابا لهذا التفكير، يدعو للتساؤل، على مشارف الألفيّة الجديدة، عن مدى توافق المسيحيّين مع الأنظمة الديكتاتوريّة، وقد أوضح البابا يوحنا بولس الثاني أنهم "مسيحيّون كثيرون"، وهو يعني بذلك: غالبيّة المسيحيّين... إنّه لا يتحدّث عن المسيحيّين عموماً، بل هو يقول: "إنّهم مسيحيّو عصرنا". فإنّ العنصر الأساسي في فحص الضمير الذي يجب البدء به، هو التالي: إلى أيّ مدى قاومت الجماعة المسيحيّة خروقات حقوق الإنسان الأساسيّة، من قبل هذا أو ذاك من الأنظمة الديكتاتوريّة؟ وقد قدّم البابا تعليمات في برلين، في شهر حزيران عام 1996، **عندما أكّد أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة "قلّما" قاومت النظام النازي. وكان من قَبل قد رسم التوجّه المطلوب، في هذه الفقرة من وثيقة تعود إلى عام** 1994، **وُضعت إعداداً لليوبيل الكبير:**

« أمّا بشأن شهادة الكنيسة في عصرنا، فكيف لنا ألاّ نشعر بالألم، إزاء النقص في التمييز، الذي يتحوّل أحياناً إلى تأييدٍ حقيقي، لكثير من المسيحيّين، أمام خرق الحقوق الإنسانيّة الأساسيّة، على يد أنظمةٍ استبداديّة؟ » ("في حلول الألفية الثالثة"، فقرة 36)

يقيم البابا فارقاً بين النقص في التمييز والتأييد، في الوقت الذي يرى فيه أنّ أوّل أشكال الضعف هو، في حدّ ذاته، خطأ، وإنْ كان لا يفترض أيّ تأييد، ولكنّه قد يتّفق مع شيءٍ من الحياديّة. ونحن نتصوّر مدى ما يتطلّب من صدقٍ، فحص سلوك الجماعة الكاثوليكيّة الإيطاليّة، إزاء النظام الفاشي، إذا ما خضع لشروط مثل هذه القراءة. ويتوجّب أيضاً دراسة العنصر المعادي للمسيحيّة، الذي تسرّب إلى الفاشيّة، في أعقاب التحالف مع هتلر، وإعلان القوانين العنصريّة. فليس إذن هذا الأمر بِتحدٍّ تافهٍ، يطلقه البابا البولوني، الذي عرف في كيانه الاحتلال النازي والنظام الشيوعي، في وجه الجماعات المسيحيّة، مع دنوّ العام 2000.

في تحدّي البابا هذا، ليست الأنظمة الديكتاتوريّة، في حدّ ذاتها، هي المتّهمة، بل خروقات الحقوق الإنسانيّة الأساسيّة، التي ارتكبتها هذه الأنظمة. هذا هو المقياس الذي حدّده المجمع الڤاتيكاني الثاني، في دستوره الراعوي "فرح ورجاء" (1965)، وهو الحجّة التي أتاحت للبابا يوحنا بولس الثاني، أن يندّد بجميع الأنظمة الدكتاتوريّة خلال أسفاره (في بولونيا، ولكن أيضاً في البرازيل والفيليبين، وغواتيمالا، وهاييتي، والتشيلي والباراغواي، وحتى في السودان)، دون أن يتصدّى بشكلٍ مباشرٍ لأشكال الحكم، ولكن في تذكيرٍ دائمٍ ومتكرّرٍ، للحقوق الأساسيّة التي يتوجّب على كلّ نظام احترامها.

إنّ خبرة البابا البولونيّة، وما أتاحت له أسفاره، من اتصالٍ مباشرٍ بالجماعات الكاثوليكيّة الخاضعة لأنظمة دكتاتوريّة، هي في أصل هذه الدعوة البابويّة من أجل اليوبيل الكبير. وفي حين أنّ القرن العشرين اضطر، طوال أكثر من خمسين عاماً، للتأقلم مع بابوات، وإدارات رومانيّةٍ، وهيئاتٍ أسقفيّةٍ، وجماعاتٍ كاثوليكيةٍ، آثروا الأنظمة الديكتاتوريّة (شريطة أن تكون مؤيّدةً للكنيسة أو متسامحةً معها) على الأنظمة الديمقراطيّة، فإنّ اختتامه ببابا يطرح السؤال حول الدكتاتوريّات، ليس بالكسب الرخيص.

ولكن، كيف يجب أن تُترجَم معارضة جماعةٍ كاثوليكيّةٍ لنظامٍ يمزّق الحقوق؟ في براءته الرسوليّة، لم يحدّد البابا أيّة تعليماتٍ، ولكنّه، لاحظ، في مناسباتٍ أخرى، أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة في ألمانيا "قلّما" تحرّكت ضد النازيّة. لقد أطلق البابا هذا التصريح القاطع، الذي يكتسب المزيد من الدلالة، لأنّه يصدر عن بولوني يتكلّم في أرضٍ ألمانيّة، في برلين، في شهر حزيران عام 1996، إبّان لقاء مع مجلس اليهود المركزي، ساعاتٍ قليلة بعد إعلانه تطويب الأب "برنهارد ليشتنبرغ" (Bernhard LICHTENBERG)[1] الذي، "بسبب إيمانه، قاوم الأيديولوجيّة النازيّة غير الإنسانيّة، وضحّى بحياته". قال:

« حتى لو كان العديد من الكهنة والعلمانيّين، كما بيّن ذلك المؤرّخون فيما بعد، قد قاوموا هذا النظام الإرهابي، وحتى لو ظهرت أشكالٌ كثيرة من المعارضة في الحياة اليوميّة، فإنّ ذلك أقلّ من قليل". » (برلين، 23 حزيران 1996، في خطابٍ له خلال اللقاء مع الطائفة اليهوديّة).

يقول البابا إنهم كانوا أفراداً "كثيرين"، الذين قاوموا، بمواجهتهم المخاطر، إذ أقدموا على الدفاع عن اليهود [وكان البابا قبل ذلك، قد ذكر الأب "برنهارد ليشتنبرغ"، و"مرغريتا سومر" (Margarete SOMMER)، والكردينال "كونراد فون بريسنغ" (Konrad Von PREYSING)، و"ماريا ترفيل" (Maria TERWIEL)]، وإنّه كان هناك أشكال مبتكرة ومغمورة من المقاومة، عبر الحياة اليوميّة. إذن، ما الذي كان غائباً؟

إنّ البابا لا يقول شيئاً بهذا الصدد، ولكن السياق يوحي بالجواب: الذي كان غائباً هو موقفٌ رسمي، من شأنه أن يجنّد الكنيسة كلّها.

هذا النقد الذاتي الصادر عن البابا نفسه، وجد ما يسهّله في وثيقةٍ مأساويّة، كان قد نشرها، قبل ذلك بعام، في شهر كانون الثاني عام 1995، مجمع أساقفة ألمانيا، بمناسبة الذكرى الخمسين لتحرير أسرى معتقل

[1] كان كاهن كاتدرائية برلين في العهد النازي. وقد طوّبه البابا وأعلنه شهيداً عام 1996.

"أوشويتز" (AUCHWITZ) النازي. ولقد ورد فيها الاعتراف بـ"تقصير الكاثوليك وأخطائهم"، وذكر فيها "أنّ الكثيرين انجرفوا في الإيديولوجيا النازيّة، وظلّوا غير مبالين إزاء الاعتداءات التي ارتُكبت بحقّ ممتلكات اليهود وحياتهم، وأنّ هناك مَن ساند مَن استولى على الممتلكات اليهوديّة، أو أصبحوا، هم أيضاً، لصوصاً.» (7)

ولكن الأساقفة الألمان كانوا قد قدّموا للنقد الذاتي البابوي، اقتراحاً أكثر مباشرة، وهو تصريح أصدرته أمانة سرّ الأساقفة الألمان، ويعود لعام 1979، وهو يحتوي مختصراً مفصّلاً لما كان الأساقفة والكاثوليك الألمان قد فعلوا، أو لم يفعلوا، لمقاومة النازيّة. وقد جاء في ختام هذا التصريح أنّ "الكنيسة لم تتّخذ موقفاً على جانب من الوضوح والقوة" (8)، أقلّه خلال الفترات الحاسمة من الاضطهاد الذي حلّ باليهود، أي في الأعوام 1933 و 1935 و 1939.

هل يسعنا أن نتصوّر، على نحو معقول، أن دعوة البابا إلى إعادة التفكير في العلاقة بين الكنيسة والأنظمة الديكتاتوريّة، ستُؤخذ بعين الاعتبار من قبل الطوائف الكاثوليكيّة التي مارست، أقلّه حتى الآن، هذا التمحيص الضروري؟ نلمس بهذا الصدد بعض الإشارات: إنّ هذه الدعوة قد أثمرت أقلّه ثمرةً هامّةً، تحت شكل وثيقةٍ صادرةٍ عن أساقفة الأرجنتين، وتحمل تاريخ 1996/4/27، وقد جاء فيها:

« طوال تاريخنا الوطني، فصَلنا، مرّات كثيرةً وبطرقٍ مختلفة، بين التبشير بالإنجيل، والتأثير الذي كان يمكن أن يُحدثَه في الحياة السياسيّة. وقد برز هذا الفصل، بصورةٍ قاسية، في فترة الستينيّات والسبعينيّات، التي تميّزت بإرهاب العصابات والإرهاب المضاد من قبل الدولة. وإنّ جراحاته العميقة لّما تلتئم بعد.

دون التسليم بمسؤوليّات لم يكن للكنيسة فيها يد في هذه الأحداث، يجب علينا الاعتراف بأنّ بعض الكاثوليك برّروا العنف المنظّم وشاركوا

فيه، بوصفه وسيلة "للتحرير الوطني"، وهم يسعَون لانتزاع السلطة السياسية، ولإقامة شكلٍ جديدٍ من المجتمع، مستوحى من الإيديولوجيا الماركسيّة، وقد جرّوا إلى قناعاتهم، للأسف، شبّاناً كثيرين. وهناك فصائل أخرى، انضمّت إليها أعداد كثيرة من أبناء الكنيسة، ردّوا بصورة غير مشروعة، على حرب العصابات، بطريقةٍ لا أخلاقيّة وفظيعة، تغمرنا كلّنا بالخجل. ولذلك، نجد من المناسب أن نكرّر ما سبق لنا أن قلنا آنذاك: "إن كان أحد أعضاء الكنيسة، أيّاً كان موقعه، قد غطّى بتأييده أو تواطئه، بعض هذه الأحداث، فإنّه قد تصرّف بوحي من مسؤوليّته الشخصيّة، وقد ارتكب خطأً أو خطيئةً فادحةً بحقّ الله والبشريّة وضميره". [...]

نظراً لتضامننا مع شعبنا ومع خطايا الجميع، نطلب الغفران من الله ربّنا، من أجل الجرائم التي ارتُكبت آنذاك، وخصوصاً من أجل الذين كان لهم أعوان من أبناء الكنيسة، سواء كانوا مُنضوين مع العصابات الثوريّة، أو نالوا السلطة من الدولة، أو كانوا من قوى الأمن. ويسري الأمر نفسه على جميع الذين شوّهوا تعليم المسيح، فحرّضوا على عنف حرب العصابات، أو على قمعٍ مضاد لا أخلاقي.

في تلك الفترة، رأى الأساقفة أنّه يتوجّب عليهم في آنٍ واحد، التنديد الصارم بالأعمال المسيئة، والتدخّل المتكرر لدى السلطة، بواسطة المكتب التنفيذي لمجمع أساقفة الأرجنتين، واللجنة المختصة بهذه الشؤون، وبتدخّل الأساقفة الشخصي. وقد سعى الأساقفة للعثور على حلولٍ عمليّة، وتجنيب شرورٍ أكثر فداحة للسجناء. ويتوجّب علينا الاعتراف بأنّنا اصطدمنا للأسف بموقفٍ يخلو من أيّة مرونةٍ من قبل سلطاتٍ كثيرةٍ، كانت تنتصب وكأنّها جدار يستحيل تخطّيه.

كثيرون هم الذين يرَون أنّه كان على الأساقفة، في تلك الفترة، أن يقطعوا كلّ علاقة مع السلطات، إذ يرَون أنّ هذه القطيعة كانت ستكون بادرة فعالة من أجل تحرير السجناء. الله وحده يعلم ما كان يمكن أن يحدث، لو كنّا سلكنا هذا الدرب. ولكن، ممّا لا شكّ فيه، أنّ كلّ ما فعلنا، لم يُفلح في منع فظاعة بمثل هذا الحجم.

يؤسفنا شديد الأسف، ألا نكونَ وُفّقنا أكثر إلى تخفيف الألم الذي سبّبته مأساة بحجم هذه المأساة. ونحن متضامنون مع جميع الذين طالتهم هذه المأساة بجروحها، وإننا لَنُبدي أسفنا الصادق لمشاركة أبناء من الكنيسة في خرق حقوق الإنسان. » (9)

قبل الموافقة على هذا النص، كان الأساقفة قد ناقشوا نصّاً آخر، على جانب أكبر من الصراحة، بل فيه فيض من روح البابا يوحنا بولس الثاني، فيما يتعلّق بالإقرار بالخطيئة، ولكنّه لم يلقَ تأييد الغالبيّة. جاء فيه:

« لو فحصنا الآن، بعد مرور بضع سنوات على هذه الفترة، وفي ضوء رسالة اليوبيل البابويّة، عَمَلَنا الرعوي خلال الأزمات الخطيرة والمؤلمة من ماضينا الحديث، لَوَجب علينا أن نقرّ، نحن الأساقفة، بأنّنا لم نُحسن التمييز بوضوح في الأحداث التي انخرطنا فيها. لم ننجح في تفهّم وتقييم خطورة الشرّ الذي كان يفتك بالجسم الاجتماعي، ولا سيما المظالم البشعة بحقّ كرامة الأشخاص، التي ارتكبها أولئك الذين كان يُفترض فيهم حماية الأمّة بالقانون. وإنّنا، بحكم المسؤوليات المترتّبة علينا، من أجل كلّ ما أهملنا القيام به، أو سكتنا عنه، ومن أجل ما لم نحسن فعله بسبب تردّدنا، وضُعفنا أو تقديرنا الخاطئ للأحداث، ومن أجل ما لم نفعله في الوقت المناسب، ومن أجل ما فعلناه في فتور أو بطريقة غير ملائمة، من أجل كلّ ذلك، ومن صميم القلب، نسأل الله الغفران. » (10)

الفصل الثالث

الانقسامات بين الكنائس

ههنا نجدنا، في نهاية الألفيّة، في قلب فحص الضمير، الذي اقترحه البابا يوحنا بولس الثاني: إنّ أولى الخطايا التي يجب الاعتراف بها، هي خطيئة الانقسام. وإنّ الاعتراف بها لكاملٌ، والتعبير عنها نموذجي. هذا الفصل يرتبط بالفصول المتعلّقة بالحروب الدينيّة، ولوثر، والانشقاق الشرقي. وفي كلّ منها، سنقرأ التصريحات المناسبة. وهنا نقدّم التصريحات العامّة وأسلوب العمل. لدينا، في ما يخصّ جوهر الأمور، مصادر ثلاثة:

الوثيقة المذكِّرة الموجّهة إلى الكرادلة، استعداداً للمؤتمر الاستثنائي في ربيع عام 1994.

الرسالة "في حلول الألفيّة الثالثة"، الصادرة في تشرين الثاني من العام نفسه.

البراءة "ليكونوا واحداً"، الصادرة في شهر أيار عام 1995.

هذه النصوص الثلاثة تشكّل كتلة موحّدة، وتَسِم مرحلة النضج في بابويّة يوحنا بولس الثاني. وفي جدولنا، سيسبقهم ثلاث خطبٍ رائدة، ألقاها البابا بمناسبة لقاءات مسكونيّة، تمّت عام 1980، وعام 1983، في باريس وماينس وفيينا، وبخطابين آخرين، على جانب أوفى من التوضيح والتحديد، في افتتاح وختام السينودس الأوربي عام 1991.

هذه السلسلة من النصوص تُظهر أنّ البابا يوحنا بولس الثاني، تصوّر، منذ البدء، أنّ فكرة الغفران المتبادل، هي الطريق الملكي للحركة المسكونيّة: وهو يدين كثيراً بهذه القناعة لتصريحات المجمع الفاتيكاني والبابا بولس السادس. هذه الفكرة تكتسب شخصيّتها ووضوحها، إثر

خيبات الأمل المسكونية التي اصطدم بها، في نهاية الثمانينيات (والتي سنتصدّى لها في الفصل الخاص بالانشقاق الشرقي). وأخيراً، باتت هذه الفكرة مسيطرة على المنحى العام ليوبيل 2000، وهي مدعوة - على الأرجح - لتشكّل الإرث الأوفر إثماراً في تاريخ البابا يوحنا بولس الثاني.

تنقية الذاكرة:

أصبحت فكرة "تنقية الذاكرة التاريخية"، بمرور السنوات، أحد شعارات بابويّة يوحنا بولس الثاني. وقد صيغت لأوّل مرّة حول الصراع بين المسيحيّين:

« قبل كلّ شيء، وفي ديناميّة الحركة نحو الوحدة، يجب تنقية ذاكرتنا الشخصيّة والجماعيّة، من ذكرى جميع صدامات الماضي ومظالمه وأحقاده... [...] أهلّل خصوصاً لسموّ التعاون القائم بينكم، لا سيما في ما يتعلّق بخدمة الإنسان، وهي خدمة تُفهم في كافة أبعادها، وهي تقتضي، بصورة ملحّة، ومنذ الآن، شهادة جميع المسيحيّين، وإنّها لَشهادةٌ سبق لي أن أكّدت ضرورتها، في براءتي "فادي الإنسان" (باريس، 1980/5/30، لقاء مسكوني). »

الإقرار بالخطايا الذاتيّة:

إنّ تنقية الذاكرة تجد ترجمتها في الإقرار بالخطايا الذاتية:

« أن نتواجد معاً معكم في وطنكم، ألمانيا، أمر يقودنا إلى إثارة قضيّة الإصلاح. يجب علينا أن نفكّر في ما سبقها، وفي ما حدث مُذّاك. إن نحن لم نتهرّب من الوقائع، يتّضح لنا أنّ أخطاء البشر قادتنا إلى انقسام المسيحيّين المشؤوم، وإنّ خطيئتنا تواصل الحؤول دون تحقيقنا خطوات جديدةً، ممكنة وضرورية نحو الوحدة. وإنّي لأتبنّى بقوة، كلمات سلفي البابا أوربانوس السادس عام 1523، أمام برلمان "نورمبرغ" (NUREMBERG): "بكلّ تأكيد، إنّ يد الرب لم تبلغ من الضعف ما يجعلها عاجزةً عن خلاصنا، ولكن الخطيئة هي التي تُبعدنا عنه... كلّنا جميعاً، مسؤولين أعلَين وكهنة،

تركنا الطريق الصحيح، وأنا لا أرى واحداً لم يرتكب الشرّ (راجع المزمور 4/14). لذا وجب علينا جميعاً أن نرفع الشكر لله ونتّضع أمامه. وعلى كلّ واحد منّا أن يتساءل لماذا أخطأ، ويحكم على نفسه بنفسه، بدل أن يحكم الله عليه يوم الغضب". وإنّي لأقول، مثل آخر بابا هولندي وألماني: "إنّ المرض قد ضرب جذوراً عميقة وانتشر. يجب إذن أن نتقدّم خطوةً خطوة، ونقاتل الشرور الأكثر فداحةً وخطورةً، باستخدامنا علاجات مناسبة، كي لا نُحدث مزيداً من الفوضى، بسبب إصلاح متسرّع". واليوم، كما بالأمس، فإنّ أهمّ خطوة نحو الوحدة، هي تجديد الحياة المسيحيّة. (ماينس، 1980/11/17، لقاء مع ممثلي الكنائس الأخرى). »

سوف نلتقي مرّةً أخرى البابا أوربانوس السادس، في الفصل الخاص بلوثر، ولكنّا كنّا صادفنا أيضاً هذه التلميحات من أوّل بابا معاصر وغير إيطالي، إلى آخر بابا غير إيطالي من عصر النهضة، في الفصل الأول من القسم الأول.

ثمّة تعبير آخر مكثّف عن هذا الموقف الداعي إلى النقد الذاتي، وقد أصبح، بمرور السنوات، كلمة سرّ بابويّته:

« لا يجوز إنكار الأخطاء التي كان المسيحيّون مسؤولين عنها حقّاً. (فيينا، 1983/9/11، لقاء مسكوني). »

الغفران الدائم:

وحده الغفران ينقّي حقاً الذاكرة التاريخيّة من الأخطاء المعترف بها:

« في ختام هذا القرن المأساوي، يبدو أن سؤال بطرس يتّخذ أهمية خاصة: "كم مرّة يجب عليّ أن أغفر؟" يجب علينا أن نغفر دائماً، ونحن نتذكّر أنّنا، نحن أيضاً، نحتاج إلى غفران. نحن نحتاج إلى الغفران أكثر بكثير ممّا يتوجّب علينا أن نهب الغفران. (كنيسة القديس بطرس في الڤاتيكان، 1991/11/28، في عظة افتتاح سينودس أساقفة أوربا).

إنّ الرسالة الخلاصيّة، التي نحن حمَلتها، لن تجد قبولاً من معاصرينا، إلاّ إذا ترافقت بشهادة متوافقة معها. يؤكّد المجمع الـڤـاتيكاني الثاني أنّـه "لا توجد مسكونيّةٌ حقيقيّةٌ، دون اهتداء داخلي. وفي الواقع، فإن رغبات الوحدة تنطلق وتنضج من تجدّد الروح، من التنكّر للذات، ومن دفق مـن المحبّة، حرّ" (استعادة الوحدة، 7). وفي ضوء هذا المبدأ، يليق بنا أن نسائل أنفسنا عن أخلاقيّة الحوار، وفق مقتضيات الإنجيل. إنّها مقتضيات الحقيقة والمحبّة، وهي تفترض الإقرار الصادق بالوقـائع، في اسـتعداد للغفـران وللتعويض عن الإساءات المتبادلة، وهي تَحول دون الانغلاق في أحكـام مسبقة، كثيراً ما تكون مصدر مرارة واحتجاجات عقيمة. وهـي تقـود الإنسان إلى الامتناع عن إطلاق اتّهامات واهيةٍ ضدّ أخيه، إذ تنسب لـه نيّات ومقاصد غريبة عنه. وهكذا، فعندما يكونٍ الإنسان مفعماً برغبـة التفهّم الحقّ لموقف الآخر، تخمد النزاعات بفضل حوار صبور وصـادق، تحت إلهام الروح القدس. (كنيسة القديس بطرس في الـــڤــاتيكان، 1991/6/7، احتفال مسكوني في ختام السينودس الأوروبي).

إنّ قوّة هذين النداءَين إلى المغفرة بين المسيحيّين، تستند إلى أنّهما أُلقيا في افتتاح وختام السينودس الأوروبي، الذي سجّل اللحظة التي بلغت فيـه ذروتَها، صعوبةُ العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الأرثوذكسيّة. إنّ "الاحتفال المسكوني" الذي يُحيل إليه النص الثاني، كان قد سبقه نصّ حاسم، إبّان احتفالٍ آخر ترأّسه البابا أيضاً، وأُقيم في قاعة الـسينودس في 1985/1/5، في ختامٍ سينودس اسـتثنائي عُقـد بعـد انعقـاد المجمـع الـڤـاتيكاني بعشرين عاماً، وكان، بدوره، قد استثمر خبرة الاحتفالات المسكونيّة التي باتت كثيفةً جداً، خلال أسفار البابا. وحدث بعد عظـة البابا "فعل مصالحة وسلام"، يرويه الأب اليسوعي "جيوفـاني كابريليـه" (Giovanni CAPRILE)، وهو مؤرّخ المجمع الـڤـاتيكاني والسينودسات،

فيقول: "دعا المحتفِل الحضور للإقرار بالخطايا، وعلى الأخصّ، الذين سبّبوا وغذّوا الانقسام بين المسيحيّين. ورفع قارئ ثلاث صلوات إلى الرب يسوع: كي يساعدنا على تحقيق المصالحة، على شفاء جراحنا، وخطايا الانقسام، كي يقودنا جميعاً إلى الحياة الأبديّة. وختم المحتفِل بطلب الغفران والعون من الرب، كي نكون نحن أيضاً صادقين في مغفرتنا لبعضنا البعض. ثم تبادل البابا والإخوة غير الكاثوليك قبلة السلام. » (11)

الإقرار بالخطايا يصبح برنامجاً:

مع الوثيقة المذكِّرة التي وجّهها البابا للكرادلة، في ربيع عام 1994، أصبح فحص المسؤوليّات الكاثوليكيّة في انقسامات الكنيسة، برنامجاً مطروحاً على الجميع:

« في موقفهم المتّسِم بالاستسلام التام لفعل الروح، يجب على الكنيسة والمسيحيّين، أن يحدّدوا معاً هذه الرسالة لأنفسهم، فيجدّدوا التزامهم حيال العام 2000. وإنّ دنوّ ختام الألفيّة الثانية، لَيدعو كلّ واحد إلى إجراء فحص ضمير، وإلى اتّخاذ مبادرات مسكونيّة ملائمة، بحيث نلتقي كلّنا معاً، في فترة اليوبيل الكبير، إنْ لم يكن في مصالحة كاملة، أقلّه في حالة من المعارضة والانقسام، دون التي لوحظت طوال الألفيّة الثانية. » (رسالة للتذكير، موجهة للكرادلة، في ربيع عام 1994) (12).

الواجب الأول:

في افتتاح المؤتمر الاستثنائي عام 1994، اقترح البابا، من جديد، هذا الالتزام بالإقرار بالخطايا، الذي كان قد تقدّم به في الوثيقة المذكِّرة، والذي كان أثار صدىً واسعاً في الرأي العام، وبعض الانتقادات داخل الكنيسة، كالتي ذكرناها سابقاً في الفصل الثامن من القسم الأول:

« في منظور العام 2000، قد تكون هذه هي أعظم مهمّة لنا. لا يسعنا أن نمثل أمام المسيح، رب التاريخ، منقسمين كما نحن عليه الآن، في حين أنّنا

التقيـــــنا مع ذلك خـــــلال الألفيّـــــة الثانيـــــة. هذه الانقـــسامات يجب أن تُخلي المكان للتقارب والتفاهم. يجب أن تلتئم الجراح على طريـــق وحدة المسيحيين. أمام هذا اليوبيل الكبير، تحتاج الكنيسة إلى توبـــة، أي إلى اكتشاف لنقائص أبنائها التاريخية ولإهمالاتهم، حيال مقتـــضيات الإنجيـــل. وحده الاعتراف الشجاع بالخطايا، وبالإهمالات التي كان المسيحيون، بطريقة ما، مسؤولين عنها، وكذلك أيضاً النيّة السخيّة في معالجتـــها بمعونـــة الله، يستطيعان أن يمنحا دفعاً فاعلاً للتبشير الجديد، ويسهّلا السير نحو الوحدة. » (المؤتمر الاستثنائي، 1994/6/13، الخطاب الافتتاحي).

الخطيئة الأولى:

في نتيجة هذه المرحلة من التحقيق في الأخطاء، حدّد البابا في رسالته الخاصة باليوبيل الكبير، أنّ خطيئة الانقسام هي الخطيئة الأولى التي يجب التعويض عنها:

« من الخطايا التي تحتاج إلى مجهود مضاعف من التوبة والاهتداء، يجب طبعاً اعتبار تلك التي أساءت إلى الوحدة التي أرادها الله لـــشعبه. خـــلال الأعوام الألف التي تشرف على نهايتها، أكثر ممّا في الألفيّـــة الأولى، فـــإنّ الشركة الكنسيّة "أحياناً بخطيئة هذا الطرف أو ذاك"، عرفت تمزّقات مؤلمة، تُعارض صريحاً إرادة المسيح، وتشكّل في نظر العالم مادّةً لفـــضيحة. مـــن المؤسف أنّ خطايا الماضي هذه، تنوء حتى اليوم بأثقالها، وتنـــهض حـــتى الساعة الحاضرة، بمثابة تجارب. من الضروري أن نكفّر عنها، فنـــستدعي بقوة غفران المسيح. » ("في حلول الألفيّة الثالثة"، 34).

معاً من أجل التكفير:

من الالتزام بالتكفير عن الخطايا الشخصيّة إلى النداء من أجل الغفران المتبادل، صاغ البابا يوحنا بولس الثاني آخر مراحل تفكيره في النقد الذاتي، في براءته "ليكونوا واحداً":

« حُملتْ في ذبيحة المسيح الخلاصيّة، جميع خطايا العالم. وإذن، أيضاً تلك التي ارتُكبت ضد وحدة المسيحيّين، خطايا المسيحيّين، خطايا الرعاة والمؤمنين على السواء. إنّ وحدة المسيحيّين ممكنةٌ، حتى بعد الخطايا الكثيرة التي سبّبت الانقسامات التاريخيّة، شريطة أن نعيَ في اتّضاع أنّنا أخطأنا ضد الوحدة، وأن نكون مقتنعين بضرورة توبتنا. فليست وحدها الخطايا الشخصيّة، التي يجب أن تُغفر وتُقهر، ولكن أيضاً الخطايا الاجتماعيّة، وهي، بمعنى ما، بُنى الخطيئة بالذات، التي جلبت الانقسام، ويمكنها أن تجلبه وترسّخه. [...] ويتوجّب على الكنيسة الكاثوليكيّة أن تزجّ نفسها في ما يسعُنا تسميته "حوار الاهتداء"، حيث يقدّم الأساس الروحي للحوار المسكوني. وفي هذا الحوار، الجاري في حضرة الله، يتوجّب على كلّ واحدٍ أن يبحث عن أخطائه الخاصّة، ويعترف بخطاياه، ويستودع ذاته في يدَي من هو الشفيع لدى الآب، يسوع المسيح. » ("ليكونوا واحداً"، 34، 82)

نسجّل التعبير الموفّق والمكثّف "حوار الاهتداء"، ومثله جرأة الإحالة إلى "الخطايا الاجتماعيّة" وإلى "بُنى الخطيئة"، في موضوع الانقسامات بين الكنائس. ونلاحظ أيضاً أنّ تطبيق هذه المقولات، التي صاغها سينودس عام 1983 **حول التوبة، على حياة الكنيسة بالذات، لا سابقة له، ويبرز بُعد تحذير المؤتمر بشأن الكنيسة "البريئة من الخطيئة" (راجع الفصل** 8 **في القسم الأول). وهو جوابٌ جديدٌ على تحذير المؤتمر، جواب تبرز فيه الفقرة الأخيرة حول "تنقية" الكنيسة:**

« لا يسعنا أن نظلّ جامدين، إزاء الانقسام الذي يرهق العالم المسيحي منذ قرون. ليس بوسع الكاثوليك وغير الكاثوليك، إلاّ أن يتألّموا في الصميم، وهم يلاحظون انفصالهم الذي يتناقض بقوّة فاضحةً، مع كلمات المسيح، المشحونة بالحزن، في العشاء الأخير (راجع يوحنا 17: 20–23).

بالتأكيد، إنّ وحدة الكنيسة في كيانها، كما شاءها مؤسّسها، لم تنفصم قطّ. [...] ولكن لا يسعُنا أن ننكر أنّ وحدة الكنيسة، في تحقّقها التاريخي، في الماضي كما في الحاضر، لا يتجلّى فيها ملء القوة والانتشار اللذين يسعها – بل يجب عليها – أن تتحلّى بهما، وفق المقتضيات الإنجيليّة التي تتوقف عليها.

لذلك، فإنّ الموقف الأوّل للمسيحيّين الذين يسعَون نحو الوحدة، والذين يدركون المسافة التي تفصل الوحدة التي أرادها المسيح، عن تلك التي تحقّقت عملياً، لا يمكنه أن يقوم إلاّ على رفع عيوننا نحو السماء، لنطلب من الله اندفاعاتٍ جديدةً نحو الوحدة، بإلهام الروح القدس.

من ناحيةٍ أخرى، فإنّ الحركة المسكونيّة، كي تكون أصيلةً ومثمرةً، تطلب من المؤمنين الكاثوليك بعض الاستعدادات الأساسيّة. وهي، أوّلاً، وقبل كلّ شيء، المحبّة، في نظرةٍ مشحونةٍ بالمودّة، وفي رغبةٍ قويّةٍ في التعاون، كلّما كان ذلك ممكناً، مع إخوةٍ الكنائس الأخرى أو الجماعات الكنسيّة. وهناك، ثانياً، الأمانة للكنيسة الكاثوليكيّة، دون أن يجلب ذلك جهلَ أو حتى إنكارَ النقائص، التي ظهرت في سلوك بعض أعضائها. ثم، ثالثاً، روح التمييز، لتقدير ما هو صالح وجدير بالمديح.

أخيراً، لا بدّ من توفّر إرادةٍ صادقةٍ في التنقيّة والتجدّد، سواء بواسطة الالتزام الشخصي الموجّه نحو الكمالٍ المسيحي، أو بالسعي الحثيث، كلّ ضمن دائرته، بحيث تتنقّى الكنيسة وتتجدّد يوماً بعد يوم، هي التي تحمل في جسدها تواضع يسوع وتجرّده، إلى أن يقدّمها يسوع لذاته، مجيدة، لا لوثة فيها ولا غضن (راجع أفسس 5: 27). » (من رسالة البابا: "استعادة الوحدة"، 4) (مقابلة عمومية، في 1995/7/26).

الفصل الرابع

النسـاء

إنّ أجمل الكلمات التي تلفّظ بها البابا يوحنا بولس الثاني حول النساء، كانت طلب الغفران الوارد في براءته "رسالة إلى النساء" (شهر حزيران عام 1995). وأرقّ كلماته كانت فقرة من رسالته "الحياة المكرّسة" (آذار 1996)، التي تقدّم لنا المرأة بوصفها "علامة من حنان الله حيال الجنس البشري". ونجد كلمات شاعريّةً في رسالته "كرامة المرأة" (أيلول 1988): "إنّ صرخة الرجل الأول عندما رأى المرأة المخلوقة، هي صرخة إعجاب وانبهار، اخترقت مجمل تاريخ الإنسان على الأرض".

ونجد أجرأ الكلمات أيضاً في رسالته "كرامة المرأة"، وهي تحاول إعادة قراءة الكتاب المقدس قراءة أنثويّة، وهي تُفضي إلى إعادة تفسير ألفي عام لنصوص القديس بولس، التي تضع الرجل فوق المرأة. وهي تقوّم القديس بولس نفسه، أو أقلّه ما لديه من "قديم"، فتُقرّر أنّ "الدوافع في «خضوع» المرأة للرجل في الزواج، يجب أن تفسَّر بمعنى «خضوعهما المتبادل» الواحد للآخر".

وجاءت مبادرات هذا البابا، شهادة على المودّة الخاصة التي يكنّها للنساء. وهي مودّة عبّر عنها بحريّة، فشكّلت مراجعة جذريّة لما عُهد عن البابوات من مبادرات: ما مِن أحد قطّ شاهد بابا يقبّل فتيات (ونرجو أن تتواصل هذه المشاهدة)، ويضمّهنّ بين ذراعيه، يمسك بأيديهنّ ويكاد يرقص معهنّ. وإنّ هذا السلوك الجديد ليشكّل أيضاً، بطريقته، مراجعة تاريخية.

ولكنه يجدر بنا ألا نُخفي شيئاً ممّا يتعلّق بيوحنا بولس الثاني وموضوع النساء: وسنضيف أنّ هذا البابا، على سخائه المفرط بالكلمات

والحركات، لم يباشر حتى اليوم بأيّ إصلاحٍ، كي يفتح ميادين جديدة، أمام مسؤوليّة النساء، مع أنّه كان يمكنه أن يفعل ذلك، دون أن يخرج عن حرصه على الامتناع عن فتح الطريق بالنسبة إلى الكهنوت: فأن تكون المرأة شمّاساً إنجيليّاً مثلاً، لا ينطوي على المصاعب ذاتها على صعيد الكهنوت.

إن حاولنا أن نقسّم إلى مراحل، مداخلات يوحنا بولس الثاني في النقد الذاتي في شأن المرأة، يتّضح لنا أنّ تلك التي تنطوي على طلبٍ صريحٍ للغفران، أو على دعوة إلى التعويض، تعود كلّها إلى عام 1995، وهي مرتبطةٌ بسنة المرأة العالميّة، التي كان يُحتفل بها آنذاك، وإلى مرحلة نشوء فحص الضمير في نهاية الألفيّة، الذي اقترحه في الرسالة "في حلول الألفيّة الثالثة" (تشرين الثاني 1994)، في حين أنّ رسالته "كرامة المرأة"، التي تعود إلى عام 1988، لا تحتوي أيّ إقرارٍ صريحٍ بالخطيئة، ولكنّها تقترح، منذ ذلك الحين، مراجعةً على مستوى العقيدة والسلوك.

إنّه يصحّح القديس بولس:

إنّ البابا يوحنا بولس الثاني، في بعض فقرات رسالته "كرامة المرأة" (1988)، ينتهي به الحال إلى تصحيح القديس بولس (الأمر الذي لم يفعله أيّ بابا قبله)، والتاريخ الكنسي كلّه، بشأن الرجل بوصفه "رأساً للمرأة"، وبشأن خطيئة حواء. يقول:

« على نحوٍ ما، فإنّ وصف الكتاب المقدّس للخطيئة الأصليّة في سفر التكوين (فصل 3) "يوزّع الأدوار" التي قام بها المرأة والرجل. فيما بعد، سيُحيل إليها أيضاً بعض مقاطع الكتاب المقدس؛ من ذلك، مثلاً، رسالة القديس بولس إلى تيموثاوس: "هو آدم الذي كُوِّن أولاً، ثمّ حواء. وليس آدم هو الذي سقط في الإغواء، بل حواء". (1 تيمو 2 :13–14) ولكن، ممّا لا شك فيه، وبعيداً عن "توزيع الأدوار" هذا، كما وصفه الكتاب المقدس، فإنّ الخطيئة الأولى هي خطيئة الكائن البشري، وقد خلقه الله

رجلاً وامرأةً. إنّها أيضاً خطيئة "الأهل الأوّلين"، التي يرتبط بها طابعها الوراثي. بهذا المعنى، نسمّيها "الخطيئة الأصليّة". [...]

إنّ واضع الرسالة إلى مسيحيّي أفسس، لا يرى أيّ تناقضٍ بين تحريضٍ صيغَ بهذا التعبير، والملاحظة بأنّه "على النساء أن يخضعن لأزواجهنّ، كما للربّ، ذلك بأن الزوج هو الرأس" (راجع أفسس 5: 22-23). والمؤلف يعرف أنّ هذا الموقف، الراسخ عميقاً في العادات والتقليد الديني آنذاك، يجب أن يُفهم ويُعاش بطريقة جديدة، على أنه "خضوع متبادل في مخافة المسيح" (راجع أفسس 5: 21). [...] بالنسبة إلى "القديم"، ههنا، بالطبع، "جِدّة": إنها جِدّة الإنجيل. وتصادِفنا نصوص كثيرة تعبّر فيها كتابات الرسل عن هذه الجِدّة، حتى لو فُهم فيها أيضاً ما هو "قديم"، ما هو منغرس في تقليد إسرائيل الديني. [...]

أن نَعي أنّ في الزواج تقوم "طاعة الزوجين المتبادلة في مخافة المسيح"، وليس فقط طاعة المرأة لزوجها، فهذا أمر يجب أن يتسرّب إلى القلوب والضمائر، والسلوكات والعادات. إنّه نداء لا يَني يضغط منذ ذلك الحين، على الأجيال المتعاقبة، وهو نداء يجب على الرجال أن يتقبّلوه من جديد دون انقطاع. [...]

إنَّ جميع التبريرات في "خضوع" المرأة للرجل في الزواج، يجب أن تفسَّر بمعنى "خضوع متبادل" الواحد للآخر، "في مخافة المسيح". » (رسالته: "كرامة المرأة"، أيلول 1988/9/24).

إنّ الجرأة في إعادة التفسير هذه للقديس بولس - وقد رحّبت بها الحركات النسائيّة - كان قد طالب بها لاهوتيّون يؤيّدون هذه الحركات. إليكم، مثلاً، العبارات التي صيغ بها هذا المطلب، في الرابع من الموضوعات الستة عشر التي طرحها اللاهوتي السويسري "هانس كونغ"

(Hans KŰNG)[1] في كتابه "المرأة في الكنيسة" (عام 1976)، [أي قبل رسالة البابا باثني عشر عاماً]. جاء فيه:

« في بعض الأسفار اللاحقة من العهد الجديد، يصادفنا من جديد، هذا المكان المتدنّي الذي للمرأة، ولكن ذلك يجسّد تفسيره جزئياً بكامل السياق الاجتماعي والثقافي، ويجب أن نكون في غاية الحذر، عندما نحاول أن نُسقطه على الحاضر. » (13) (وهذا بالضبط ما فعله البابا يوحنا بولس الثاني).

إنه يُبدي أسفه:

إنّ أوّل اعترافٍ صريحٍ بمسؤوليّة تاريخيّة للكنيسة حيال المرأة، حدث في ربيع عام 1995:

« إنّ المساواة بين الرجل والمرأة أُعلنت منذ الصفحات الأولى من الكتاب المقدس، في رواية الخلق الرائعة. [...] هذه الرسالة الكتابية الأصيلة، وجدت كامل تفسيرها في كلمات يسوع وأفعاله. ففي زمانه، كان يُثقل النساء إرث عقلية، كان يمارس بحقّهنّ تمييزاً عميقاً. إنّ موقف الرب هو احتجاج منطقي ضدّ ما يهين كرامة المرأة. [...] والكنيسة، في خُطى مؤسّسها الإلهي، تحمل بدورها، بإيمان، هذه الرسالة. وإنْ حدث أحياناً، خلال القرون، وتحت ثقل العصر، لبعض أبنائها ألاّ يُتقنوا حمل هذه الرسالة بالقناعة نفسها، فإنّ ذلك لأمرٌ يدعو للأسف الشديد. ولكن رسالة الإنجيل بشأن المرأة، لم تفقد شيئاً من راهنيّتها. » (صلاة ظهر الأحد، 1995/6/10).

إنّ البابا يوحنا بولس الثاني يكشف لنا عن شخصية حقّاً مدهشةً. فقُبيل ثلاث سنوات على الاعتذارات التي قدّمها للنساء، وُضعت كلماتٌ مماثلةٌ في فمِ بابا مستقبلي خيالي، في كتابٍ صغيرٍ وضعَه مجهولٌ اسباني،

[1] هو لاهوتي سويسري، وُلِد عام 1928، وقد درّس في جامعة توبنغن بألمانيا. ومنذ ذلك الحين، منعته الكنيسة الكاثوليكية من التدريس. (الناشر)

يحمل عنوان: "الكتابات الحميميّة للبابا يوحنا بولس الثالث". فإنّ هذا البابا المستقبلي دعا لمجمع مسكوني في مكسيكو، وأعلن عن استقالته في بدء جلسة الافتتاح، وصرّح، في جملة تصريحاته "الطوباويّة":

« إنّ صوتي يسألكنّ الغفران، يا نساء الأرض كلّها، بسبب الوحشيّة، وانعدام التفهّم، والاحتقار والعنف وأشكال التمييز، التي مارسناها، طوال قرون، وحتى أيامنا، ضدّكنّ، أنتنّ الأمهات، والزوجات، والبنات، والأخوات والمعاونات الأليفات. » (14)

إنّ أسف البابا هذا، الذي طُرح بوصفه "حلماً" عام 1994، ترافق بإقرار بالخطايا يماثله بالكلّية، صاغه رئيس جمعية الآباء اليسوعيّين. ففي ربيع عام 1995، وافق المؤتمر العام والرابع والثلاثون لجمعيّة الآباء اليسوعيّين، على وثيقة بشأن المرأة، يُقرّ فيها اليسوعيّون، بوصفهم رجالاً، وبوصفهم رجال كنيسة، أنّهم "أهانوا" النساء: "رداً على مثل هذه المسؤوليّات، نحن اليسوعيّين، نطلب من الله، أوّلاً نعمة الاهتداء. لقد شاركنا في تقليدٍ مدنيّ وكنسيّ أهان النساء. وكما هي حال الكثيرين من الرجال، نميل إلى الاعتقاد بأنّ هذه المسألة غير قائمةٍ. حتى لو لم نشأ ذلك، كثيراً ما كنّا متواطئين مع شكل من الهيمنة الإكليريكيّة التي ساندت سيطرة الرجل، إذ دمغتها بخاتم التأييد الإلهي. وإنّنا، إذ نعترف بذلك، نريد أن نُبدي ردّ فعلنا على الصعيدين، الشخصي والجماعي، ونعلن تصميمنا على بذل كل ما بوسعنا، لنغيّر هذا الوضع غير المقبول". (15)

يشعر بالأسى:

هذا الأسف، يعبّر عنه البابا بعبارات الأسى في "رسالته إلى النساء"، التي نُشرت بعد ذلك بقليل:

« شكراً لك أيّتها المرأة، لمجرّد كونك امرأة! إنّك، بفضل إحساسك الخاص بأنوثتك، تُغنين إدراك العالم، وتساهمين في ملء حقيقة العلاقات الإنسانية.

ولكنّي أعرف أنّ الشكر ليس بكاف. لقد ورثنا – للأسف – تاريخاً زاخراً بتشريطات قاهرة، جعلت، في كلّ زمانٍ وكلّ مكان، طريق المرأة صعباً، شوّهت كرامتها، مسخَت تطلّعاتها، وكثيراً ما همّشتها، بل فرضت عليها العبودية. [...] ولكن، إن كان، في هذا الميدان، لا يسعنا أن ننكر، لا سيما في بعض الظروف التاريخيّة، المسؤوليّة الموضوعيّة للعديد من أبناء الكنيسة، فإنّي أُعرب بصدقٍ عن أسفي. ليت هذا الأسف يُترجَم، بالنسبة إلى الكنيسة كلّها، في مجهودٍ من الأمانة المتجددة لوحي الإنجيل، الذي يحتوي، بالتحديد حول موضوع تحرير المرأة من جميع أشكال الظلم والسيطرة، رسالة ذات راهنيّة دائمة، مستمدّة من موقف المسيح بالذات. فهو، إذ تخطّى القواعد السائدة في ثقافة زمانه، تبنّى حيال المرأة، موقفاً يتّسم بالانفتاح والاحترام والاستقبال والحنان. فكان بذلك يكرّم في المرأة، الكرامة التي كانت دائماً لها في مخطط الله وحبّه. ونحن، إذ نلتفت نحوه في نهاية الألفيّة الثانية هذه، نتساءل تلقائيّاً ما المدى الذي قُبلت فيه رسالته، وطُبّقت عملياً. أجل، آن الأوان كي ننظر بشجاعة الذاكرة والاعتراف الصادق بالمسؤوليّات، تاريخ البشرية الطويل الذي قدّمتْ فيه النساء مساهمة ليست دون مساهمة الرجال، وفي الغالب ضمن ظروف أشدّ قسوة بكثير. [...] يترتّب على البشرية دَين لا حدود له، حيال هذا "التقليد" النسائي، العظيم والضخم. لَكَم من امرأة قُيّمت وتقيَّم حتى اليوم، وفقَ مظهرها الجسدي، أكثر منها وفق كفاءتها، وقيمتها المهنيّة، ونشاطها الفكري، وغنى حساسيّتها، وباختصار، وفقَ كرامة كيانها بالذات!» ("رسالة إلى النساء"، 1995/6/29)

إبّان صدور "كرامة المرأة" (1988)، ارتفعت انتقادات من جوانب كثيرة: "ثمّة نقص في كلمات النقد الذاتي والاعتراف، وهذا هو ما يميّز الوثائق الكاثوليكيّة الرسميّة"، أو أيضاً: "إنّ البابا يوجّه الشكر، ولكنّه ينسى

طلب الغفران". (16) وبفضل البابا يوحنا بولس الثاني، لم يعُد يوجد اليوم مَن يستطيع أن يقول إن غياب النقد الذاتي هو "صفة ملازمة" للوثائق الكاثوليكيّة. ومنذ تلك الانتقادات، مضى أقلّ من عشر سنوات.

إعادة كتابة التاريخ بطريقة غير أحادية الجانب:

كما في الميدان المسكوني (سنتحدّث عنه في الفصل الخاص بالانشقاق الشرقي)، فإنّ الإقرار بالمسؤوليّات التاريخيّة حيال المرأة، يُفضي إلى ضرورة إعادة كتابة التاريخ:

« في الرسالة التي سلّمتها في 26 أيار الماضي، إلى السيدة "غيرترود مونجيلا" (Gertrude MONGELLA)، كنت ألفت الانتباه إلى أن تقديراً أفضل لرسالة المرأة في المجتمع، يُلزمنا بإعادة كتابة التاريخ بطريقة غير أحاديّة الجانب. من المؤسف، أنّ نمطاً من كتابة التاريخ، أَوْلى الأحداث الخارقة والصارخة، اهتماماً أكبر من اهتمامه بإيقاع الحياة اليوميّة، فنجم عن ذلك تاريخ يكاد يكون تقريباً عملاً خاصّاً بالرجال حصراً. يجب أن نعكس هذا التوجّه، فثمّة كثير نقوله ونكتبه، بشأن الدَّين الهائل الذي ترتّب على الرجل حيال المرأة، في جميع ميادين التقدم الاجتماعي والثقافي. أودّ، رغبةً في المساهمة بردم هذه الثغرات، أن أكرّم، باسم الكنيسة، المساهمة المتعددة، الواسعة، على ما يلازمها غالباً من كتمان، للمرأة، في جميع ميادين الوجود الإنساني. » (صلاة ظهر الأحد، 30/7/1995)

تشجيع مشاركة النساء:

إنّ النصّ التالي يكشف عن جِدّة وحدود موقف البابا يوحنا بولس الثاني، حيال النساء. فهو يُقّر بأنّه من الضروري التأكيد على إعلاء شأنهنّ، ويعترف إذن بأنّ الوضع القائم ليس لصالحهنّ، ولكنّه لا يشعر بالحاجة لمعالجة ذلك بإصلاحات، وحسبُه المطالبة بالاستخدام التام "للمساحات الواسعة" المتاحة الآن:

« أدعو اليوم جميع الجماعة الكنسيّة، كي تشجّع بكلّ الوسائط مشاركة النساء في داخلها. [...] إنّ الكنيسة تشعر بالحاجة الملحّة إلى إعلاء شأنهنّ. [...] إنّ سينودس عام 1987 حول العلمانيّين، كان – بحقّ – لسانَ حال هذا التطلّع، إذ طالب بأن تشارك النساء في حياة الكنيسة، دون أيّ تمييز، بما في ذلك مستوى الاستشارات وإعداد القرارات" (اقتراح 47. راجع رسالة "العلمانيّون المؤمنون بالمسيح"، 51).

"ذلك هو الطريق الذي يجب أن نسلكه بشجاعة. وهذا يعني، على نحوٍ كبير، أن نستثمر استثماراً كاملاً المساحات الواسعة، التي يجيزها قانون الكنيسة للحضور الشخصي، العلماني والأنثوي: أفكّر، مثلاً، في تعليم اللاهوت، في الأشكال المُتاحة للخدمة الطقسيّة، بما فيها خدمة الهيكل، في اللجان الرعويّة والإداريّة، في المجامع الأبرشيّة والمجامع الخاصّة، في مختلف المؤسّسات الكنسيّة، في الإدارات الرومانيّة، وفي المحاكم الكنسيّة، في كثيرٍ من النشاطات الرعويّة، وحتى في الأشكال الجديدة من المشاركة في حياة الرعايا، في حال الافتقار إلى أعداد كافية من الكهنة، باستثناء الخدمات الكهنوتيّة المحدّدة حصراً. مَن يستطيع أن يتصوّر المكاسب الكبيرة، التي ستنجم عن ذلك للتعليم الرعوي، وأيّ جمالٍ جديدٍ سيكسبه وجهُ الكنيسة، عندما تكون عبقريّة المرأة قد وجدت استثمارها الكامل في ميادين الحياة المختلفة؟ » (صلاة ظهر الأحد 1995/9/3).

عندما تكون المرأة أختاً:

إنّ النصّ الأخير يؤكد أنّ قبول المرأة الكامل في الكنيسة، يُسهم في تحريرها من "رؤاها الأحاديّة الجانب". ويتجلّى النقد الذاتي هنا في المفردات المستخدمة:

« يليق بنا أيضاً أن نلاحظ أنّ الوعي الجديد الذي اكتسبته النساء

عن ذواتهنّ، يساعد الرجال أيضاً على مراجعة تصوّراتهم الذهنيّة، وطريقة فهمهم لأنفسهم، في تحديد موقعهم في التاريخ وفي تفسيره، وفي تنظيم الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والكنسيّة. [...] تستطيع المرأة المكرّسة، انطلاقاً من خبرتها الكنسيّة، وحياتها كامرأة في الكنيسة، أن تُسهم في إزالة بعض المفاهيم الأحاديّة، التي تعرقل الإقرار الكامل بكرامتها، وبإسهامها الخاص في حياة الكنيسة، وفي عملها الرعوي والرسولي. ولذلك، فإنّه من حقّ المرأة المكرّسة أن تتطلّع إلى الحصول على إقرارٍ أوضح بهويتها، وكفاءتها، ورسالتها، ومسؤوليّتها، في الوعي الكنسي، وفي الحياة اليوميّة، سواء بسواء. [...] من الملحّ إذن أن نخطو خطواتٍ عمليّة، فنبدأ بأن نفتح أمام النساء، مساحاتٍ من المشاركة في مختلف القطاعات، وعلى جميع المستويات، بما في ذلك مسارات إعداد القرارات، خصوصاً في ما يَعنيهنّ » (تحريض رسولي "الحياة المكرّسة"، آذار 1996).

الفصل الخامس

اليهـود

بشأن اليهود، كثيراً ما تكلّم البابا يوحنا بولس الثاني، وقد قال المزيد أيضاً بمبادراته، إلاّ أنّه لم يتوصّل قطّ إلى طلبٍ حقيقيّ للغفران. ولكن هذه الخطوة تبدو وشيكة.

لقد دعا اليهودَ "إخوتنا الكبار". زار كنيس روما. وقاد، بنجاح، اعتراف دولة إسرائيل من قبل الفاتيكان.

وقد اعترف أيضاً، في مناسباتٍ كثيرة، بالمسؤوليّات التاريخيّة للكنيسة، في اضطهاد اليهود. وفي كلمته في كنيس روما، "أسِف"، كما سنرى، للإجراءات العنصريّة ضدّ اليهود، التي تحمّل مسؤولياتها البابوات الذين سبقوه. وقد أجاز أيضاً، كما سنرى، صلاةً في كنيسة القديس بطرس، طلب فيها الغفران من الله، بسبب لا مبالاة المسيحيّين حيال المحرقة.

ولكنه لم يتقدّم قطّ بأيّ طلب غفرانٍ، صريحٍ ومباشرٍ. كذلك كان أيضاً موقف المجمع الفاتيكاني الثاني. مع أنّ هذا الطلب كان موضوع إيعازٍ ومطالبة، مرّاتٍ كثيرة. وإنّ الوثائق المتوفّرة في هذا الفصل، تُظهر أنّ هذا العمل بات وشيكاً: كلّ شيء يشير إلى أنّه يعود للبابا يوحنا بولس الثاني أن يُنجزه، بوصفه حقّاً، ثم بوصفه واجباً.

إلى الإخوة الكبار:

إبّان زيارته إلى كنيس روما، في شهر نيسان 1986، أسِف يوحنا بولس الثاني، وهو يستشهد بالمجمع الفاتيكاني الثاني، لجميع مظاهر اللاسامية، "أيّاً كان مرتكبوها"، وقد كرّر "أيّاً كان مرتكبوها": وهذا التكرار، الذي لم يكن وارداً في النص الذي كان قد أعدّه، والذي تُلي بلهجةٍ حازمةٍ، يجب أن يفسَّر على أنّه تلميحٌ إلى مسؤوليّات البابوات:

« إنّ هذا اللقاء يَختَتم، بطريقة ما، بعد بابويّة يوحنا الثالث والعشرين، والمجمع الڤاتيكاني الثاني، حقبةً طويلةً، لا يجوز التوقّف عن التفكّر فيها، كي تُستخلص منها العبر الملائمة. بالتأكيد، لا نستطيع، ولا يجب أن ننسى، أنّ ظروف الماضي التاريخيّة، كانت مختلفةً جدّاً عن الظروف التي أفضتْ إلى نضجٍ عسيرٍ خلالَ قرون. لقد بلغْنا، عبر مصاعب كبيرة، قَبولاً مشتركاً لتعدّدية مشروعة، على الصعيد الاجتماعي والمدني والديني. إنّ الأخذ بالاعتبار، للتشريطات الثقافية التي امتدّت قروناً، لا يجب لها أن تَحول دون الاعتراف بأنّ أعمال التمييز، والتحديد غير المبرَّر للحريّة المدنيّة، حيال اليهود، كانت، موضوعيّاً، تظاهرات مؤسفةً بامتياز. أجل، مرة أخرى، فالكنيسة، بواسطتي، وعبر كلمات الإعلان المعروف جدّاً "في عصرنا" (رقم 4) تأسف للأحقاد، والاضطهادات، ولجميع أشكال اللاسامية، التي، أيّاً كان زمانها ومرتكبوها، وُجِّهت ضد اليهود. أكرّر: أيّاً كان مرتكبوها.

أودّ، مرّةً أخرى، أن أعبّر عن هلعي للإبادة العرقيّة التي قُرّرت خلال الحرب الأخيرة، ضدّ الشعب اليهودي، والتي قادت إلى المحرقة، ملايين من الضحايا الأبرياء. [...] وإنّ الجماعة اليهوديّة في روما، قد دفعت، هي أيضاً، ضريبةً ثقيلةً من دمائها.

ولقد كانت بالتأكيد مبادرةً ذات دلالة، في تلك السنوات القاتمة من الاضطهاد العرقي، أن تكون أبواب أديرَتنا وكنائسنا والإكليريكيّة في روما، وبعض أبنية الكرسي الرسولي، وحتى حاضرة الڤاتيكان، قد فُتحت على مصاريعها، لتوفّر اللجوء والخلاص للعديد من اليهود في روما، الذين كان المضطهدون يتعقّبونهم.

أريد لزيارتي اليوم، أن تكون مساهمة حاسمة في تدعيم العلاقات الطيبة بين جماعتَينا، واقتداءً بالأمثلة التي قدّمها العديد من الرجال والنساء، الذين

حاولوا ويحاولون اليوم، من هذا الطرف وذاك، أن يتخطّوا الأحكام المسبقة القديمة، ليُفسحوا المجال للاعتراف المتجذّر في الأعماق، بهذه "الرابطة" وبهذا "التراث المشترك"، القائمَين بين اليهود والمسيحيّين.

إنّنا أمام الأمنية السابقة، كما وردت في الفقرة الرابعة، التي ذكرتُها للتوّ، للإعلان المجمعي "في عصرنا"، بشأن العلاقات بين الكنيسة والديانات غير المسيحيّة. مع هذه الفقرة الوجيزة، ولكن المكثّفة، برز منعطف حاسم في العلاقات بين الكنيسة واليهوديّة، وجميع اليهود فرداً فرداً » (زيارة البابا لكنيس روما في 1986/4/13).

كيف يسعنا ألاّ نكون إلى جانبكم؟

بعد انقضاء خمسين سنة على أيّام "المحرقة"، أطلّ البابا يوحنا بولس الثاني على باحة القديس بطرس، ليذكّر بتلك "الحقبة السوداء من التاريخ"، ويؤكّد لليهود أنّهم ليسوا وحدهم مَن يعانون من أسى هذه الذكرى. وإنّ الفكرة الكامنة في هذه الحقبة، والقائلة بأنّ المسيحيّين تخلّوا عن اليهود، إزاء هذه "الأحداث الرهيبة"، فكرة ماثلة وفاعلة بقوّة:

« إنّ فرح هذا اليوم لا يحقّ له أن يَحول دون التفاتنا بيقظة نحو حدث، مثقل بألمٍ غير إنسانيّ، جرى منذ خمسين عاماً: إنّه تمرّد "غيتو فرسوفيا". وينتابني شعورٌ قوي بالحاجة إلى تحيّة جميع المسيحيّين واليهود، الذين قدِموا اليوم إلى هذه الساحة، ليُحيوا ذكرى هذه الحادثة والجرائم التي ارتُكبت ضد الشعب اليهودي، خلال الحرب العالمية الأخيرة.

في تضامن عميق مع هذا الشعب، وفي اتحاد مع جماعة الكاثوليك بكاملها، أودّ أن أحيي ذكرى هذه الأحداث الرهيبة، وهي اليوم بعيدة، ولكنّها محفورة في ذاكرة الكثيرين منّا: إنّ أيّام "المحرقة" كانت، بحقّ، ليلة من ليالي التاريخ، سُجّلت فيها جرائم لا تطاق، ضد الله وضد الإنسان.

كيف يسعُنا ألاّ نقف إلى جانبكم، يا إخوتنا اليهود الأحبّاء جدّاً،

كي نُحيي في الصلاة والتأمّل ذكرى سنويّة، على هذا القدر من الألم؟ كونوا واثقين أنّكم لستم وحدكم مَن يحمل أسى هذه الذكرى. نحن نصلّي ونسهر معكم، تحت نظر الله، القدوس والعادل، الغني بالرحمة والغفران. » (ساحة القديس بطرس، 1993/4/18).

ألمٌ بسبب اللامبالاة في الماضي:

في هذه الكلمات التي تعود إلى صيف 1987، نجد تعبيراً للبابا هو أكثر تعابيره انفتاحاً على التوبة، حيال الاضطهادات الماضية:

« لا يُخامرنا أيّ شكّ في أنّ الآلام التي تحمّلها اليهود، هي أيضاً بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، مدعاةٌ لألمٍ صادق، لا سيّما إذا ما فكّرنا في اللامبالاة، وأحياناً في النقمة التي فرّقت بين اليهود والمسيحيّين، في هذه الظروف التاريخية الخاصة. أجل، إنّ ذلك يُثير فينا تصميماً أكثر حزماً، على التعاون من أجل العدالة والسلام الحقيقي. » (رسالة إلى رئيس المؤتمر الأسقفي في الولايات المتحدة الأميركية، 1987/8/19)

بعد تسع سنوات، استعاد البابا، في نص آخر، هذا الاعتراف بالخطايا، دون أن يتخطّاه:

« إنّ الإعلان "في زماننا" يولي انتباهاً خاصّاً لإخوتنا اليهود، الذين نشترك وإيّاهم في علاقة ذات خصوصيّة حميمة. وفي الواقع، فإنّ الإيمان المسيحي يستمدّ أصله من الخبرة الدينيّة للشعب العبري، الذي ينتمي إليه المسيح بالجسد. والكنيسة، إذ تشترك مع اليهود في هذا القسم من الكتاب المقدس، المعروف باسم العهد القديم، تُواصل الاعتماد في حياتها على هذا الإرث بالذات من الحقيقة، وهي تُعيد قراءته في ضوء المسيح. فإنّ الأزمنة الجديدة التي بدأها، بفضل العهد الجديد والأبدي الذي ختمَه، لا تُلغي الجذور القديمة، ولكنها توفّر لها خصباً كونيّاً. وبسبب كلّ ذلك، لا يسعنا إلاّ أن نشعر بألمٍ عميق، إذا تذكّرنا النزاعات التي طالما رافقت العلاقات بين المسيحيّين واليهود. » (صلاة ظهر الأحد 1996/1/14).

السلبيّة إزاء المحرقة:

من الثابت أنّ المسيحيّين كانوا مسؤولين أو شاركوا في المسؤوليّة عن اضطهادات الماضي. ولكن ما يعود لهم من مسؤوليّة حيال المحرقة النازيّة، أكثر عرضة للنقاش. على كل حال، في هذه الحالة، ارتكبوا بالتأكيد خطأ التزام السلبيّة، وقد اعترف البابا بذلك في أحد النصوص؛ وهو عبارة عن صلاة في احتفالٍ مسكوني، أُقيم في كنيسة القديس بطرس في روما، في ختام السينودس الأوربي عام 1991. كما طلب فيها الغفران بسبب سلبيّة المسيحيّين إزاء المحرقة، وقد تكون أكثر نصوص البابا يوحنا بولس الثاني صراحة بهذا الشأن:

« أيّها الرب، يا محرّرنا، إنّنا في جماعاتنا المسيحيّة الأوربيّة، لم نحترم دائماً وصيّتك، ولكنّنا، وقد اعتمدنا على قوانا البشريّة وحدها، تواصَلنا مع المنطق الدنيوي لحروبنا الدينيّة، ومع صراعاتنا القائمة على الاقتتال بين المسيحيّين، ومع سلبيّتنا حيال الاضطهادات التي حلّت باليهود ومحرقتهم، ومع تحاملنا على العديد العديد من الناس المستقيمين. فاغفرْ لنا، وأشفقْ علينا. » (كنيسة القديس بطرس في روما، 1991/12/7. احتفال مسكوني في ختام السينودس الأوربي).

أن يكون الوقت قد حان لطلب الغفران من اليهود، أمر شدّدت عليه، مرّاتٍ كثيرة، أصوات مسؤولة، أوّلها وأبرزها صوت الكردينال "بيا" (BEA)، الذي عبّر عن ذلك، في محاضرة ألقاها في شهر كانون الثاني عام 1964:

« ربّما يتوجّب علينا هنا أن نعترف بخطايا كثيرة، بعضها ارتكبتها الكنيسة بالذات. أنتم تعرفون ما قال البابا بولس السادس بشأن انقسام المسيحيّين: "إن كان ثمّة خطأ ما، يمكنه أن يُنسب إلينا في أصل هذا الانفصال، فنحن نطلب بسببه الغفران من الله في اتّضاع، وكذلك من

إخوتنا الذين يرَون أنّنا أهنّاهم". وقد أحدثت هذه الكلمات تأثيراً قويّاً في البروتستانت. ولكنّ ذلك يصِحّ أيضاً في اليهود. فإنّ الكنيسة، وأبناء الكنيسة بصورةٍ خاصة، ارتكبوا مظالم بحقّ الشعب اليهودي. ويسعُنا الإقرار بذلك، دون أن نسيء إلى الحقيقة. » (18)

وبعد مرور عشرين عاماً، خلال سينودس عام 1985، بيّن الكردينال الهولندي "يوهانس فيلبراندز"، بقوّة مأساويّة نادرة، حالة الوضع حول "العلاقات الجديدة" بين الكاثوليك واليهود، التي بدأها المجمع ("لقد طالب بتغييرٍ جذري: كان ذلك أشبه بمعجزة"). واعترف الكردينال "فيلبراندز"، بأسف، بأنّ عقدين من الزمن لا يكفيان "لتخطّي الجهل المتبادل، والشكّ الاجتماعي والديني، اللذين تراكما طوال قرون". ثمّ إنّه بالغ في النقد الذاتي ورسم ما يشبه طلب الغفران:

« في عِداد المضطهِدين، يوجد أيضاً مسيحيّون، وبعضهم كان أحياناً يظنّ أنّ عمله هذا له أسبابه الدينيّة. » (19)

هذا الكردينال الشجاع، سُئل خلال مؤتمرٍ صحفي، لماذا لمْ يطلب المجمع الغفران من اليهود، بسبب سلوك الكنيسة الماضي حيالهم. فأجاب بنزاهة، مشيراً إلى ضرورة مثل هذا الطلب، الذي لم ينضج بعد:

« إنّ الإعلان عن التوبة لا معنى له، إلاّ في مناخ من الثقة المتبادلة بين المسيحيّين واليهود. لقد أفسحنا المجال لمزيد من الثقة بيننا وبين اليهود، ولكن ما زال هناك فرط من الشكّ، كي يُتاح لمبادرة من هذا القبيل، أن تنال حظاً من الطرح والقبول. » (20)

وكان الكردينال "فيلبراندز"، خليفة الكردينال "بيا"، مقاتلاً مِقداماً على جميع جبهات الحركة المسكونيّة: بشأن لوثر، واليهود، والكنيسة

الروسيّة الأرثوذكسية. ولكن خلفه الحالي، الكردينال "إدوارد كاسيدي" (Edward CASSIDY)، ليس دونه شجاعة. وقد أكّد هو أيضاً (في مناسبة رسمية: يوم 1990/9/6، في براغ، في ختام لقاء للجنة العالمية للاتصال بين الكاثوليك واليهود) أن الهدف من التفكير الكاثوليكي في أمر العلاقات مع اليهودية، هو التوصّل إلى طلب الغفران:

« أن تكون اللاسامية قد تكوّنت في الضمير والممارسة المسيحيّين، أمر يستدعي فعل توبة واهتداء ومصالحة. » (21)

واليوم، في الفاتيكان، تبنّى الكردينال "إتشيغاراي" (Etchégaray) موقفاً قريباً من موقف الكردينالَين "فيلبراندز" و"كاسيدي". لم يكن بعدُ عضواً في دوائر الإدارة الرومانية، عندما تلفّظ، بوصفه رئيس أساقفة مرسيليا، بأكثر الكلمات التزاماً بشأن اليهود. وكان ذلك يعني اقتراحاً صريحاً لطلب الغفران، في سينودس عام 1983 بشأن التوبة. وقد أنهى مداخلته بطلب الغفران من المجتمعين، "للجرأة" التي صاغ فيها المسألة اليهودية:

« طالما ظلّت اليهودية خارج تاريخنا الخلاصي، سنظلّ تحت رحمة منعكسات لاسامية. [...] وبعد أن نكون حدّدنا المدى الذي يجب أن تبلغه مهمّتنا، في المصالحة مع الشعب اليهودي، يجب علينا أيضاً أن نتعهّد، بجدّيّة، بمهمّتنا في التوبة والتكفير، عن موقفنا حياله الذي استطال قروناً [...] علينا أن نُتقن طلب الغفران من الربّ ومن إخوتنا. [...] علينا أن نبذل كلّ ما بوسعنا، كي نعوّض عمّا يجب التعويض عنه. » (22)

هذه الكلمات، تلفّظ بها الكردينال "إتشيغاراي" عام 1983. فاستُدعي بعد ذلك بسبعة أشهر، إلى الإدارة الرومانيّة. وبعد ذلك بعشر سنوات، كُلّف بترؤّس اللجنة من أجل اليوبيل الكبير: يطيب لي أن أرى أنّ الثقة

التي أولاه إيّاها البابا، تعود أيضاً إلى هذه الأقوال[1].

والأساقفة الإسبان، من جهتهم، تلفّظوا بأقوال تشبه إلى حد كبير طلباً للغفران من اليهود. وقد نشرت صحيفة الفاتيكان "المراقب الروماني"، تحت عنوان "إعلان المطران توريلا كاستانته (Torella CASTANTE)"، في مؤتمر الحاخامين الأميركيين في "طليطلة"، خلال شهر آذار عام 1992، نصّاً لرئيس أساقفة تاراغونيه (الذي كان يرأس آنذاك لجنة الأساقفة الإسبان من أجل العلاقات الدينيّة، والذي كان، حتى عام 1983، الشخصيّة الثانية في المجلس المسكوني في الفاتيكان)، قد قرأه يوم 3/26 في هذا المؤتمر: "ما من شكّ أن ما فعله المسيحيّون مع يهود ومسلمي إسبانيا عام 1492، هو على النقيض تماماً ممّا كان يجب أن يُفعل، وفقاً لمبادئ إيماننا المسيحي. كان الناس، عندها، يفكّرون تفكيراً مُغايراً. ليس لنا أن ندين، ولكن يمكننا - ويجب علينا - أن نأسف لما جرى. عام 1492 كان عام اضطهادات ونبذ وطرد وتنصير قسري، ونفي وموت. أن يكون العام نفسه بداية المغامرة الكبرى، التي عرفتها الأزمنة الحديثة، وانفتاح أوربا على القارة الأميركية، فهذه أمور لا تبدّل شيئاً يُذكر في اللوحة. على العكس من ذلك، فهي تُضاعف آلامه: فإنّ الرجال عينهم والنساء عينهنّ، هم الذين أقدموا، أقلّه جزئيّاً، على الأمرين".

اتّسم النقد الذاتي بشأن المحرقة، لدى الأوساط البروتستانتيّة، بشجاعةٍ فاقت ما كانت عليه لدى الكاثوليك. وفي جملة الوثائق الكثيرة التي ذكرناها، الصادرة عن الفاتيكان أو عن الأساقفة، لم نجد اعترافاً بالخطايا، بمثل شجاعة ووضوح الاعتراف المأخوذ من تصريح سينودس الكنيسة الإنجيليّة الألمانيّة، الذي نُشر في شهر كانون الثاني عام 1980،

---

[1] راجع في الملحق "إعلان التكفير" لأساقفة فرنسا بتاريخ 1997/9/30. في هذا اليوم، أرسل الكردينال أتشيغاراي رسالة إلى المسيحيين واليهود، المجتمعين في درانسي (DRANCY) بالقرب من باريس.

تحت عنوان "نحو تجديد العلاقات بين المسيحيّين واليهود": "نعترف أنّنا، نحن أيضاً، بوصفنا مسيحيّين ألمان، مسؤولون ومشتركون في مسؤوليّة وجريمة المحرقة". (24)

ما من فصل آخر، حتى ولا الفصل الخاص بغاليليو، جمَع من الوثائق ما جمَعته المراجعة التاريخية بشأن الفصل الخاص باليهود، ومع ذلك فلم نبلغ الخاتمة. فإنّ ضخامة المسألة والتأخر الملازم لطلب الغفران، سيفرضان بالتأكيد عملاً ذا أهمية بالغة[1].

[1] في الوقت الذي كان الكتاب الحالي قيد الطبع، لا نعرف بعدُ ما إذا كان النشر القريب لوثيقة (أُعلن عنها منذ عام 1987) بشأن مسؤوليات المسيحيين في زمن المحرقة، سيثُبّت خلال المؤتمر حول "المسيحية واللاسامية"، الذي سيُعقد في روما من 10/30 إلى 1997/11/2. هذا المؤتمر، الذي كُلّف بتنظيمه الأب "جورج كوتييه"، بطلب من البابا، سيضمّ كرادلة ولاهوتيين ومؤرّخين وخبراء من العالم أجمع، وقد يساهم في صياغة الوثيقة المنتظرة. (الناشر)

الفصل السادس

غاليليو

إنّ قضيّة غاليليو قضيّة أساسيّة: فقد كانت في أصل الصدامات بين الكنيسة والحداثة، وكانت إعادة النظر فيها بداية التفكير الذي قاد إلى فحص الضمير في نهاية الألفيّة. ولنذكّر بالنصوص الأساسيّة الثلاثة في إعادة الفحص هذه: إنّه النصّ الذي يطلب فيه البابا إعادة هذا الفحص، في تشرين الثاني عام 1979، بعد انتخابه بعامٍ واحدٍ. ثمّ هناك نصّ الكردينال "بوبار"، الذي يختصر فيه النتائج، بعد ثلاثة عشر عاماً، وقد أوضح فيه الأخطاء التي أقرّت بها الكنيسة. أخيراً، هو نصّ البابا الذي، في ردّه على الكردينال " بوبار"، يمضي قُدماً ويطبّق عِبرة هذه القضيّة على أخطار جديدة محتملة، في العلاقة بين الإيمان والعلم.

ليُصرّ إلى إعادة فحص المسألة:

يعلن البابا إعادة فحص قضيّة غاليليو، وهو يُحيي ذكرى "ألبير أينشتاين" (Albert EINSTEIN)، في لقاء له مع الأكاديميّة البابويّة للعلوم، في تشرين الثاني عام 1979. فإنّ أيّاً من الاعترافات بالأخطاء، المجموعة في هذا الكتاب، لم يسبق هذا التاريخ. وكان المجمع الڤاتيكاني الثاني قد اهتمّ بقضيّة غاليليو، واعترف رسميّاً بالخطأ، ولكن دون ذكر اسم هذا العالم، في فقرةٍ من الإعلان المجمعي "فرح ورجاء" (عام 1965). وقد أوضح البابا يوحنا بولس الثاني، بقرار العودة إلى هذه القضيّة، أنّه غير راضٍ عن هذه التوبة، وعن الصدى الخفيف الذي أحدثه، ولكنه يشهد في الوقت نفسه أنّه واثق من أنّ النور سيسلَّط عليها كلّها، وأنّ جميع الملابسات ستلقى ما يبدّدها:

« إنّ عظمة "غاليليو" معروفة لدى الجميع، مثلما هي معروفة عظمة "أينشتاين": ولكن بخلاف هذا الذي نكرّمه اليوم، أمام هيئة الكرادلة في القصر البابوي، فإنّ الأوّل عانى الكثير – وليس بوسعنا التستّر على ذلك – من قبل رجال من الكنيسة وبعض أجهزتها. والمجمع الثقاتيكاني الثاني اعترف ببعض المداخلات غير المحقّة، وأسِف لها: ليُسمح لنا بإبداء أسفِنا لبعض المواقف التي قامت بين المَسيحيّين أنفسهم، لعدم اضطلاعهم على الاستقلاليّة المشروعة للعلم. لقد كانت في أصل توتّرات ونزاعات، قادت مفكّرين كثيرين إلى الاعتقاد بتعارض العلم والإيمان. وإنّ الإحالة إلى "غاليليو" وجدت تعبيرها الواضح في الملاحظة المرفقة بهذا النصّ، وهي تَذكُر كتاب المطران "پيو باسكيني" (Pio PASCHINI)، الذي نشرته الأكاديميّة البابويّة للعلوم، بعنوان "حياة وأعمال غاليليو غاليلي".

وللمضي أبعد من هذا الموقف المجمعي، أتمنّى أن يتولّى لاهوتيّون وعلماء ومؤرّخون، بدافعٍ من روح تعاونٍ صادق، تعميق فحص قضيّة غاليليو، وأن يعملوا، في إقرارٍ صادقٍ بالأخطاء، أيّاً كان مصدرها، على تبديد الشكوك التي تثيرها هذه القضيّة حتى اليوم، في عقول الكثيرين، في وجه توافق مثمر بين العلم والإيمان، والكنيسة والعالم. أقدّم دعمي كلّه لهذه المهمّة، التي يمكنها أن تشرّف حقيقة الإيمان والعلم، وتفتح الأبواب أمامَ أشكال قادمة من التعاون » (القصر البابوي، في 1979/11/10، في إحياء ذكرى "ألبير أينشتاين").

تقرير الكردينال بوبار:

إنّه نصّ هام نبسطه بحرفيّته. لقد قرأه بالفرنسيّة الكردينال بول بوبار، رئيس المجلس البابوي من أجل الثقافة، ومسؤول لجنة دراسة قضيّة غاليليو، خلال المقابلة البابويّة في الأكاديميّة البابويّة للعلوم، يوم

1992/10/31. وقد نشرته صحيفة "المراقب الروماني" بتاريخ 11/1، تحت هذا العنوان: "عرض أمام البابا لنتائج لجنة الدراسة، من أجل فحص قضية غاليليو. نتائج بحث متعدّد الاختصاصات" (25).

لاحظ النقّاد أنّ الكردينال بوبار استخدم في النص الذي خُتمت به الفقرة الخامسة، وهي بأحرفٍ منحنيةٍ في الأصل، عبارة "قُضاة غاليليو"، حيث كان يجب أن يقول "المجمع المقدس". وقد أُجريت ملاحظات مماثلة بخصوص نصّ البابا، الذي نُدرجه لاحقاً، بسبب عبارات "خصومه اللاهوتيين"، أو "لاهوتيّي تلك الحقبة"، حيث كان من الأصحّ كتابة "سلطة الكنيسة" (28). صحيح أنّنا نصادف الفطنة عينها لدى الكردينال ولدى البابا، ولكن ذلك لا يبدّل شيئاً من جوهر المسألة. ففي الفقرة الأولى، يفسّر الكردينال بوضوح أنّ "العلاقات الصعبة بين غاليليو والكنيسة"، هي موضوع البحث، وفي الفقرة الرابعة من النصّ الذي نُدرجه لاحقاً، يصوغ البابا المسألة الرعويّة التي تطرحها قضيّة غاليليو، ويفكّر في ما كان يتوجب على "الكنيسة" أن تفعله آنذاك، وفي ما يتوجّب على جميع "الرعاة" أن يفعلوا اليوم.

إنّ الشطر الثاني من الفقرة الخامسة اللاحقة، وهي بالحرف المنحني في الأصل، صيغَ بشكل حِكم، ويمكنه أن يُعتبر مثالاً لأشكالٍ من الاعتراف بالمسؤوليّة، جديدة، محتملة. وإنّ العبارة الواردة فيه "قد تألّم كثيراً"، مستمدّة من نصّ البابا، الذي أوردناه من قبل:

« منذ ثلاثة عشر عاماً، يوم استقبلتم الأكاديميّة البابويّة للعلوم، في هذه القاعة الملكيّة بالذات، للاحتفال بالذكرى الأولى للعالِم "ألبير أينشتاين"، جلبتم أنظار عالم الثقافة والعلوم إلى عالِم آخر، هو غاليليو غاليلي.

1. تمنّيتم أن يقوم بحث متعدّد الاختصاصات حول العلاقات الصعبة بين غاليليو والكنيسة. وأنشأتم في 1981/7/3، لجنة بابويّة لدراسة السجال حول نظريتَي "بطليموس" و"كوبرنيك"، في القرنين السادس عشر

والسابع عشر، الذي تندرج فيه قضية غاليليو. وقد كلّفتَ الكردينال "غارون" (GARRONE) مهمة تنسيق الأبحاث بشأنها. وطلبتَ مني أن أوافيك بتقريرٍ عن ذلك.

هذه اللجنة كانت تتألف من أربع فرق عمل، تحمّل مسؤولية كل منها الكردينال "كارلو مارتيني" (Carlo MARTINI)، لقطاع التفسير الكتابي، وتحملت أنا مسؤولية القطاع الثقافي، والبروفسور "كارلوس شاكاس" (Carlos CHAGAS) والأب "جورج كوين" (Georges COYNE) للقطاع العلمي والمعرفي، والمنسنيور "ميكيلي ماكارونيه" (Michele MACCARONE) للمسائل التاريخية والقانونية. وكان أمين سر اللجنة الأب "إنريكو روزافندا" (Enrico ROSAVENDA).

كان هدف هذه الفرق يحتّم عليها الإجابة على توقّعات دنيا العلم والثقافة بشأن مسألة "غاليليو"، وإعادة دراسة هذه المسألة، في أمانة تامّة مع الوقائع الثابتة تاريخيّاً، وفي توافق مع عقائد ذلك الوقت وثقافته، والاعتراف بصدق، انسجاماً منها مع روح المجمع المسكوني الثقاتيكاني الثاني، بوجوه الخطأ والصواب، أيّاً كان مصدرهما. لم يكن المطلوب مراجعة المحاكمة، بل تناول القضيّة في تفكيرٍ صافٍ وموضوعيّ، على أن تُؤخَذ بعين الاعتبار، الظروف التاريخيّة والثقافيّة. كان التحقيق واسعاً، شاملاً، وقد تناول جميع الميادين المعنيّة. كما أثار مجموع دراسات اللجنة، ومذكراتها، ونشراتها، من ناحيةٍ أخرى، العديد من الأبحاث في مختلف الأوساط.

2. طرحت اللجنة ثلاثة أسئلة: ما الذي حدث؟ كيف حدث؟ لماذا جرت الأمور على هذا النحو؟ إنّ الأجوبة على هذه الأسئلة، وقد ارتكزت على دراسة النصوص دراسةً نقديّةً، سلّطت الضوء على عددٍ من النقاط الهامّة.

إنّ الطبعة النقديّة للوثائق، ولا سيّما لتلك الصادرة عن "أرشيف

الـــقـــاتيكان السرّي"، تسمح بمراجعة الملف الكامل للدعويَين، وعلى الأخصّ لمحاضر الجلسات المفصّلة، للاســـتنطاقات الـــتي أُخـــضع لهـــا "غاليليو"، مراجعةً سهلةً، تتوفّر لها جميع الضمانات المرجوّة. وإنّ نـــشر تصريح الكردينال "بلارمان" (BELLARMIN) لغاليليو، وقد ضُمّت إليه وثائق أخرى، تسلّط الضوء على الأفق الثقافي لهذه الشخصيّة الأساســيّة في القضيّة كلّها. وقد وُضعت ونُشرت سلسلةٌ من الأبحـــاث، ســـلّطت الضوء على سياق القرن السابع عشر، الثقافي والفلـــسفي واللاهـــوتي، وقادت إلى استيعاب أفضل لمواقف "غاليليو"، مـــن قـــرارات المجمـــع "التريدانتيني" (TRENTE)، ومن التوجّهات الكتابيّة في زمانه، فأتاحت الفرصة لتقدير معتدل للنتاج الأدبي الضخم، الذي تناول قضية "غاليليو"، من القرن الثامن عشر حتى اليوم.

كان الكردينال "روبير بلارمان" (Robert BELLARMIN) قد طرح قبل ذلك، في رسالة وجّهها في 1615/4/12، إلى الراهـــب الكرملـــي "فوسكاريني" (FOSCARINI)، السؤالَين الحقيقيَّين اللذَين تثيرهما نظرية "كوبرنيك" (COPERNIC): هل علم الفلك الكوبرنيكي **صحيح**، أي **هل يمكنه أن يستند إلى براهين واقعيّة يمكن التثبّت منها**، أم أنّه يستند فقط إلى فرضيّات أو احتمالات؟ هل طروحات كوبرنيك تتوافق مـــع معطيات الكتاب المقدس؟ ويرى "روبير بلارمان" أنّه، طالمـــا لم يتـــوفّر برهانٌ على دوران الأرض حول الشمس، فإنّه يتوجّب تفسير المقـــاطع الكتابيّة التي تعلن عن ثبات الأرض، بفطنة كبيرة. وإذا ما قُدّم ذات يوم البرهان على أنّ دوران الأرض أمرٌ ثابت، عندها يتوجّب على اللاهوتيّين – حسب رأيه – أن يُعيدوا النظر في تفسيراتهم للآيات الكتابيّـــة الـــتي تبدو، في ظاهرها، متعارضةً مع نظريّات كوبرنيك الجديدة، بحيـــث لا توصَم بالخطأ، نظريّات قد تكون ثبتت صحتها:

"أقول إنّه، لو بُرهن حقّاً أنّ الشمس هي في مركز الكون، وأن الأرض في السماء الثالثة، وأنّ الشمس ليست هي التي تدور حول الأرض، بل الأرض هي التي تدور حول الشمس، عندها يجب التعامل بفطنة كبيرة في تفسير الآيات الكتابيّة التي تبدو مناقضةً لهذا التأكيد، وأوثر القول إنّنا لا نفهم هذه النظريّات على أن نقول إنّ ما بُرهن عليه ليس صحيحاً".

3. في واقع الحال، فإنّ غاليليو لم يكن قد نجح في تقديم برهانٍ لا يُدحض، على ثنائيّة حركيّة الأرض، بالنسبة إلى دورانها السنوي حول الشمس، وبالنسبة إلى دورتها اليومية حول محور القطبين، مع أنّه كان مقتنعاً بأنّه وجد البرهان على ذلك في حركات المدّ والجزْر في المحيطات، التي لم يُقيَّض إلا لـ"نيوتن" (NEWTON) وحدَه أن يبرهن على منشئها الحقيقي. وكان "غاليليو" قد اقترح محاولة برهانٍ أخرى، في وجود الريّاح النُكَيبات (أي التي تهبّ من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي)، ولكن أحداً يومها لم يكن يملك المعلومات اللازمة لاستخلاص الاستنتاجات الضروريّة منها.

كان لا بدّ من مرور مائة وخمسين عاماً بعد ذلك، كي تتوفّر البراهين البصريّة والآليّة على حركيّة الأرض. أما خصوم "غاليليو"، من جهتهم، فلم يكتشفوا، لا قبله ولا بعده، شيئاً عمّا يمكن أن يُعتبر دحضاً مقنعاً لنظريّة كوبرنيك في علم الفلك. وقد فرضت الوقائع نفسها بنفسها، وسرعان ما أبرزت نسبيّة الحكم الصادر عام 1633، إذ لم يكن حكماً نهائيّاً. وفي عام 1741، بعد أن ثبت البرهان البصري على دوران الأرض حول الشمس، سمح البابا بنيدكتوس الرابع عشر للمجمع المقدس بطباعة الأعمال الكاملة لغاليليو، لأوّل مرة.

4. إنّ هذا التصحيح الضمني لقرار حكم عام 1633، اتّخذ شكلاً صريحاً

في قرار جمعيّة الحُرم المقدسة، إذ سُحبت من جدول الكتب الممنوعة، الذي أُعيد طبعه عام 1757، المؤلفات المؤيّدة لنظريّة مركزيّة الشمس. وعلى الرغم من هذا القرار، كثيرون كانوا، في واقع الحال، قد ظلّوا يمتنعون عن التسليم بالتفسير الجديد. وفي عام 1820، كان الأب "ستيليه" (SETTELE)، البروفسور في جامعة "الحكمة" في روما، يستعدّ لنشر مؤلَّف له بعنوان "عناصر من علم البصريّات والفلك". فوُوجِهَ برفض الأبِ "أنفوسي" (ANFOSSI)، عميد القصر المقدس، منحه إذناً بالطباعة. وقد ولّد هذا الحادث الانطباع بأنّ قرار الحكم الصادر عام 1633، ظلّ في الحقيقة عصيّاً على التعديل، لأنّه يستحيل تعديله. فرفع المؤلّف الذي خضع لرقابة غير عادلة، شكواه إلى البابا بيوس السابع، فتلقّى منه عام 1822، جواباً بالموافقة. إلاّ أنّ الواقعة الحاسمة كانت يوم صاغ الأب "أوليفييري" (OLIVIERI)، وهو الرئيس الأسبق للرهبان الدومينيكان، وحاكم المجمع المقدس، تقريراً أيّد فيه منح الإذن بالطباعة للمؤلفات التي كانت تقدم نظريّة كوبرنيك على أنّها موضوع، وليس بوصفها فرضيّة وحسب.

وقد قُيّض للقرار البابوي أن يجد تطبيقه العملي عام 1846، عندما نُشرت قائمةٌ جديدةٌ منقّحةٌ للكتب الممنوعة.

5. في النتيجة، فإنّ إعادة قراءة وثائق الأرشيف تُظهر بوضوح، مرّةً أخرى، أنّ جميع "أبطال" المحكمة، دون استثناء، يحقّ لهم ألا يُساء الظنّ فيهم، في غياب براهين مضادّة. وإنّ التوصيفات الفلسفيّة واللاهوتيّة، التي أُسيء تطبيقها على النظريّات الجديدة آنذاك، حول مركزيّة الشمس وحركيّة الأرض، كانت نتيجة وضع انتقالي في ميدان المعلومات الفلكيّة، وتَشوّش في التفسير الكتابي، المتعلّق بعلم الكون. فإنّ بعض اللاهوتيّين، المعاصرين

لغاليليو، إذ كانوا ورَثة تصوّر أحادي القطب للعالم، وقد فرض نفسه على عموم الناس حتى مطلع القرن السابع عشر، لم يستطيعوا أن يستشفّوا المعنى العميق، وغير الحرفي، للكتاب المقدس، في وصفه البنية الماديّة للكون المخلوق، فقادهم ذلك إلى إسقاطٍ خاطئ لمسألة ذات ملاحظة وصفيّة، على ميدانٍ هو من شأن الإيمان.

وفي هذا الظرف التاريخي والثقافي، البعيد جداً عن زماننا، ظنّ قضاة غاليليو، في عجزهم عن الفصل بين الإيمان ونظريّة في علم الكون، مُغرقة في القِدم، دون وجه حقّ، أنّ الأخذ بنظريّة كوبرنيك، لا سيما وأنّها لم تكن بعد قد أُثبتت، كان من شأنه أن يهزّ أركان التقليد الكاثوليكي، وأنّه كان يتوجّب عليهم أن يمنعوا تعليمها. إنّ هذا الخطأ الذاتي في الحكم، البالغ الوضوح بالنسبة إلينا اليوم، قد قادهم إلى اتّخاذ إجراء تأديبي، "عانى منه غاليليو الكثير". أيّها الآب الأقدس، يجب الإقرار بصدق بهذه الأخطاء، كما طلبت إلينا.

تلك هي حصيلة التحقيق المتعدّد الاختصاصات، الذي طلبتَ من اللجنة القيام به. وإنّ جميع أعضائها يشكرون لك، بواسطتي، الشرف والثقة اللذين أظهرتهما لهم، إذ منحتهم كلّ الإمكانيّات في التنقيب والبحث والنشر، في الحريّة المطلقة التي تقتضيها الأبحاث العلميّة.

أرجو أن تتقبّل قداستكم تكريمهم الحار والبنويّ.

الكردينال "بول بوبار". الفاتيكان في 1992/10/31. »

البابا يوحنا بولس الثاني يعترف بالأخطاء التي ارتُكبت:

سبق وأبرزنا أهميّة المسألة الرعويّة، التي طرحها البابا في الفقرة الرابعة من هذا النص، الذي قرأه ردّاً على تقرير الكردينال "بوبار"، بمناسبة انعقاد الجلسة الرسميّة للأكاديميّة البابويّة للعلوم. وقد وردت

فيه عبارات تنطوي على القدر ذاته من الوضوح، مثل "سوء الفهم المأساوي، المتبادل"، و"الالتباس المؤلم"، في الفقرة الخامسة، و"خطأ اللاهوتيّين آنذاك"، في الفقرة السابعة:

« ربّما سيدهش البعض، في ختام أسبوعٍ من الدراسات في الأكاديميّة، حول موضوع بروز التعقيد بين مختلف العلوم، إذا ما عدت إلى قضيّة "غاليليو". أَوَلم تُطوَ هذه القضيّة منذ زمن، والأخطاء التي ارتُكبت، ألمْ يُعترف بها؟

أجل، هذا صحيح. إلاّ أنّ المسائل الكامنة وراء هذه القضيّة، تمسّ طبيعة العلم، كما هي تمسّ طبيعة رسالة الإيمان. فليس من المستبعد أن نجد أنفسنا، ذات يوم، أمام وضع مماثل، سيطلب من جميع الأطراف وعياً مُلمّاً بميدان وحدود اختصاصات كلّ طرف. وإنّ مقاربة موضوع هذا التعقيد بين مختلف العلوم، من شأنها أن تقدّم مثالاً على ذلك.

ثمّة سؤالان يجثمان في قلب النقاش، الذي كان غاليليو مركزه.

السؤال الأوّل ذو طبيعة معرفيّة، ويتعلّق بعلم تفسير الكتاب المقدّس[...].

إنّ المسألة التي تناولها إذن لاهوتيّو العصر، هي مسألة التوافق بين نظريّة مركزيّة الشمس والكتاب المقدس.

وهكذا، فإنّ العلم الجديد، بما يفرضه من أساليب وحريّة في البحث، اضطرت اللاهوتيين لطرح السؤال حول معاييرهم الخاصة بتفسير الكتاب المقدس. ومعظمهم لم يتقنوا ذلك.

كانت المفارقة أنّ غاليليو، إذ كان مؤمناً صادقاً، أظهر من الذكاء على هذا الصعيد، أكثر ممّا تحلّى به خصومه اللاهوتيّون. وقد كتب إلى "بينيديتو كاستيلي" (Benedetto CASTELLI) يقول له: "إن كان الكتاب المقدّس لا يمكنه أن يخطأ، فإنّ بعض مفسّريه وشرّاحه، يمكنهم أن يخطئوا، وبطرقٍ كثيرة".

[...] هنا، يسعُنا الإدلاء منذ الآن بنتيجة أوليّة. إنّ بروز طريقة جديدة في مواجهة دراسة الظواهر الطبيعيّة، يفرض توضيحاً لمجمل علوم المعرفة. فهو يضطرّهم لتحديد ميدانهم الخاص على نحو أفضل، وكذلك زاوية مقاربتهم، وأساليبهم، والهدف الدقيق من نتائجهم. وبعبارات أخرى، فإنّ مثل هذا البروز يضطرّ كلاً من هذه العلوم أن يدرك طبيعته الخاصة بمزيد من الدقة.

بذلك، فإنّ الاضطراب الذي أحدثه نظام كوبرنيك، فرَض جهداً على صعيد التفكير المعرفي في علوم الكتاب المقدس، وهو جهدٌ قُيّض له في ما بعد أن يؤتي ثماراً غزيرة، في أعمال التفسيرات الحديثة، ووجد في الدستور المجمعي "كلمة الله"، تتويجاً له ودفعاً جديداً.

إنّ الأزمة التي أشرت إليها للتوّ، ليست العامل الوحيد الذي كانت له تداعيات على تفسير الكتاب المقدس. وهنا نلمس الجانب الآخر لقضيّة غاليليو، وهو الجانب الرعوي.

إنّ الكنيسة، بحكم رسالتها الخاصة، يتحتّم عليها أن تكون متيقّظة لما لكلمتها من تأثيرات رعويّة. ولنعلن بكلّ وضوح، قبل كلّ شيء، أنّ هذه الكلمة يجب أن تتّفق مع الحقيقة. ولكن المطلوب هو أن نعرف كيف يجب أن نأخذ بالاعتبار معطىً علميّاً جديداً، يبدو أنّه يتعارض مع حقائق الإيمان. إنّ الحكم الرعوي الذي كانت تقتضيه نظريّة كوبرنيك، كان يصعب الإدلاء به، بقدر ما كانت نظريّة مركزيّة الأرض تبدو ملازمةً لتعليم الكتاب المقدّس بالذات. كان يقتضي ذلك، في آنٍ واحد، التغلب على طرقٍ مألوفةٍ في التفكير، وإبداعَ منهجٍ تربوي، قادرٍ على تنوير المؤمنين. ولنقُلْ، بصورة عامّة، أنّه يتوجّب على الراعي أن يكون مستعدّاً للإقدام على خطوة جريئة حقّاً، تُجنّبه عقبةً مزدوجةً، تقوم إمّا على التزام موقف جبانٍ أو على إبداء رأيٍ متسرّعٍ، وكلاهما يمكنهما أن يسبّبا شرّاً مستطيراً. [...]

منذ عصر الأنوار حتى يومنا هذا، شكّلت قضيّة غاليليو ما يشبه الأسطورة، كانت فيها الصورة التي رُسمت للأحداث، بعيدة عن الحقيقة بُعداً لا يُستهان به. وفي هذا المنظور، كانت قضيّة غاليليو رمزاً لرفض الكنيسة المزعوم للتقدّم العلمي، أو رمزاً للظلاميّة "العقائديّة"، المتعارضة مع حريّة البحث عن الحقيقة. وقد لعبت هذه الأسطورة دوراً ثقافيّاً هائلاً، وساهمت في ترسيخ العديد من رجال العلم الصادقين، في الفكرة القائلة بانعدام التجانس بين روح العلم وأخلاقيّة البحث من جهة، والإيمان المسيحي من جهة ثانية. وقد فُهم انعدام التفاهم، المأساوي، المتبادل هذا، على أنّه انعكاس لتعارض تكويني بين العلم والإيمان. وإنّ التوضيحات التي قدّمتها الأبحاث التاريخية الحديثة، تُتيح لنا أن نؤكّد أنّ سوء الفهم المؤلم هذا قد بات من التاريخ الماضي.

يمكننا أن نستخلص من قضيّة غاليليو عبرة تظلّ راهنةً بالنسبة إلى ظروفٍ مشابهة، تُطرح اليوم ويمكنها أن تُطرح غداً. ففي زمان غاليليو، كان من غير المعقول أن نتصوّر عالَماً لا تتوفّر فيه نقطة ارتكاز مادي مطلق. ولما كان الكون المعروف آنذاك، متضمَّناً في المنظومة الشمسيّة وحدها، لم يكن من الممكن وضع نقطة الارتكاز هذه، إلاّ على الأرض أو على الشمس. اليوم، بعد أينشتاين، وضمن منظور علم الكون المعاصر، فليس لأيٍّ من هاتين النقطتين، الأهميّة التي كانت لها آنذاك. ومن البديهي أنّ هذه الملاحظة لا تستهدف صحّة موقف غاليليو في هذا النقاش. إنّما هي تريد أن تشير إلى أنّه كثيراً ما **توجَد، بعيداً عن رؤيتَين منحازتَين ومتعارضتَين، رؤية أوسع تتضمّنهما وتتجاوزهما.**

ثمّة عِبرة أخرى تبرز، وهي أنّ **العلوم المختلفة في نطاق المعرفة، تستدعي تنوّعاً في الأساليب.** فإنّ غاليليو، الذي اخترع عمليّاً الأسلوب

التجريبي، كان قد فهم، بفضل حدْسه كعالِم فيزياء عبقريّ، وباعتماده على حججٍ مختلفة، لماذا لم يكن من الممكن إلاّ للشمس وحدها أن تحتلّ وظيفة مركز العالَم، كما كان معروفاً يومذاك، أي بوصفه منظومةً كونيّة. وكان خطأ اللاهوتيّين آنذاك، إذ كانوا يتمسّكون بمركزيّة الأرض، يقوم على التفكير في أنّ معرفتنا لبنية العالم المادي، كان يفرضها، على نحوٍ ما، المعنى الحرفي للكتاب المقدّس. » (القصر الرسولي، في 1992/10/31، لقاء مع الأكاديمية البابوية للعلوم).

توضيحاً لتحديد قضية غاليليو بوصفها "شبه أسطورة"، وهو التحديد الذي قدّمه البابا في الفقرة الخامسة، سنذكر هذه الملاحظة التي أدلى بها لاهوتي البابا الشخصي، الأب جورج كوتييه:

« لا يجوز الحديث عن شهادة مُضادّة، إذا ما تعلّق الأمر بالذاكرة، مثل الاستمرار العنيد لأسطورة مغرِضة. ولنأخذ مثالاً لنا قضيّة غاليليو. فإنّ المسؤولين الكنسيّين ارتكبوا أخطاء وتجاوزاتٍ، تمّ توضيحها فيما بعد، واعتُرف بها. ولكن هذه المسألة بالذات، نبتت عليها، بعد عصر الأنوار، أسطورة من وحي النزعة العلمويّة: إنّها أسطورة الظلاميّة "العقائديّة" للكنيسة، التي قاومت بطل الحريّة الفكريّة. والحال أنّ مثل هذه الأساطير، إذا ما كُتب لها الاستمرار، تكتسب نوعاً من الاستقلالية، كما لو كانت تستطيع، في الحد الأقصى، أن تتحرّر من واقع الأحداث التي كانت في أصل نشأتها. وعلى هذا الصعيد، يجب أن نظلّ متيقّظين حيال التخيّلات التاريخيّة المزعومة، التي تشحنها وسائل الإعلام. » (27)

انفتاح حيال نظريّة التطور:

« يجدر بنا أن نحدّد جيّداً المعنى الدقيق للكتاب المقدّس، وأن نستبعد التفسيرات النافلة التي تجعله يقول ما ليس في نيّته أن يعني. »

إنّ هذا المبدأ، الذي أكّده البابا يوحنا بولس الثاني، في حديثه

المستفيض حول قضيّة غاليليو، وجد تطبيقاً جديداً له، في خريف عام 1996، **حول نظريّة التطوّر. "الأصول وأوّل تطوّر الحياة. خواطر حول العلم، في فجر الألفيّة الثالثة"، ذلك كان موضوع الجمعيّة العموميّة للأكاديميّة البابوية للعلوم، التي أرسل لها البابا، رسالة تترجم في الراهن موقف الكنيسة من نظرية التطور:**

« إنّ البراءة البابويّة "في الجنس البشري"، نظراً لما كانت عليه أحوال الأبحاث يومذاك، ونظراً أيضاً للمقتضيات الخاصة باللاهوت، كانت تعتبر "نظرية التطور" فرضيّةً جادّة، جديرة بالبحث وبالتفكير المعمّقَين، أسوةً بالفرضيّة المقابلة. [...] اليوم، بعد أن مرّ قرابة نصف قرن على نشر هذه البراءة، فثمّة معارف جديدة تقودنا إلى الاعتراف بأنّ نظريّة التطور هي أكثر من فرضيّة. وفي الواقع، فما تجدر ملاحظته هو أنّ هذه النظريّة قد فرضت نفسها، شيئاً فشيئاً، على فكر الباحثين، في أعقاب سلسلة من الاكتشافات، حدثت في مختلف علوم المعرفة. فإنّ التوافق، الذي لم يكن قطّ لا مقصوداً ولا مفتعلاً، بين نتائج أبحاث، قامت في استقلاليّة عن بعضها البعض، هذا التوافق يشكّل في حدّ ذاته، حجّةً ذات دلالة لصالح هذه النظريّة. [...] والحقّ يُقال، أنّه يجدر بنا أن نتحدّث، لا عن نظريّة التطور، بل عن نظريّات التطور. [...] وهكذا، فإنّ هناك قراءات ماديّةً وتقليصيّةً، وهناك قراءات روحانيّة. والحكم هنا، هو من اختصاص الفلسفة بالذات، وفي ما هو أبعد من ذلك، إنّه من اختصاص اللاهوت. [...] وفي النتيجة، فإنّ نظريّات التطور، التي تنظر إلى الروح، تبعاً للفلسفات التي تلهمها، على أنّه ينبع من قوى المادة الحيّة، أو على أنّه مجرّد مظهر إضافي من مظاهر المادة، هذه النظريّات لا تتوافق مع حقيقة الإنسان. » (رسالة إلى الجمعيّة العامّة للأكاديميّة البابويّة للعلوم، في 1996/10/23).

الفصل السابع

حرب وسلام

ربّما لم يدعُ أيّ بابا قطّ إلى السلام، بمثل القوة التي دعا إليه البابا يوحنا بولس الثاني: على كلّ حال، ما من أحدٍ مثله في العصر الحديث. وما من بابا اعترف، بقدر ما فعل هو، بخطيئة الحرب، التي ارتكبها المسيحيّون، وطلبَ الغفران بسببها. قد يكون بالغَ أحياناً في الاعتراف بهذه الخطيئة، وفي طلب الغفران بسببها، كما لو كان المسيحيّون مسؤولين أيضاً عن الحروب التي يقرّرها سواهم، لأنّهم لم يمنعوها، أو على كلّ حال، لأنّهم شاركوا فيها.

نسوق هنا خمسة نصوص، هي أكثرها حيويّة في هذا الاعتراف. وهي تمتدّ من عام 1983 إلى عام 1995، وتنطلق من ڤيينا، وهي إحدى العواصم الكبرى المسؤولة عن العديد من الحروب في الدول المسيحيّة، وتمرّ بيومَي "أسيزي" لعام 1986 وعام 1993، وأسيزي هي العاصمة الرمزيّة للدعوة المسيحيّة من أجل السلام. وتكتمل في وثيقتين نُشرتا بعد نصف قرنٍ على بدء (1989) ونهاية (1995) الحرب العالميّة الثانية، التي بدت للبابا يوحنا بولس الثاني على أنّها أشدّ فضائح التاريخ قسوةً، لأنّها قامت في قارّة ذات تقليدٍ مسيحي.

الحرب هي مجموع كلّ الخطايا:

إنّ الحرب تختصر كلّ الشر الذي أنزله الإنسان بالإنسان في تاريخ أوروبا. يقول البابا: "إنّه لمن المحزن أنّنا لم نكن نحن المسيحيّين مختلفين، في ذلك، عن سوانا من الناس":

« إنّه لا يسعنا أن نتجاهل في صمت – وهذا واقع يصدمنا جميعاً حتى الأعماق – أنّ تاريخ أوروبا المشترك لا ينطوي فقط على ملامح متألّقة،

بل هو يُبرز أيضاً نقاطاً سوداء، مرعبة، لا تتوافق مع الروح الإنسانيّة والبشرى الجميلة التي أعلنها يسوع المسيح. فالدول والأحزاب تجابهوا مرّات كثيرة، في حروب دامية وحاقدة. مرّات كثيرة، حُرم الناس من أوطانهم، طُردوا أو أُرغموا على الرحيل، بسبب البؤس والتمييز والاضطهادات. ملايين الناس اغتيلوا بسبب انتمائهم العرقي، بسبب قوميّتهم ومعتقداتهم، أو بكل بساطة، لأنّهم وُجدوا في طريق ما. من المحزن أن نعرف أنّ هناك مسيحيّين مؤمنين كانوا أيضاً في عداد مَن ظَلموا أقرباءهم واضطهدوهم. وإن كان من حقّنا أن ندّعي الانتماء إلى ربّنا يسوع المسيح، وإلى رسالته، فإنّه يجب علينا، من جهة أخرى، أن نقرّ بخطايانا ونطلب الغفران. ذلك بأنّنا – نحن المسيحيّين – أصبحنا مذنبين بأفكارنا وأقوالنا وأعمالنا، ولأنّنا لم نتدخّل لمنع الظلم. [...]

ولكنّنا نعرف جيّداً، قبل كلّ شيء، أنّ **يسوع المسيح لم يتكلّم يوماً بلغة السلاح**، لا هو ولا أمّه التي توَجّهْنا إليها بالأمس كما اليوم، مسمّين إياها "نجدة المسيحيّين". فإنّ الصراع المسلّح هو، في حال وقوعه، شرّ لا مفرّ منه، لا يمكن للمسيحيّين، وقد أُقحموا في مساره المأساوي، أن يُفلتوا منه. ولكن ههنا أيضاً، فإنّ الوصيّة المسيحيّة بمحبّة الأعداء، وبممارسة الرحمة، أمر ملزِم بالنسبة إلينا. » (فيينا، هلدنبلاتس، 1983/9/10)

تعليقاً على إشارته إلى الصراع المسلّح، بوصفه "شرّاً لا مفرّ منه"، وعلى إشارته إلى محبّة الأعداء التي يجب أن تلازمه، سنذكّر بأحد أكثر اعترافاته بالخطايا إثارةً، خلال بابويّته: إنّه ذاك الذي استرسل فيه في مقاطعة "فانديه" (VENDÉE) الفرنسية، في شهر أيلول عام 1996، بصدد الحديث عن مقاومة الكاثوليك المسلّحة فيها، ضد قوات الثورة، عام 1793:

« في مجابهاتٍ مرعبة، تمّت، من قِبل الطرفين، أفعال كثيرة، اتّسمت بالخطيئة. » (1996/9/19، خطاب أمام السكان وطلاب المدارس)

اعتراف أسيزي:

في قلب اليوم المخصص للسلام في مدينة "أسيزي" بإيطاليا عام 1986، يبرز هذا الاعتراف الرسمي بمسؤوليّات الكاثوليك وجميع المؤمنين، أيّاً كان إيمانهم، بوصفهم مسبّبي حروب:

« أكرّر في اتّضاع، قناعتي الشخصيّة: إنّ السلام يحمل اسم يسوع المسيح.

ولكنّي، في الوقت نفسه، وبالصوت نفسه، مستعدٌّ للإقرار بأنّ الكاثوليك لم يكونوا دائماً أوفياء لهذا الإعلان الإيماني. لم نكن دائماً "صنّاع سلام". وإذن، فلقاؤنا هذا في "أسيزي"، بالنسبة إلينا، ولكن أيضاً ربما بالنسبة إلى الجميع، بمعنى ما، هو فعل توبة. » (أسيزي، 1986/10/27، خطاب ختام الجمعية الوحدوية)

أوروبا المسيحيّة؟

في أوّل النصوص المجموعة في هذا الفصل، كان البابا يرى أنّه من المحزن أنّ مسيحيّين كثيرين كانوا مسؤولين، طوال التاريخ، عن الحروب الأوروبيّة. ولكنه كان يتحدّث عن الحروب التي تخلّلت تاريخنا كلّه.

في هذا النص الجديد، يتركّز الانتباه على الحرب العالميّة الثانية، وقد بلغ ألم المسيحي "كارول فويتيلا"، إزاء وحشيّة هذه الحرب، الذروة، فتمادى في الإقرار بأنّه يصبح صعباً على المرء، الذي يلاحقه مثل هذا التاريخ، أن يتابع سيره. أمّا الذين يصرّون على القول بأنّ بابا الهويّة الكاثوليكيّة هذا، هو عاجزٌ عن ممارسة النقد الذاتي، فليُطيلوا التأمل في هذا النص:

« لقد استذكرنا للتوّ إحدى أكثر الحروب دموية في التاريخ، وهي حرب قامت على قارةٍ ذات تقليدٍ مسيحي. [...] إنّ تقريراً كهذا لا يسعه إلا أن يحثّنا على فحص ضميرٍ حول طبيعة تبشير أوروبا. وإنّ انهيار

القيم المسيحيّة، الذي ساند أخطاء الأمس، يجب أن يستحثّ يقظتنا إزاء الطريقة التي يبشَّر بها بالإنجيل اليوم ويعاش. » (رسالة بابويّة بمناسبة الذكرى الخمسين لبدء الحرب العالمية الثانية، 1989/8/26)

الغفران لنا وللعالم بأسره:

إنّ طلب الغفران من الله بسبب الحروب اليوم، وليس فقط بسبب الحروب الماضية، وجد تعبيره، خلال اليوم الثاني في "أسيزي"، وهو ينجم عن هذا التساؤل: كيف للعنف في العالم أن يكون ممكناً، إن كان المسيح قد "دمّره"، وكيف يكون ممكناً "الاقتتال" في قلب أوروبا (إشارة إلى الحرب في يوغوسلافيا)، في عشيّة الألفيّة الثالثة:

« إنّ هذا السؤال، ليس ثمّة من جواب عنه إلا الركوع عند أقدام الصليب، وطلب الغفران من السيد الذي صُلب عليه من أجلنا ومن أجل الجميع. ولذلك بالذات كانت أمسية الصلاة هذه، التي هي أيضاً أمسية توبة واهتداء. » (أسيزي، 1993/1/9)

التوبة بسبب الحرب التي أحدثتها النازيّة:

صحيح أنّ المسيحيّين لم يشاؤوا جنون الحرب العالمية الثانية، ولكن الصراع استفحل في أرض مسيحيّة، ولم يعرفوا أن يواجهوه، بل شاركوا فيه. فيجب عليهم أيضاً، أن يطلبوا الغفران من أجل هذه الحرب. إن هذه الأقوال تنمّ عن شجاعة سامية؛ إنّ البولوني الذي يتلفّظ بها، كان له من العمر تسعة عشر عاماً عندما عصف إعصار النازيّة بحياته:

« بمناسبة الذكرى الخمسين لختام الحرب العالميّة الثانية، كثيرةٌ هي الأصوات التي ترتفع، باحثةً عن تجاوز الانقسامات بين المنتصرين والمقهورين، فتستحضر شجاعة وتضحية ملايين الرجال والنساء. أمّا الكنيسة، فهي، في ما يتعلق بها، تُصغي خصوصاً إلى صراخ جميع الضحايا. وهو صراخٌ يحقّق إدراكاً أعمق لفضيحة هذا الصراع، الذي دام ستّ

سنوات. وهو صراخٌ يحمل على إعمال الفكر في ما سبّبته هذه الفضيحة للبشريّة جمعاء. إنّه صراخٌ يشكّل تنديداً بالإيديولوجيّات التي قادت إلى هذه النتيجة الرهيبة. في مواجهة جميع الحروب، كلّنا مدعوّون للتأمّل في مسؤوليّاتنا، في طلبٍ للغفران، وفي منحه. وبوصفنا مسيحيّين، فإنّنا نشعر بمرارةٍ عميقةٍ، ونحن نُعمِل الفكر في أنّ أشكال الوحشيّة في هذه الحرب، قد جرت فوق قارّةٍ كانت تتباهى بازدهارٍ مميّزٍ في ثقافتها وحضارتها؛ فوق قارّة ظلّت لفترة أطول من سواها تحت تأثير الإنجيل والكنيسة. ولذلك، يتوجّب على مسيحيّي أوروبا أن يطلبوا الغفران، وإن كنّا نعترف بأنّ المسؤوليّات في صناعة آلة الحرب، كانت متنوّعة. » (رسالة في الذكرى الخمسين لانتهاء الحرب العالمية الثانية في أوربا، 1995/5/16)

بقصد إجراء مقارنة مسكونيّة (ولكن، هذه المرة، ربّما كانت كلمات البابا على قدرٍ أكبر من الحريّة والوضوح، من كلمات أيّة منظّمةٍ جماعيّةٍ، تمثّل مختلف الديانات)، سنذكر إقراراً بالخطيئة يتعلّق بالحروب، صادقت عليه جميع كنائس أوروبا، وورد في الوثيقة الختاميّة للجمعيّة المسكونيّة في "بال" (BÂLE)، **حول "العدل والسلام"** (1989/5/20):

« لقد سبّبنا نزاعات، و لم نكن دائماً قادرين على استثمار جميع فرص الحوار والمصالحة. لقد سلّمنا بالحروب، وكثيراً ما برّرناها بسهولة مفرطة. » (28)

الفصل الثامن

الحروب الدينية

إنّ طلب الغفران من أجل الحروب الدينيّة، هو أجمل ما نطق به البابا يوحنا بولس الثاني من طلبات غفران. فهو الذي ألهمنا عنوان هذا الكتاب. ففي اختياره الكلمات، تتجلّى نيّته في صياغة نصّ نموذجي:

« اليوم، أنا، بابا كنيسة روما، باسم جميع الكاثوليك، أطلب الغفران بسبب جميع الإساءات التي أُلحقت بغير الكاثوليك، طوال تاريخهم المضطرب. »

هكذا تكلّم يوحنا بولس الثاني في مدينة "أولوموك" (OLOMOUC)، في جمهورية تشيكيا، في أيار 1995، خلال العظة التي ألقاها في حفل إعلان قداسة الأب "سركاندر" (SARKANDER) (1576–1620). هذا التصريح الأساسي، يمكنه أن يترافق بنصَّين آخرين: أوّلهما قُرئ بعد ذلك بشهرٍ واحدٍ في "سلوفاكيا"، والثاني، بالمقابل، سبق الأول بسبع سنوات، وكان قد قُرئ في "سالزبرغ" (SALSBOURG)؛ وفي ذلك دليلٌ جديدٌ على أنّ كلّ كلمةٍ لها مصدرها، وكلّ بادرة لها سابقاتها، في هذا التاريخ القائم على طلبات الغفران.

أطلب الغفران وأقترحه:

مع النص الذي قاله في "أولوموك"، اضطر يوحنا بولس الثاني لمواجهة تصلّب كان له ما يبرّره، من قبل الكنيسة البروتستانتيّة (التي شعرت باتهامها من خلال إعلان قداسة شهيدٍ، كانت السلطات البروتستانتيّة قد أنزلت به عقوبة الإعدام)، فأظهر بذلك أنّه من الممكن، حتى في الميدان المسكوني، إذا كان البابا شجاعاً، أن يحوّل الصُلب إلى ذهب:

« بعد ما يقارب الأربعة قرون، نلتقي وجه "يان سركاندر" (Jan SARKANDER)

الكاهن والشهيد. فهو يخصّكم أنتم، أيّها المورافيون الأحبّاء، الذين أحببتموه منذ اللحظة الأولى، وتكرّمونه بوصفه حامياً لكم، لا سيما في أصعب ساعات تاريخكم. [...] لا يجوز لهذا التقديس، بأيّ حال، أن يعيد فتح الجراحات المؤلمة التي وسَمت، في الماضي، في هذه المناطق، جسد المسيح.

واليوم، أنا، بابا كنيسة روما، باسم جميع الكاثوليك، أطلب الغفران بسبب جميع الإساءات التي أُلحقت بغير الكاثوليك، طوال تاريخهم المضطرب. وإنّي، في الوقت نفسه، أعتبر نفسي ضامناً لغفران الكنيسة الكاثوليكيّة من أجل جميع الشرور التي تحمّلها أبناؤها. جعل الله هذا اليوم بدايةً جديدةً في مجهودنا المشترك، من أجل اتّباع المسيح وإنجيله وشريعة محبّته، وتطلّعه الأسمى إلى وحدة جميع الذين يؤمنون به. » (أولوموك – الجمهورية التشيكية، 1995/5/21، حفل تقديس "يان سركاندر")

تكريم الشهداء البروتستانتيّين:

إنّ طلب الغفران هذا، قد ألهم البابا يوحنا بولس الثاني، مراجعة تاريخيّة أخرى، هامّة في موضوع الحروب الدينيّة، وقد عبّر عنها بعد ذلك بشهرٍ ونصف، خلال زيارةٍ له إلى سلوفاكيا، بمناسبة تطويب ثلاثة شهداء أعدمتهم السلطات البروتستانتيّة عام 1619، في مدينة "كوسيشيه" (KOSICE):

« إنّ الاحتفال الديني هذا الصباح يدعونا للتأمل في الأحداث المأساويّة التي جرت في مطلع القرن السابع عشر، إذ هي تسلّط الضوء من جهةٍ على عبثيّة الضعف، ومن جهة ثانية على المثال الرائع للعديد من تلاميذ المسيح، الذين عرفوا أن يواجهوا آلاماً متنوّعةً، كي لا يُنكروا ما كان ضميرهم يملي عليهم. وفي الواقع، فإلى جانب شهداء "كوسيشيه" الثلاثة، هناك أشخاص كثيرون ينتمون أيضاً إلى جماعاتٍ مسيحيّةٍ أخرى، قد أُخضعوا للتعذيب،

وتحمّلوا أحكاماً قاسيةً؛ بل إنّ بعضهم قُتلوا. كيف لنا ألا نقرّ مثلاً، بالعظَمة الروحيّة لأربعة وعشرين مؤمناً ينتمون إلى الكنائس البروتستانتيّة، الـذين قُتلوا في مدينة "بريسوف" (PRESOV)، فلهؤلاء ولجميع الذين تقبّلوا الآلام والموت، كي يظلّوا، في أعماقهم، منسجمين مع قناعاتهم الخاصّـة، فـإنّ الكنيسة ترفع التكريم الذي يستحقّون، وتعبّـر لهـم عـن إعجابهـا. » (كوسيشيه – سلوفاكيا، 1995/7/2، العِظة في تطويب ثلاثة شهداء)

إنّ الإقرار بـ"العظمة الروحيّة" لأربعةٍ وعشرين بروتستانتيّاً قتلهم الكاثوليك، لأمرٌ يفوق – دون شكّ – طلب الغفران من أجل "الإساءات التي أنزلها الكاثوليك بغير الكاثوليك". إنّ هذا الإقرار العلني يوازي التطويب في جوهره، ويتمّم طلب الغفران في "أولوموك". وإنّ كلا الموقفين قد تُوّجا بعد ذلك بمبادرةٍ خارقةٍ وغير متوقّعةٍ: إنّها التكريم الذي أدّاه يوحنا بولس الثاني، لصرح الشهداء البروتستانت، بعد ظهر اليوم نفسه، 7/2، في "بريسوف".

يومَها، وقف يوحنا بولس الثاني تحت المطر، صامتاً، في زاوية من ساحة مدينة "بريسوف" القديمة، أمام صرح الشهداء الكالفينيّين، الذين قتلهم الكاثوليك عام 1687. كان ذلك أكثر الأعمال المسكونيّة التي قام بها هذا البابا، تواضعاً وإدهاشاً. لم يكن مدرجاً في البرنامج، وقد قرّره في آخر لحظة. إنّه يصلّي في صمتٍ أمام هذا الصرح الحجري. قد يكون طلب الغفران من هؤلاء المسيحيّين المساكين، الذين ماتوا في سبيل إيمانهم، وهم يرفضون الخضوع للبابويّة، وقُتلوا، باسم الإيمان، بيد مسيحيّين آخرين، كانوا يدافعون عن البابويّة.

كان أسقف "بريسوف" اللوثري، "يان ميدرياك" (Jan MIDRIAK)، **واقفاً إلى جواره: بعد الصلاة الصامتة، حيّى البابا وشكر له مجيئه إلى هذا المكان. وصَلّيا معاً صلاة "أبانا". وقد صرّح للصحفيّين بعد ذلك:**

"حقّاً لقد تأثّرنا جداً بهذه المبادرة. وما كنّا قطّ نتصوّر أنّ شيئاً من ذلك قد يحدث".

وقد ذكر البابا، بعد عودته إلى روما، هذه المبادرة، خلال لقاء عمومي:

« إنّ حفل التقديس هذا، كان أيضاً حدثاً مسكونيّاً هامّاً، كما اتّضح ذلك، سواء خلال لقائي مع ممثّلي الجماعات البروتستانتيّة، أو زيارتي للأمكنة التي تذكّر بموت مجموعة من أتباع الإصلاح، الذين حُكم عليهم في القرن السابع عشر باسم المبدأ القائل بأنّ الناس على دين ملوكهم. وقد شُيّد صرحٌ في مدينة "بريسوف"، تذكيراً بهذا الموت، وتوقّفتُ أمامَه للصلاة. »

طرد البروتستانتيّين الظالم:

إنّ النص الثالث أكثر قِدَماً وأدنى صراحةً، ولكنّه، كالنصَّين السابقَين، يسلّم بتحمّل ثقل ضغينة الطرف الآخر، أولئك الذين كانوا الأعداء، أثناء الحروب الدينيّة، وهو، في النتيجة، يحتوي بذور هذين التصريحَين الأكثر إفصاحاً، وهو يستبقهما في جوهر معناهما. وقد تلفّظ البابا بهذه الكلمات في سالزبورغ، خلال احتفال ديني مسكوني في كنيسة الجماعة البروتستانتيّة. فإنّ سالزبورغ، بفضل البراعة الدبلوماسيّة لرئيس أساقفتها "باريس لودرون" (Pâris LODRON) (1619-1653)**، لم تعرف الحروب الدينيّة. ولكنّها تحمّلت، مع ذلك، نتائجها، بعد ذلك بقرن، عندما أصدر رئيس الأساقفة "ليوبولد دو فيرميان"** (Léopold De FIRMIAN)**، عام** 1731**، أمراً بطرد ثلاثين ألف بروتستانتي، أي ما يساوي** 15٪ **من سكان الإمارة، الذين كان ذنبهم الوحيد أنّهم قاوموا، في وديان جبال الألب، الحملات التبشيريّة التي كانت تنظَّم بصورة منتظمة، من أجل حملهم على التخلّي عن إيمانهم** (30)**. هذا هو الجرح الذي وضع عليه يوحنا بولس الثاني بلسم كلماته، عام** 1988**، أي بعد الحدث بمائتين وسبعة وخمسين عاماً:**

« ولكنّنا في سالزبورغ، التقينا أيضاً كنيسة الإصلاح. وهذا يقودنا هنا

إلى تذكّر طرد البروتستانت المحلّيّين، بصورة تعسّفيّة، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكان يُظنّ عندها أنّ الطرد أمرٌ واجبٌ، عملاً بالمبدأ البائس: "الناس على دين ملوكهم". ولقد طلب رئيس أساقفة سالزبورغ، منذ سنوات، باسم أبرشيّته كلّها، الغفران من الإخوة والأخوات البروتستانت، بسبب الظلم الذي مورِس بحقّهم على هذا النحو. وإنّ الحدث الراهن الذي يتيح لنا أن نصغي معاً إلى كلمة الله، وأن نصلّي معاً باسم يسوع، في كنيسة المسيح الإنجيليّة، هو البرهان الملموس بأنّ طلب الغفران هذا قد قُبل في القلب، واقتادنا إلى المصالحة. » (سالزبورغ، النمسا، في 1988/6/26، لقاء في كنيسة الجماعة البروتستانتية)

إنّ فضيحة الحروب الدينيّة قد قادت أوربا إلى الإلحاد. فيتوجّب على الكنيسة، إذن، أن تُبدي من التصميم على التكفير عنها بقدر ما كانت نتائجها سلبيّة. وإن الأب "جورج كوتييه"، وهو لاهوتي البابا، يتكلّم عنها بهذه العبارات:

« بعض المسيحيّين ارتضَوا، خصوصاً في بعض القرون، أن يستخدموا أساليب خاليةً من التسامح، بل عنيفة، بقصد خدمة الحقيقة. نحن نعلم أنّه، في نشوء الإلحاد الحديث، كانت مشاعر العداء المتبادل، الذي كان المسيحيّون المنشقّون يتبادلونها حيال بعضهم البعض، قد شكّلت عبئاً ثقيلاً، وشككت العقول التي لم تكن قد فقدت معنى الاعتدال واحترام القريب. كيف كان يمكن الدفاع عن الإنجيل، باعتماد وسائل تُناقِض جذريّاً روح الإنجيل؟ إنّ الرابطة الجوهريّة التي يريد بعضهم أن يقيموها بين روح التسامح والإلحاد المبدئي، لم تكن سوى الردّ المحزن على تطرّف الحروب الدينية. » (31)

الفصل التاسع

هوس، كالفان وزفانكلي

إنّ "إقراراً صادقاً بالأحداث" يقود إلى إعادة كتابة التاريخ، وإلى إبراز "العظمة الروحيّة" التي لأعداء الأمس. رأينا ذلك في الفصل الخاص بالحروب الدينيّة، وسنراه أيضاً في الفصل الخاص بلوثر، أكثر مَن شُهّر به من الأعداء، ولكنه أيضاً أكثر من حظيَ، حتى اليوم، بالاعتبار.

إنّ البابا يوحنا بولس الثاني قد دعا للنظر، بعينٍ جديدة، إلى أعداء الأمس، الذين يحتلّ بينهم المصلحون "هوس" (HUS) و"كالفان" (CALVIN) و"زفانكلي" (ZWINGLI) محلاً رفيعاً. وقد تحدّث عنهم خلال زياراته للبلدان التي احتضنت الدور الذي لعبوه في الإصلاح، والتي لا تزال الجماعات التي أسّسوها، تعيش فيها.

"يان هوس" (Yan HUS):

في شهر نيسان من عام 1990، إبّان زيارته ليوغوسلافيا سابقاً، راجع يوحنا بولس الثاني الحكم بحق الإصلاحي التشيكي "يان هوس"، الذي حُرم عام 1411، وحُكم عليه بالحرق من قبل مجمع "كونستانس" (CONSTANCE)، وأُحرق حيّاً عام 1415. وفي هذه المراجعة، يعود البابا إلى مداخلة للكردينال "بيران" (BERAN) خلال المجمع الفاتيكاني الثاني، مشيراً بذلك إلى أحد المعلّمين الذين استلهمهم مشروعه في مراجعة التاريخ على ضوء الإنجيل:

« أتذكّر أنّ الكردينال "جوزيف بيران" (Josef BERAN)، وهو رئيس أساقفة تشيكي، قد تدخّل بقوة ليدافع عن مبادئ الحريّة الدينيّة والتسامح، فذكر بعباراتٍ مؤلمةٍ مصير "يان هوس"، وهو كاهن من

"بوهيميا" (BOHÊME)، وأبدى أسفه للتجاوزات التي مورِست في تلك الفترة، وفي الفترة اللاحقة. إنّها لماثلةٌ في ذهني حتى الآن، هذه الكلمات التي قالها الكردينال، رئيس أساقفة براغ، بشأن هذا الكاهن، الذي لعب دوراً بالغ الأهمية في التاريخ الديني والثقافي للشعب البوهيمي. وسيعود إلى الخبراء – وبالدرجة الأولى إلى اللاهوتيّين التشيكيّين – أن يحدّدوا على نحو أدقّ، المكان الذي يحتلّه "يان هوس" بين إصلاحيّي الكنيسة، إلى جانب وجوه شهيرة أخرى، من إصلاحيّي القرون الوسطى في "بوهيميا"، مثل "توماس دو ستيتني" (Thomas DE STITNY) و"جان ميليش دو كروميريز" (Jean Milic De KROMERIZ). وإلى ذلك، لا يسعُنا، في ما هو أبعد من القناعات اللاهوتيّة، أن ننكر على "يان هوس" نزاهة حياته الشخصيّة، ولا جهوده من أجل تعليم الأمّة وتربيتها الأخلاقية. » (براغ، في 1990/4/21، لقاء مع المثقّفين)

وفي الواقع، فإنّ مداخلة الكردينال "بيران" في المجمع، خلال النقاش حول الإعلان عن الحريّة الدينيّة، في 1965/9/20، كانت خارقة:

« في كلّ زمان، وفي كلّ مكان، يولّد خرق حرية الضمير الرثاء لدى الكثيرين. وربّما يجوز لنا أن نؤكّد أنّ الرثاء في الإعلان عن الإيمان، أكثر إساءةً إلى الكنيسة من الرثاء للتستّر على الإيمان، الذي بات اليوم أكثر انتشاراً.

لذلك، تبدو الكنيسة اليوم، في وطني، وكأنّها تكفّر عن الأخطاء والخطايا، التي ارتُكبت باسمها بالأمس، ضد الحرية الدينية، كما كانت الحال في القرن الخامس عشر بالنسبة إلى مَحرَقة الأب "يان هوس"، أو في القرن السابع عشر، من أجل العودة القسريّة إلى الإيمان الكاثوليكي، لقسمٍ كبيرٍ من شعب "بوهيميا"، تبعاً لمبدأ "الناس على دين ملوكهم".

إنّ هذا الاعتماد على السلطة الزمنيّة، إذ أريد له أن يخدم الكنيسة الكاثوليكيّة، أو هكذا ادُّعي، ترك، في الواقع، جرحاً ثابتاً في قلب السكان. وإنّ هذه الصدمة قد حالت دون التقدم الديني، وقد وفّرت أيضاً لأعداء الكنيسة حجّة سهلة في سبيل طعنها. فالتاريخ يحذّرنا، إذن، من أنّه يتوجّب على هذا المجمع أن يعلن مبدأ الحريّة الدينيّة وحريّة الضمير، بكلمات واضحة جداً، وخالية من أيّ تحفّظ قد تمليه دوافع انتهازيّة. وإن نحن فعلنا ذلك، مدفوعين أيضاً بروح التكفير عن خطايا الماضي، فإنّ السلطة الأدبيّة للكنيسة ستكبر كثيراً، وإنّ في ذلك لأعظم الخير لشعوب كثيرة. » (33)

في محطة أولى، كان اسم "هوس"، واسما "سافونارولا" (SAVONAROLE) و"برتولوميو دو لاس كاساس" (Bartolomeo De LAS CASAS)، وقد ذُكروا في إطار لجنة اللاهوت والتاريخ، التي كان يوحنا بولس الثاني قد كلّفها إعداد فحص الضمير في نهاية الألفيّة، فحص الضمير هذا الذي كان سيقود إلى إقرارات بالأخطاء، وإلى طلبات للغفران. وقد تحدّثنا عن ذلك في الفصل التاسع من القسم الأوّل، ورأينا أنّ اللجنة تخلّت عن فكرة دراسة حالات منعزلة لشخصيّات تاريخيّة، كي تتفرّغ لدراسة مسألتَين رئيسيتَين هما: اللاسامية ومحاكم التفتيش. ربما كان محقّاً ألا تهتمّ منظمة مركزيّة بحالات منعزلة، لا سيما تلك التي تطغى عليها خصائص محليّة. ربما كان من المعقول ترك هذه الأمور للجماعات الكنسيّة الوطنيّة.

وفي الواقع، فإنّ الكاثوليك والبروتستانت من سكان "بوهيميا"، يهتمّون حالياً بقضية "هوس". وقد تكلّم الكردينال "ڤيك" (VIK)، رئيس أساقفة براغ، عن ذلك، بهذه العبارات:

« لقد أنشأنا لجنةً مسكونيّةً لتدرس شخصية "يان هوس" وحياته: بذلك أبدعنا أساساً نموذجيّاً من التعاون والحياة والحوار، يسوده مناخ أخوي جداً. » (33)

وقد أُتيح لهذا الحوار أن يُثمر. ففي 1995/7/6، وفي "كنيسة بيت لحم" (حيث انطلق عام 1400 تبشير "هوس" الإصلاحي)، شارك الكردينال "ڤيك" في إحياء ذكرى المصلح التشيكي: كانت تلك المرة الأولى التي يشترك فيها ممثّل عن الكنيسة الكاثوليكيّة، في مثل هذا الاحتفال. "هذه المبادرة الأولى" استندت إلى مواقف البابا يوحنا بولس الثاني ومبادراته التصالحيّة، إبّان زيارته للجمهوريّة التشيكيّة، ولجمهوريّة سلوڤاكيا خلال الأسابيع السابقة.

"كالفان وزفانكلي":

تحدّث يوحنا بولس الثاني عن الإصلاحيّين السويسريّين، أثناء زيارته للاتحاد السويسري في شهر حزيران عام 1984، خلال لقاء مسكوني، وقد أقرّ لهما بـ"قصد جعل الكنيسة أكثر وفاءً لربّها":

« هذا العام، نستحضر في فكرنا ذكرى الغَيرة التي كانت تحرّك شخصيّتَين دينيّتَين بارزتَين في تاريخ سويسرا: إحداهما، "هولدريخ زفانكلي" (Huldrych ZWINGLI)، الذي تحْيون ذكراه المئويّة الخامسة بشتّى التظاهرات، تكريماً لشخصه وعمله؛ والثانية، "جان كالفان" (Jean CALVIN)، الذي وُلِد منذ أربعمائة وخمسة وسبعين عاماً.

نلمس التأثير التاريخي لشهادتهما، ليس في دائرة اللاهوت والبنية الكنسيّة وحسب، بل أيضاً في الميدان الثقافي والاجتماعي والسياسي. فإنّ ما تركه كلّ من هذين الرجلَين، من إرثٍ فكريّ وخيارات أخلاقيّة، يتواصل حاضراً حتى اليوم، بقوة واندفاعٍ، في مختلف القطاعات المسيحيّة. فمن ناحية، لا يسعنا أن ننسى أنّ عملهم الإصلاحي يظلّ تحدّياً قائماً بيننا، ويجعل انقساماتنا الكنسيّة أبداً راهنة. ولكن، من ناحية أخرى، فليس بوسع أحد أن يُنكر أنّ هناك عناصر في لاهوت وروحانيّة كلّ منهما، تنسج روابط عميقة بيننا. إنّ واقع اختلافنا في الحكم بطرق

متغايرة على أحداث تاريخ الأمس المعقدة، والاختلافات المستمرة في مسائل مركزيّة من إيماننا، كلّ ذلك لا يجوز له أن يُبقينا على انقسامنا بصورة دائمة. وإنّ ذكرى الأحداث الماضية خصوصاً، لا يجوز لها أن تقلّص حريّة جهودنا الحالية، من أجل إصلاح الأضرار التي سبّبتها هذه الأحداث. فإنّ تنقية الذاكرة عنصر رئيسي في التقدم المسكوني، وهي تنطوي على الإقرار الصريح بالإساءات المتبادلة، والأخطاء المرتكبة في الطريقة التي حدثت فيها ردود أفعالنا، حيال بعضنا البعض، في حين أنّ الجميع كانوا يريدون أن يجعلوا الكنيسة أكثر وفاءً لربّها.

ربما سيأتي اليوم – وإنّي لأرجوه وشيكاً – الذي يصبح فيه الكاثوليك وأتباع الإصلاح في سويسرا، قادرين معاً على كتابة تاريخ تلك الحقبة المضطربة والمعقّدة، بالموضوعيّة التي تُمليها محبّةٌ أخويّةٌ عميقةٌ. وإنّ مثل هذا الإنجاز سيُتيح لنا أن نسلّم الماضي، دونما تحفّظ، إلى رحمة الله، وأن نكون في حريّةٍ مطلقة، مشدودين نحو المستقبل، كي نجعله أكثر انسجاماً مع إرادته (راجع فيلبي 3: 13)، هو الذي يريد ألاّ يكون للمؤمنين به سوى قلبٍ واحدٍ وروحٍ واحدة (راجع سفر الأعمال 4: 24)، كي يتّحدوا في الإشادة بمجد نعمته والإعلان عنه (أفسس 1: 6). » ("كهرساتس" "KEHRSATZ"، سويسرا، في 1984/6/14، لقاء مع اتحاد الكنائس البروتستانيّة)

الفصل العاشر

هنـــود أميـــركا

بشأن هنود أميركا، فاقت أعمال البابا يوحنا بولس الثاني أقواله: لقد التقى، أكثر من أربعين مرة، هنود الأميركيّتين، والسكان الأصليّين في كل قارّة، وأقرّ خمس مرّات بالأخطاء التاريخيّة التي ارتكبها المسيحيّون بحقّهم.

ذات مرّة، صرّح أنَّ هؤلاء المسيحيّين "لم يعرفوا أن يرَوا في السكان الأصليّين إخوةً لهم": كان ذلك في 1992/10/13، في الذكرى المئويّة الخامسة لاكتشاف أميركا. وكان البابا قد سافر إلى "سانتو- دومنكو" (SAINTO-DOMINGO)، للاحتفال ببدء تبشير هذه الشعوب. في هذه المناسبة، وكانت أهمّها في هذا الميدان، قال أيضاً: "يتوجّب علينا أن نقوم بالاعتراف بالخطايا التي ارتُكبت لخمسة قرون خلت". وبعد عودته إلى روما، وصف هذا الحجّ بمثابة "فعل تكفير"، وهذا هو النصّ الثاني في هذا الاعتراف، وهو أقوى من الأوّل.

أما النصوص، الثالث والرابع والخامس، فقد سبقت النصّين الأوّلَين، وهي دونهما رسميّة، ولكنّها تحدّد بمزيدٍ من الوضوح مسؤوليّات المسيحيّين والكنيسة.

النص الأوّل قيل في كندا، وهو يعود إلى عام 1984، ويتعلّق بـ"أخطاء" المرسَلين و"الأضرار" التي سبّبوها.

النص الثاني يعود إلى عام 1986، يتوجه فيه البابا إلى سكان أستراليا الأصليّين، ويعترف فيه بأنّ "المسيحيّين ذوي النيّة الصالحة" المعاصرين قد تأخروا في التنبّه للمضايقات التي أخضعوهم لها بالأمس، والتي يرهقونهم بها حتى اليوم.

آخر هذه النصوص، يعود إلى عام 1987، وقد ألقاه البابا بمناسبة لقائه بهنود الولايات المتحدة، وهو يعترف فيه بأنّ بعض أعضاء الكنيسة كانوا في جملة الأشخاص الذين مارسوا "القمع الثقافي" و"تفكيك" حياتهم.

آلام هائلــة:

هوذا أوّل هذه النصوص الأربعة:

« كيف يسعُ الكنيسة، التي كانــت دائمــاً، برهبانهــا وكهنتــها وأساقفتها، مع السكان الأصليّين، أن تنسى، في هذه الــذكرى المئويــة الخامسة، الآلام الهائلة التي أُنزلت بــشعوب القــارّة في عهــد الفــتح والاستعمار؟ يجب أن نقرّ بكلّ صدق، بالتجاوزات التي ارتُكبت، مــن جرّاء غياب الحبّ لدى هؤلاء الأشخاص، الذين لم يعرفوا أن يــرَوا في السكان الأصليّين، إخوةً وأبناء لله الآب بالذات. » (رسالة إلى هنــود أميركا، "سانتو-دومنكو"، في 1992/10/13)

فعل تكفير:

بعد عودته إلى روما، وخلال مقابلةٍ عموميّة، ذكر يوحنا بولس الثاني هذا اللقاء (ويبدو لنا أنّ هذه هي المناسبة الوحيدة التي وصف فيها إحدى مبادراته بـ"فعل تكفير"):

« في حجّي إلى المكان الذي انطلق منه التبشير بالإنجيل، هذا الحجّ الــذي اتّخذ صفةً فعل شكر، شئنا، في الوقت نفسه، أن نقوم بفعل تكفــير حيــال قداسة الله اللامتناهية، بسبب كلّ ما وسم هذه الانطلاقة نحو القارة الأميركيّة، من خطيئةٍ وظلمٍ وعنف. وبهذا الصدد، كان هناك مبشّرون، قدّموا شــهادات مدهشة. حسبُنا أن نذكر منهم أسماء: "مونتيــسينوس" (MONTESINOS)، "لاس كاساس" (Las CASAS)، "كوردوبا" (CORDOBA)، "فرا خوان ديل فاليه" (Fra Juan DEL VALLE)، وآخرين كثيرين...

وبعد ذلك بخمسمائة عام، نمثُل أمام المسيح، وهو سيّد تــاريخ البــشريّة كلّها، لنلفظ كلمات الصلاة التي علّمنا أن نوجّهها لــلآب: "واغفــر لنــا خطايانا، كما نحن نغفر أيضاً" (متّى 6: 12). إنّ صلاة الفادي تتوجّه للآب، كما هي تتوجّه، في الوقت نفسه، إلى الناس الذين كانوا ضحايا مظالم مختلفة.

نحن لا نكفّ عن القول لهؤلاء الناس: "سامحونا!" وإنّ طلب الغفران هذا، يتوجّه خصوصاً إلى سكان هذه الأراضي الجديدة، الأصليّين، إلى "الهنود"، وكذلك أيضاً، إلى الذين هُجّروا إليها من أفريقيا، بصفة عبيد، ليقوموا فيها بأقسى الأعمال. » (مقابلة عمومية، في 1992/10/21)

أخطاء المرسَلين:

قبل ذلك بثماني سنوات، كان يوحنا بولس الثاني، في كندا، قد أشار، في تلميح نادر، إلى مسؤوليّات المرسَلين التاريخيّة، وقد أكمل ذلك بالتزام رسمي بشأن الحاضر، يشبه إلى حدٍّ بعيد، تصحيحاً صريحاً لتعليم الماضي.

« إنّ التاريخ يبرهن، عبر القرون، أنّ شعوبكم كانت، مرّات كثيرة، ضحايا مظالم ارتكبها القادمون الجدد، الذين كانوا – في الغالب – يرَون، في عَماهم، أنّ ثقافتكم كلّها ثقافة منحطّة. [...] والمرسَلون، أيّة كانت خطاياهم وعيوبهم، وأيّة كانت أيضاً الأخطاء التي ارتُكبت، والأضرار التي نجمت عنها دون قصد منهم، فإنهم يحاولون اليوم، أن يعوّضوا عنها. [...] اليوم، أريد أن أعلن هذه الحريّة الضروريّة من أجل إجراء مُحِقّ وعادل، في تقرير مصيركم في حياتكم كشعوب أصليّة. وبدعم من الكنيسة كلّها، أُعلن لكم جميع حقوقكم، وما ينتج عنها من التزامات. كما أنّي أدين القمع الجسدي والثقافي والديني، وكلّ ما من شأنه أن يحرمكم، أنتم أو أيّة مجموعة أخرى، ممّا يعود لكم من حقّ. » ("يلو نايف" "YELLOW KNIFE"، كندا، في 1984/4/18، لقاء مع الهنود)

قبل ذلك بأيّامٍ قليلةٍ، خلال لقائه الأوّل مع السكان الأصليّين، في كندا، كان قد قال:

« إنّ لقاءكم مع الإنجيل لم يُغنِكم أنتم وحدكم، بل أغنى الكنيسة أيضاً. ونحن نعرف أيضاً، أنّ ذلك لم يحدث دون مصاعب، وأحياناً دون سوء تصرّف. » ("سانت آن دو بوبريه" " SAINTE-ANNE DE BEAUPRÉ"، كندا، في 1984/9/10، لقاء مع السكان الأصليّين)

في هذا النقد الذاتي الذي يقوم به البابا، نسمع صدى الأقوال التي نطق بها المندوب الرسولي في واشنطن، المنسنيور "پيو لاكي" (Pio LAGHI)، قبل ذلك بعام، في شهر أيلول 1993، في مؤتمر "تيككفيتا" (TEKAKWITHA)، أمام مندوبي السكان الهنود في أميركا الشمالية كلّها:

« إنّ الكثيرين من المرسَلين، إذ علّموكم المسيحيّة، نقلوا إليكم الشعور بأنّ مؤسّساتكم الثقافيّة منحطّة. لذلك، فنحن لا نعرب عن أسفنا وحسب، ولكنّا نسألكم الغفران. » (35)

مسيحيّون محزونون:

إنّ الرسالة التي يوجّهها يوحنا بولس الثاني إلى سكان أستراليا الأصليّين، في تشرين الثاني عام 1986، تجعل من النافل اتّهام العديد من المسيحيّين، بانعدام الشعور لديهم، إزاء مأساة السكان الأصليّين:

« إنّ المسيحيّين ذوي النيّة الصالحة، يشعرون بالحزن إذ يلحظون – والكثيرون منهم منذ مدّة قريبة – كم من مرّة تعرّض سكان هذه البلاد الأصليّون، لفترة طويلة، لنقلهم بعيداً عن أراضيهم، كي يُرغَموا على الإقامة في مناطق ضيّقة، أو منعزَلات، حيث تحطّمت العائلات، والقبائل تشتّتت، والأطفال يُتِّموا، واضطر الناس للعيش كالمنفيّين في بلد غريب. » ("أليس سبرينغز" "ALICE SPRINGS"، أستراليا، في 1986/9/29، خطاب للسكان الأصليين)

استخلاص العبر من أخطاء الماضي:

ربما كان انعَدام الشعور حيال هنود أميركا، في الولايات المتحدة، أكثرها رمزيّةً، ومسؤوليّة الكاثوليك أقلّها وضوحاً. ولكن يوحنا بولس الثاني، لم يعُد يتوقّف بعد اليوم، عند هذه الاعتبارات، وهو، إذ يتكلّم عن مسؤوليّة المسيحيّين، يعني حقّاً جميع المسيحيّين، ويُبدي استعداداً لتحمّل خطايا حتى الذين قد يرفضون أن يعتبروه ممثّلاً لهم:

« إنّ اللقاء الأوّل بين ثقافاتكم التقليديّة ونمط الحياة الأوروبّي، كان حدثاً ذا أهميّةٍ كبيرةٍ، وقد حمل لكم من عظيم التغيير، ما يستمر تأثيره

العميق حتى اليوم على حياتكم الراهنة؛ ولقد كان هذا اللقاء واقعاً قاسياً ومؤلماً لشعوبكم. يجب أن نعترف أمامكم بالقمع الثقافي والمظالم وتدمير حياتكم ومجتمعاتكم التقليديّة. [...] من المؤسف أنّ جميع أعضاء الكنيسة لم يكونوا على مستوى مسؤوليّاتهم بوصفهم مسيحيّين. ولكن لا نبالغنّ بصورة مفرطة في ذكر الأخطاء والإساءات، حتى لو كنّا نسعى إلى إلغاء نتائجها الحالية. [...] اليوم، نحن مدعوّون لاستخلاص العبر من أخطاء الماضي، ويجب علينا أن نسعى معاً للمصالحة ولمداواة الجراح، بوصفنا إخوة وأخوات في المسيح. » ("فينيكس" "PHOENIX"، الولايات المتحدة، في 1987/9/14، لقاء مع هنود أميركا الشمالية)

إنّ الاعتراف بالذنب إزاء الهنود والسكان الأصليّين في جميع البلدان، هو، إذن، إقرارٌ كريم. ولكن الاعتراف بالخطايا هو أحد أكثر الموضوعات إثارة للجدل في الكنيسة الكاثوليكيّة. فإن كان البابا يقرّ بأخطاء المرسَلين، فثمّة من المرسَلين مَن هم، بكلّ صدق، مستاؤون. وإن هو تحدّث عن الأخطاء العامّة للمسيحيّين، فهو يؤيّد، دونما قصد منه، تيّاراً ما، لأسقفٍ ما، ومجموعةٍ ما، كنسيّة متشدّدة، أو مؤرّخاً ما معادياً للكنيسة، وقد يجرح تيّارات الغالبيّة وأكثر المجموعات وفاءً. وقد يحدث أيضاً، أن يضطر البابا لتصحيح هذا النقد الذاتي، أو تتميمه بالتذكير بالإنجازات الطيّبة.

هوذا أوضح الأمثلة على مثل هذا النمط من الدفاع الاسترجاعي، بشأن الهنود. إنّه خطابٌ لمجموعةٍ من الأساقفة البرازيليّين خلال زيارتهم التقليديّة لروما. وقد أُلقيَ بعد ثلاث سنوات من "اعتراف سانتو-دومنكو"، ويبدو أنّه يأخذ بالاعتبار رأي الأساقفة الذين لم يشاطروه الرأي:

« بالطبع، أنتم تعرفون جيّداً، أنّ الظلال لم تكن غائبةً عن تاريخ ماضيكم: فثمّة قرارات وسلوكات تبدو مؤسفةً، حتى لو أخذنا بالاعتبار الاختلاف في المفاهيم الفلسفيّة والثقافيّة في ذاك العصر. إلاّ أنّ ذلك لا

يجوز أن يقودنا إلى احتقار النتائج الخارقة، الناجمة عن الجهد السخيّ الذي بذله روّادٌ كثيرون، ساهموا، لقاء تضحياتٍ ضخمةٍ، في نشر بذار الإنجيل في البلد. [...]

إنّ الكنيسة تنظر إلى هذا الماضي بطمأنينة الواجب المنجز، على الرغم من الصعاب التي اضطر هذا التبشير لمواجهتها، في هذا السياق الاجتماعي والتاريخي.

إزاء السكان الأصليّين، لم تكّف الكنيسة يوماً عن رفع صوتها بقوّةٍ وصفاء، عبر كلمات سلَفي بولس الثالث، الذي أدان بعنف المحاولات الهادفة إلى تحويل هؤلاء الرجال إلى عبيد (راجع البراءة "الإله المتعالي"، عام 1537). في الممارسة وفي القانون الكنسي، وعلى الرغم من العقبة المتمثّلة في الوسط الثقافي، فإنّ هنود أميركا الجنوبيّة انتزعوا الاعتراف بكرامتهم الإنسانيّة وبالحقوق الناجمة عنها. على هذا الصعيد، فإنّ خبرة الإيمان التي حقّقتها مؤسسة الإرساليّات ذات دلالة، هي التي اعترفت بجميع الجوانب الإيجابيّة في الثقافة المحليّة، وتبنّتها، فشجّعت مواهبها وفنونها وفعاليّاتها، ووجّهت بأسلوبها التربوي الهنود نحو معرفة الحقيقة الموحى بها، ودافعت عنهم ضدّ الذين كانوا يريدون أن يستثمروهم.

لا يسعنا اليوم إلا أن نُعجب بالحدس الرعوي، لدى المرسَلين الأوّلين الذين استقبلوا، بمودّة، أنبل ما وجدوا في هذا العالم الثقافي، من ذلك الطابع القدسي المنسوب إلى الخليقة، الاحترام للطبيعة الأم، اندماج الإنسان في حضنها، روح التضامن الجماعي بين الأجيال، التوازن بين العمل والراحة، الوفاء للحريّة ومحبّتها. فإنّ هؤلاء المبشرين بالإنجيل، إذ أضاؤوا كلّ ذلك بتعليم الإنجيل الصريح، ودمجوه، مصعّدين إيّاه، في التراث المسيحي، انتهَوا بذلك إلى نتاجٍ حيٍّ وأصيل، فحقّقوا مثاقفةً إيمانيّةً حقيقيّة. » (إلى مجموعة من الأساقفة البرازيليين، في 1995/4/1)

من المرجّح أنّ البابا سيتحدّث، من جديد، عن السكان الأصليّين، وأنّه سيتابع إعادة قراءته للتاريخ. وقد أقرّت الأمم المتحدة عقداً دوليّاً للسكان الأصليّين (1994/12/10 – 2004/12/10)، **يندرج فيه العام** 2000، **والكلّ يعلم أنّ يوحنا بولس الثاني يتابع بيقظةٍ كبيرةٍ، حملات الأمم المتحدة. ولدينا الانطباع أنّه أعطى الكثير في هذا الميدان، ولكنّه لم يعطِ كلّ ما لديه.**

كما لاحظنا في فصول أخرى من هذا النقد الذاتي، فإنّ الكنائس غير الكاثوليكيّة تبدي بشأن السكان الأصليّين أيضاً، قدرةً على التحدّث بحريّة أكبر. وهكذا، ففي الوثيقة الختاميّة للمؤتمر المسكوني العالمي في "سيول" (SÉOUL)، 5–1990/3/12، **يسعنا أن نقرأ:**

« لنُقِم تحالفاً كي نتّخذ من الذكرى المئويّة الخامسة لاكتشاف أميركا، مناسبة، لا للاعتزاز، بل للاعتراف والتكفير والتوبة، بسبب الإبادة العنيفة للسكان الأصليّين واستغلالهم. » (36)

ولكن، داخل الكنيسة الكاثوليكيّة بالذات، دعت أصوات إلى نقد ذاتي جذري حول الاستعمار- التبشيري لأميركا اللاتينيّة: لم يشأ يوحنا بولس الثاني - وقد لن يستطيع يوماً - أن يتبنّاها بمفرده، ولكن ليس بمستبعدٍ أن يأخذها يوماً بعين الاعتبار. حسبُنا أن نذكر أحد هذه الأصوات، وهو تأمّلٌ خارقٌ أجراه وهو على سرير الموت عام 1988، **أسقف "ريو بامبا"** (RIO BAMBA) **(الإكوادور)، "ليونيداس برو آنو"** (Leonidas PRO ANO):

« فجأةً، اجتاحتني خاطرة، فكرة ثابتة: وإن كانت الكنيسة هي وحدها المسؤولة عن كلّ هذا العبء الساحق، الذي فُرض على الهنود أن يتحمّلوه منذ قرون! يا للألم! يا للألم! إنّي أحمل على كتفيّ ثِقل القرون هذا! » (37)

ربّما، ذات يوم، سيمضي بابا خُلاسي إلى ما هو أبعد من طلب الغفران الذي قام به يوحنا بولس الثاني، وسيتلفّظ بكلمات قادرة على تبنّي وصية المطران "ليونيداس".

الفصل الحادي عشر

المظالم

إنّ فصل المظالم فصلٌ ناقصٌ: فالبابا يوحنا بولس الثاني قلّما تكلّم عن مسؤوليّات المسيحيّين والكنيسة في هذا الميدان الواسع. كما في أمر الأنظمة المستبدّة، فقد وضع العنوان، وحدّد الموضوع، ولكنّه لم يتوسّع فيه بعد. وقد طُرحت المسألة على هذا النحو في الرسالة الرسوليّة التي قدّمت مشروع اليوبيل الكبير:

« ألا يجب أن نأسف، في جملة ظلال الزمن الحاضر، لاشتراك العديد من المسيحيّين في المسؤوليّة، إزاء أشكالٍ خطيرةٍ من الظلم والتهميش الاجتماعي؟ يسعُنا أن نتساءل ما هو عدد الذين يعرفون بعمقٍ توجيهات تعليم الكنيسة الاجتماعي، ويمارسونه بطريقة سليمة. » (رسالة رسوليّة "في حلول الألفيّة الثالثة"، 1994/11/14، فقرة 36)

وكان البابا، قبل ذلك بسنتين، قد أوضح ما يسمّيه هنا "المشاركة في المسؤوليّة"، إزاء أشكالٍ من العنف الاجتماعي، والتي قال عنها إنّها "خطيئة ضد المحبّة":

« يجب أن نعترف بذلك: لما كانت الكنيسة جماعةً تتألّف أيضاً من خطأة، فإنّ المخالفات ضد وصيّة المحبّة، لم تكن غائبةً طوال تاريخها. أعني بذلك مخالفات أفراد وجماعات كانت تتحلّى باسم مسيحيّة، على صعيد العلاقات المتبادلة، سواء كان ذلك على صعيد العلاقات بين الأفراد، أو على الصعيد الاجتماعي والدولي. إنّه الواقع المؤلم الذي نكتشفه في تاريخ الناس والدول، وأيضاً في تاريخ الكنيسة. والمسيحيّون، إذ يُدركون دعوتهم الخاصة في التزام الحب أسوةً بالمسيح، يعترفون في اتّضاعٍ وتوبةٍ بهذه الخطايا بحقّ

الحبّ، دون أن يتخلّوا عن إيمانهم بالحب الذي، كما يقول القديس بـــولس، "يتحمّل كلّ شيء" و"الذي لن ينتهي أبداً" (1 كور 13: 7–8). ولكـــنْ إن كان تاريخ البشريّة والكنيسة بالذات، حافلاً بالخطايا المؤسفة بحقّ المحبّة، يجب علينا، في الوقت نفسه، أن نقرّ بفرحٍ وشكرٍ، أنّ جميع القرون المـــسيحيّة لا تخلو من الشهادات الرائعة التي تعزّز الحب، والتي تكون – في الغالب – كما ذكّرنا بذلك، شهادات بطولية. » (لقاء عمومي، في 1992/6/3)

تقاسم المسؤوليّة في المظالم، خطايا ضدّ المحبّة، الامتناع عن التنديد بالظلم: إنّ البابا اعترف أيضاً، ذات مرّة، بخطيئة الإهمال هذه، إذ كان يتحدّث إلى الشبيبة في "ستراسبورغ"، في تشرين الأول عام 1988:

« إنّ الأرض هي ملكٌ لله، ولكنّها أُعطيَت للبشر جميعاً. إنّ الله لا يريد تخمة البعض، والمجاعة للآخرين، الوفرة لبعضهم لأنّ أرضهم سخيّة، والبؤس للآخرين لأنّهم لا يملكون الحظ. لا يجوز أن تكون هناك امتيازاتٌ للأغنياء والأقوياء، والظلم للفقراء والمعاقين. [...] هل الكنيسة تصرّح بذلك، بقوّة كافية؟ ربّما لا! إنّ أعضاء الكنيسة يعانون أيضاً من ضعف. إنّنا نـــشكّل الكنيسة، أنتم وأنا. » ("ستراسبورغ"، في 1988/10/8، لقاء مع الشبيبة)

يُقال إنّ يوحنا بولس الثاني يُقرّ بخطايا المسيحيّين، ولكنّه لا يُقرّ أبداً بخطايا الكنيسة. وفي هذا النصّ، استخدم هو كلمة "كنيسة". وقبل ذلك بثلاث سنوات، كان قد اعترف، في شهر أيار 1985، **إذ كان يتكلّم أمام الجمعيّة الاقتصاديّة الأوروبيّة في بروكسل، عن المسؤوليّة المشتركة للمسيحيّين، في الظلم الدولي الذي يتمثّل في الاستعمار:**

« إنّ سابقينا، مع ذلك، شقّوا أيضاً الدروب نحو أراضٍ أخرى مأهولة. كانوا مدفوعين برغبة معرفة هذا العالم الذي ائتُمِن عليه الإنسان. ونظـــراً لتقدّمهم التقني، انطلقوا لاكتشاف قارّات جديدة بالنسبة إليهم. يا للمغامرة المفاجئة! لقد مضَوا يغرسون الصليب، ويُشركون الآخـــرين في الرجـــاء

المسيحي، ونشر التطور الفكري والتقني. ولكنهم كانوا، إلى ذلك، فاتحين! فزرعوا ثقافتهم، واستولَوا على ثروات جماعاتٍ عرقيّةٍ أخرى، وفي معظم الأحيان احتقروا تقاليدهم الخاصة، وأخضعوهم، بقسوة، لسلطتهم. » (بروكسل، 20 أيار 1985، خطاب في مركز الجماعة الاقتصادية الأوربية)

يسعُنا بهذا الشأن، أن نسوق نصّاً خامساً للبابا يوحنا بولس الثاني، وهو يتعلّق بكنوز الكنائس، وقد يكون أهمّ نصوصه، إلا أنّه لم يطوَّر. نجده في البراءة "اهتمامنا بالشأن الاجتماعي" (1988) الملتهبة بهوى العدالة، وهي تؤكّد في ما تؤكّده، واجب الكنيسة في "التخفيف من بؤس الذين يتألّمون، وذلك ليس فقط بما هو "فائض"، ولكن أيضاً بما هو "ضروري":

« وهكذا، فإنّ من صُلب تعليم الكنيسة وأعرق ممارسة لديها، القناعة بأنّها ملزمة بحكم دعوتها – هي بالذات، ومسؤوليها وكلّ من أعضائها – بالتخفيف عن بؤس المتألّمين، القريبين أو البعيدين، وذلك ليس فقط بما هو "فائض"، ولكن أيضاً بما هو "ضروري". وإذا ما اشتدّت الحاجة، لا يجوز منح الأولويّة للاسترسال في تزيين الكنائس بإفراط، والاهتمام بأواني الطقس الثمينة. وعلى العكس من ذلك، فقد يكون من الضروري بيع هذه الأواني، لتوفير الخبز والمشرب واللباس والمسكن، لَمن حُرموا منها. [...] من جهتي، أودّ أن أُلحّ أيضاً، على خطورة هذا الأمر وضرورته، وأسأل الرب أن يمنح جميع المسيحيّين القدرة على الانتقال إلى تطبيقه العملي بأمانة. » (البراءة "الاهتمام بالشأن الاجتماعي"، 1988/12/19)

إنّ هذه الدعوة إلى بيع كنوز الكنائس، لتوفير الخبز للفقراء، تحتوي نقداً ذاتيّاً، مبطَّناً، ولكن قويّاً جدّاً، لأفضليّات الماضي وأولويّاته، ذاك الماضي الذي جُمّعت فيه هذه الكنوز، فيما كان الجوع فيه أعظم فداحةً منه اليوم. إنّ ذلك هو أحّد أهمّ الموضوعات التي سيتركها البابا يوحنا بولس الثاني لخلفه: ففي الوقت الذي تُهجر فيه الكنائس، حيث وُضعت

كنوز العالم القديم، ويتوالى تضخّم الجماعات الكنسيّة الفقيرة في القسم الجنوبي من الأرض، فإنّ بيع هذه الكنوز لصالح الفقراء، سيفرض نفسه كخطوة طبيعيّة. من ذلك أنّ بطريرك البندقيّة، "ألبينو لوتشياني" (Albino LUCIANI)، الذي قُيّض له أن يصبح بابا لشهرٍ واحدٍ، تحت اسم يوحنا بولس الأول، كان، في شهر شباط 1976، قد دعا جميع كهنته إلى الإقدام على مثل هذه المبيعات. وقد يحدث ذلك، في فجر الألفيّة الثالثة، في جميع الكاتدرائيّات.

هناك صلاة أيّدها يوحنا بولس الثاني، وأُدرجت في الاحتفال المسكوني الذي أُقيم في ختام "السينودس الأوروبي" (1991)، تتضمّن طلباً للغفران من أجل الشهادات المضادة في ميدان العدالة، التي تُذكَر هنا مع خطايا أخرى:

« أيّها الرب، يا مُصالِحنا ضمن الجماعات المسيحيّة الأوروبيّة، إنّ انقساماتنا وأنانيّاتنا وشهاداتنا المضادة، يقدّمها أولئك الذين يدّعون الإيمان بالمسيح، دون أن يضعوا سلطتهم ونفوذهم في خدمة السلام والعدالة والحريّة، كلّ ذلك قد أضعف في وجدان الشعوب، الثقة في الحياة الجديدة التي حملتها. اغفر لنا وارحمنا. » (كنيسة القديس بطرس، 1991/12/7، احتفال مسكوني)

لم نعثر على نصوصٍ أخرى للبابا يوحنا بولس الثاني، نستطيع إدراجها في هذا الفصل. يسعُنا، إذن، بحقّ، أن نتوقّع سماع كلماتٍ أكثر وضوحاً، قريباً. ومن حقّنا، على كلّ حال، أن نتوقّعها من مسيحيٍّ بولونيٍّ عرف الظلم، ومن كاهنٍ كان عاملاً، ومن بابا أكّد مرّاتٍ كثيرةً (في "ميدلين" "MEDELLIN" مثلاً، في كولومبيا، يوم 1986/7/6) أنّ ما من أحدٍ "يستطيع أن ينتزع عَلَم العدالة من يد الكنيسة".

يسعُنا القول بأنّه صمّم تبشيره كلّه على أنه "تحدٍّ مسيحي حقّاً، في وجه مَن يملكون الأرض ويسيطرون عليها". (كما قال في الفيليبين، في خطاب إلى عمال قصب السكّر، يوم 1981/2/20)

لقد حرّض أساقفة العالم الثالث على "التنديد بخروقات العدالة، بوصفها مناقضة للإنجيل".(إلى أساقفة بوليفيا، في أيار 1988)

وقد ذكّر، ذات مرة، مسيحيّي الشمال بدينونة الله: "إنّ هذا الجنوب هو الذي سيدين الشمال الغني".(في "إدمونتون" "EDMONTON"، كندا، في 1984/9/17)

لم يعُد، إذن، يتبقّى له سوى تطبيق هذه المواقف على خطايا المسيحيّين في ميدان المحبّة والعدالة، وهو يحدّد المراحل والأمكنة، كما فعل ذلك في ميادين أخرى.

على كلّ حال، لئن كان البابا يوحنا بولس الثاني قد تكلّم قليلاً بهذا الشأن، فليس هناك مَن تفوّق عليه.

فالكردينال "دانيلس" (DANNEELS)، وهو المقرِّر العام للسينودس الخاص لعام 1985، قال في ردّه على الصحفيّين، يوم 1985/11/25، أي في اليوم نفسه الذي قدّم فيه تقريره للمؤتمر:

« لم نكن دائماً أوفياء لالتزامنا بالفقراء، ولاختيارنا المفضّل لصالح الفقراء.»

واستخدم المطران "كسْتريّون هويوس" (Castrillon HOYOS)، أمين السرّ العام لمجلس أساقفة أميركا اللاتينيّة، النبرة نفسها في مؤتمر صحفي آخر، عُقد أثناء السينودس ذاته:

« بعد "ميديلين"، تحاول الكنيسة أن تزيل أسباب الظاهرة الفاضحة للمظالم الفظيعة، التي نراها في قارّة كاثوليكية تقليديّاً. » (39)

وحده الكردينال البرازيلي "ألويزيو لورشايدر" (Aloisio LORSCHEIDER) تلفّظ، خلال انعقاد السينودس الذي كان يرمي إلى كيفيّة تطبيق المجمع الثاتيكاني الثاني، بكلماتٍ أشدّ انفعالاً، عندما دعا الكنيسة كلّها إلى "الأخذ بسيرورةٍ حقيقيّة تقوم على توبةٍ كلّية في نطاق الفكر والحياة والممارسة"، وقد رأى ضرورة ترجمته في الاتصال المباشر مع "الشعب الفقير"، وفي "موقف يتّسم بالإصغاء والاتّضاع والتجرّد".(40)

وفي الميدان المسكوني أيضاً، خجولةٌ هي أشكال النقد الذاتي على الصعيد الاجتماعي. فهوذا "إقرار بالخطايا"، يتعلّق بأشكال الظلم، ووقّعت عليه جميع كنائس أوروبا، وقد ذُكر في الوثيقة الختاميّة لمجلس "بال" (BÂLE) المسكوني، "عدالة وسلام"، (1989/5/20):

« في النزاعات الاجتماعيّة الكبرى، التي كان الرهان فيها على العدالة، ظلّت الكنائس، في الغالب، صامتة. » (41)

تحتوي الوثيقة الختامية للجمعية المسكونية العالمية في "سيول" (SÉOUL) (1990/3/12-5) هذا المطلب:

« تُقرّ الكنائس بأنّه يتوجّب عليها أن تتحرّر من تواطئها مع الأنظمة الاقتصاديّة الظالمة"، وفي نطاق أكثر شمولاً: "نعترف نادمين أنّنا، بوصفنا كنائس، لم نكن في الخط الأول لندافع عن الحقوق الإنسانيّة، وأنّنا قدّمنا تبريراً، في معظم الأحيان، من خلال لاهوتنا، لانتهاكات حقوق الإنسان." (42)

من السهل التبشير بالعدالة، أمّا الأصعب، فهو إقرارك بما ترتكب من مظالم. وإنّه لأمرٌ مثيرٌ حقّاً، أن يكون النقد الذاتي قد بوشِر.

سألت، ذات يوم، المسؤول العام عن الجمعيّة اليسوعيّة، الأب "بيتر هانس كولفنباخ" (Peter Hans KOLFENBACH) رأيه في دعوة البابا إلى الاعتراف بالذنب، فأجابني:

"أجد هذا الاقتراح محقّاً جدّاً، خصوصاً بقدر ما يتعلّق بالأخطاء التي يتواصل تأثيرها حتى اليوم، كتلك التي أفضت إلى انقسام الكنائس، وتلك التي ارتُكبت بحقّ الفقراء: ذلك بأنّنا لم ننبَرِ دوماً للدفاع عن الفقراء، والمظالم الاجتماعيّة لم تجِد دوماً مَن يقاومها". (43) ههنا تكمن علّة العلل: "الأخطاء التي ارتُكبت بحقّ الفقراء"، وهي الخطيئة ضد المحبّة والعدالة؛ هذه الأخطاء مستمرة حتى اليوم، وهي التي تخنق صوت الكنيسة. »

الفصل الثاني عشر

محاكم التفتيش

تكلّم البابا يوحنا بولس الثاني ثلاث مرّات عن "أخطاء" محاكم التفتيش، حتى إنه ندّد، ذات مرة، بـ"الأساليب الخالية من التسامح، بل العنيفة" التي وسمتها. وقد سلّم أخيراً بأنّ محاكم التفتيش توفّر، مع اللاسامية، الموضوع المركزي لفحص الضمير في نهاية الألفيّة.

قبل عام 1999، سوف يتناول هذين الموضوعين، أحد المؤتمرَين الدوليَّين الاثنين، اللذين برمجتهما لجنة اللاهوت والتاريخ، في الهيئة المسؤولة عن الإعداد لليوبيل الكبير (وقد تحدثنا عن ذلك في الفصل التاسع من القسم الأول من هذا الكتاب).

لا تسامح وعنف:

لنبدأ بالنقد الذاتي لـ"الأساليب الخالية من التسامح، بل العنيفة"، الذي ورد في الرسالة التي خصّ بها اليوبيل الكبير:

« هناك فصل آخر مؤلم، لا يسعُ أبناء الكنيسة ألاّ يعودوا إليه بروحٍ تائبة: الموافقة المعطاة، خصوصاً خلال بعض القرون، لأساليب خالية من التسامح، بل عنيفة، في خدمة الحقيقة. »

صحيح أنّ الحكم السليم على التاريخ يقتضي، بالضرورة، دراسة متأنّية للشروط الثقافيّة القائمة آنذاك: فإنّ الكثيرين، وقد أُخذوا بتأثير هذه الشروط، مالوا إلى التفكير، في نيّة سليمة، بأنّ مهمّة الاضطلاع الأمين بالشهادة للحقيقة، كانت تفرض، بالضرورة، خنق رأي الآخر، أو، على الأقلّ، تهميشه. وكثيراً ما كانت دوافع متعدّدة تسهم في خلق تربة مؤيّدة لعدم التسامح، وتشحن مناخاً انفعاليّاً، لم يستطع أن

يُفلت منه، على نحوٍ ما، سوى بعضٍ من أصحاب العقول الكبيرة، المتمتّعين بحرّيةٍ تامّةٍ والمسكونين بالله. ولكن التأمّل في الظروف المخفّفة لا تعفو الكنيسة من واجب التأسّف العميق، على أخطاء العديد من أبنائها، الذين شوّهوا وجهها، وحالوا دون أن تعكس - على نحوٍ كامل - صورة ربّها المصلوب، وهو الشاهد الذي لا يُضاهى في الحبّ الصبور والوداعة المتّضعة. هذه المواقف الماضية المؤلّمة تقدّم لنا، من أجل المستقبل، درساً يجب أن يحرّض كل مسيحي على التقيّد، بتصميم، بالقاعدة الذهبيّة التي حدّدها المجمع الفاتيكاني الثاني:

« إنّ الحقيقة لا تُفرض إلاّ بقوة الحقيقة ذاتها، التي تلِج العقل بقدر ما لديها من رقّة ونفوذ. » (الرسالة الرسولية "في حلول الألفيّة الثالثة"، 1994/11/14، الفقرة 35)

أخطاء وتجاوزات:

للمرة الأولى، أشار البابا يوحنا بولس الثاني، بشكلٍ صريحٍ، إلى أخطاء محاكم التفتيش، خلال سفره الأول إلى اسبانيا (1982):

« إنّ كانت توتّرات وأخطاء وتجاوزات قد حدثت، في بعض الفترات، كما كانت الحال إبّان محاكم التفتيش – وهي وقائع تقيّمها كنيسة اليوم في ضوءٍ تاريخي موضوعي – فإنّه يتوجّب علينا الإقرار بأنّ مجمل الأوساط الثقافيّة في اسبانيا، عرفت أن توفّق، على نحو رائع، بين مقتضيات حرّية البحث الكاملة والانتماء العميق للكنيسة. » (مدريد، 1982/11/3، لقاء مع ممثّلي الجامعات الاسبانية والأكاديميات الملكية والعلماء والمثقّفين)

إنّ هذه الإشارة السريعة، وقد صيغت بنبرةٍ دفاعيّة، ليست بالأمر الهيّن: إنّها تحطِّم محرّماً (تابو) استطال قروناً. فما من بابا قطّ، ولا حتى البابا يوحنا الثالث والعشرون اللّصيق جداً بالإنجيل، أو البابا المصلِح بولس السادس، ذكر يوماً محاكم التفتيش في سياقٍ ناقد. فضلاً

عن ذلك، فإنّ عبارة "محاكم التفتيش" كانت في مكان الصدارة، حتى إصلاح الإدارة الرومانيّة، الذي قام به البابا بيوس العاشر، أي حتى عام 1908: **كانت جزءاً لا يتجزّأ من التسمية الرسميّة لهيئة المجمع المقدّس، التي كانت تُدعى "هيئة التفتيش الروماني والكوني".** (44)

إنّ تحطيم المحرّم (التابو) لا يعني دائماً معالجة الموضوع الذي كان هذا المحرّم، حتى ذلك الوقت، يحول دون مسّه. وإنّ البابا يوحنا بولس الثاني، إذ تصدّى له، للمرة الأولى، بعد ذلك بستّ سنوات، لم يُسمِّ "محاكم التفتيش"، ولكنّه حدّد بدقّة، المسألة التي تثيرها، والقضية التي تطرحها على الذاكرة التاريخيّة المسيحيّة، وهي قضيّة أولويّة الضمير، التي كانت هذه المحاكم تغتصبها:

« تؤكّد الكنيسة أنّ للإنسان ضميراً، يعلو على التشريطات التي تثقله، وهو ضمير قادر على معرفة كرامته الخاصة، وعلى الانفتاح على المطلق. إنّه ضمير هو، في ذاته، منبع الخيارات الأساسيّة التي يوجّهها البحث عن الخير، للآخرين كما للذات. إنّه ضمير هو، في ذاته، مكمن حريّة مسؤولة. صحيح أنّ انحرافاتٍ كثيرة طرأت، والمسيحيّون يعرفون أنّه كان لهم نصيب فيها! » (ستراسبورغ، 1988/10/8، خطاب في الجمعية البرلمانية للاتحاد الأوربي)

عنف باسم الإيمان:

إنّ النص الثالث الصادر عن البابا يوحنا بولس الثاني بشأن محاكم التفتيش، ورد في الرسالة التي وجّهها البابا للكرادلة في مطلع عام 1994، **بقصد الإعداد للمؤتمر الاستثنائي من أجل التحضير لليوبيل الكبير:**

« كيف لنا أن نصمت إزاء جميع أشكال العنف التي ارتُكبت باسم الإيمان؟ حروب دينيّة، محاكم تفتيش، وأشكال أخرى من خرق حقوق الإنسان. [...] وإنّه لذو دلالة أن تكون أساليب قمعيّة، تمسّ حقوق

الإنسان، قد استخدمتها بعد ذلك أنظمة الإيديولوجيّات الشموليّة في القرن العشرين، وهي لا تزال تُستخدم من قبل المتطرّفين الإسلاميّين. وقد أفرزت هذه الأساليب القمعيّة جرائم النازية الهتلريّة والستالينيّة والماركسيّة. وإنّ إعلان حقوق الإنسان، وإعلان الكنيسة بشأن الحريّة الدينيّة في المجمع الڤاتيكاني الثاني، شكّلا ردّاً سليماً على هذه الأحداث. وإنّه ليتوجّب على الكنيسة أنّ تُعيد النظر من تلقاء ذاتها، على ضوء ما أعلنه المجمع الڤاتيكاني الثاني، في الجوانب المظلمة من تاريخها، لتتفحّصها على ضوء المبادئ الإنجيليّة. » (وثيقة "تذكير خاصة" بالكرادلة، ربيع عام 1994) [45]

قد يكون هذا النص، الذي كتبه البابا يوحنا بولس الثاني، أوضح النصوص التي يحدّد فيها مسألة محاكم التفتيش، بوصفها فصلاً مفصليّاً من فصول فحص الضمير في نهاية الألفيّة. وهي تعني استخدام العنف، باسم الإيمان، وفي خدمة الإيمان، وليس الأخطاء أو التجاوزات التي ارتُكبت آنذاك. فهذه الأخطاء، وهذه التجاوزات، كان البابا يوحنا بولس الثاني قد تحدّث عنها في النقد الذاتي الجزئي، الذي كان قد أجراه بلهجة دفاعيّة، عام 1982، في اسبانيا، والذي ذكرناه آنفاً. وبعد اثني عشر عاماً، لم يعُد البابا في موقع المُدافع، ولم تعُد المسألة تعني التجاوزات، بل وجود محاكم التفتيش بالذات. وإنّ التأكيدات السجاليّة التي يطلقها مَن يردّون بأنّ محاكم التفتيش كانت أكثر اعتدالاً وسلامةً من سائر المحاكم آنذاك، ليست، إذن، واردة. (46) **ففي هذا النصّ، كما في النصّ الذي ذُكر في القسم الأول من هذا الفصل، فإنّ المسألة المطروحة لا تتناول الشكليّات، بل جوهر محاكم التفتيش بالذات، وقد ذكّر البابا أنّه أحد أشكال "العنف الممارَس باسم الإيمان". ولَمن يريد أن تكون له نظرة شاملة، عليه أن يقرأ هذا الفصل في الوقت الذي يقرأ فيه أيضاً الفصول المتعلّقة بـ"الحروب الصليبية" والحروب الدينيّة والتطرّف الديني.**

الفصل الثالث عشر

التطرّف الديني

ثمّة نصّ واحد أدان فيه البابا "التطرّف الديني"، وقد قال عنه إنّه كان بالأمس خطأً، وبات اليوم أمراً غير مقبول. إلاّ أن هذا النص هو خطاب اتّسم بوضوح خارق، وسجّل مرحلة رئيسيّة في بابويّته، وقد ألقاه في تشرين الأوّل من عام 1988، في ستراسبورغ (STRASBOURG)، أمام البرلمان الأوربي:

« يرى البعض أنّ الحريّة المدنيّة والسياسيّة، التي انتُزعت بالأمس، عن طريق قلب النظام القديم، المؤسَّس على الإيمان الديني، يُراد لها إلى اليوم أن تتماشى مع تهميش الديانة، بل إلغائها، إذ يميلون إلى اعتبارها نظاماً استلابيّاً. بالمقابل، فإنّ بعض المؤمنين يرَون أنّ حياةً متوافقةً مع الإيمان، لا يمكنها أن تقوم إلاّ بالعودة إلى هذا النظام القديم، وقد أُلبس، في الغالب، لبوساً مثاليّاً. إنّ هذين الموقفين المتعارضَين لا يقدّمان حلولاً، تنسجم مع الرسالة المسيحيّة ومع العبقريّة الأوروبيّة؛ ذلك بأنّ الإيمان، إذا ما سادت الحريّة المدنيّة، وقامت ظروف تضمن تماماً الحرية الدينية، لا يمكنه إلاّ أن يستمدّ مزيداً من القوة، في مواجهته للتحدي الذي يشكّله الإلحاد، فيما لا يسعُ الإلحاد إلاّ أن يقيس حدوده أمام التحدي الذي يواجهه به الإيمان.

إزاء هذا التباين في وجهات النظر، فإنّ وظيفة القانون، في أرقى أشكاله، هي أن يضمن أيضاً لجميع المواطنين، حقّ العيش وفق ضميرهم، وعدم التناقض مع معايير النظام الأخلاقي الطبيعي، التي يقرّها العقل.

عند هذه النقطة، يبدو لي من المهمّ التذكير بأنّ أوربا الحديثة استمدّت من تربة المسيحيّة، المبدأ الذي يحكم حياتها العامة، في أعمق أسسها – والذي كان، في الغالب، غائباً طوال قرون "المجتمع المسيحي": أعني به المبدأ الذي كان المسيح أوّل من أعلنه، والداعي إلى التمييز بين "ما هو لقيصر" و"ما هو لله" (راجع إنجيل متى 22: 21). إنّ هذا التمييز الجوهري بين دائرة التنظيم الخارجي للمدينة الأرضيّة، ودائرة استقلاليّة الأشخاص، يتّضح انطلاقاً من الطبيعة الخاصة بالجماعة السياسيّة، التي ينتمي إليها بالضرورة جميع المواطنين، والجماعة الدينيّة التي ينتمي إليها المؤمنون انتماءً حرّاً. [...]

إنّ تاريخنا في أوروبا يبيّن بوفرة أنّ الحدود بين "ما هو لقيصر" و"ما هو لله"، كثيراً ما تمّ اختراقها في كلا الاتّجاهَين. فإنّ المجتمع المسيحيّ اللاتيني في القرون الوسطى – ولن أذكر سواه – الذي، مع ذلك، صاغ نظريّاً، بعد أن استعاد مدرسة "أرسطو" العظيمة، المفهوم الطبيعي للدولة، لم يقاوم دوماً إغراء التطرّف في استبعاد الخارجين عن الإيمان الحقّ، من الجماعة الزمنيّة. فإنّ نزعة التطرّف الديني، التي تمارَس اليوم أيضاً في بلدان أخرى، إذ هي لا تميّز بين دائرة الإيمان ودائرة الحياة المدنيّة، تبدو في تعارض كلّي مع العبقرية الأوروبيّة الخاصة، كما لوّنتها الرسالة المسيحية. »
(ستراسبورغ، في 1988/10/11، خطاب أمام البرلمان الأوربي)

يحتوي هذا النقد الذاتي للتطرّف الديني، أربعة تأكيدات رئيسيّة:

إنّ التطرّف الديني، إذ يُفهم على أنّه استبعاد لَمن لا يدينون بالإيمان الحقّ، من الجماعة المدنيّة، هو، في ذاته، لا يتّفق البتّة مع التمييز المسيحي بين ما هو لله وما هو لقيصر.

إنّ المجتمع المسيحي في القرون الوسطى غاب عنه هذا التمييز، ولم يستطع بالتالي مقاومة إغراء التطرّف في ممارسة استبعاد الآخرين.

يتمنّى بعض المؤمنين أيضاً، أن يعودوا إلى النظام القديم، وهم لا

يدركون أنهم يلبّسونه لبوساً مثاليّاً، وأنّه سيقودهم إلى حلول لا يمكنها أن تتّفق مع الرسالة المسيحيّة.

من وجهة نظر دينيّة، فإنّ التطرّف الديني، من شأنه أن يكون اليوم متناقضاً مع عبقريّة المجتمع الأوربي، كما وسمتها الرسالة المسيحيّة، بقدر ما يتناقض معها التطرّف الإسلامي (وهو الذي "يمارَس اليوم أيضاً، في بقاعٍ أخرى")، وكذلك أيضاً نزعة التطرّف في الإلحاد.

إنّ هذا النصّ، إذن، وثيقة أساسيّة من وثائق بابويّته. ولكَم كان هلّل "لامنيه" (LAMENNAIS) و"بوونيوتي" (BUONAIUTI) و"ماريتان" (MARITAIN) و"أورس فون بالتازار" (Urs Von BALTHASAR)، لو أُعطوا أن يسمعوا أحد البابوات يتلفّظ بهذه الكلمات، يوم كانوا يُحذّرون الكنيسة من الانزلاق إلى التطرّف، وقد واجهوا الإدانة، أو أقلّه التوبيخ، لأنهم استخدموا الكلمة المحظورة! ولكي نتقن إدراك أهميّة هذا النصّ، سيُسمح لنا بالاستشهاد بنصوص أخرى.

في مطلع عام 1996، **عاد البابا يوحنا بولس الثاني إلى الموضوع ذاته، حول إعلان المجمع الڤاتيكاني الثاني الخاص بالحرّية الدينيّة، وهي حرّية يُنكرها التطرّف الديني:**

« كلٌّ يعرف أنّ مواقف مختلف الجماعات البشريّة، والدول، والمؤمنين أنفسهم، على صعيد العلاقات بين مختلف الثقافات والديانات، لم تكن دائماً تتّسم بالاحترام والتسامح. فالكنيسة، من جهتها، منذ مطلع تاريخها، ذاقت الاضطهادات. من جهة أخرى، فإنّ المجمع الڤاتيكاني أقرّ بصراحة، أنه قد قام، حتى بين المسيحيّين، "أحياناً تصرّفات لا تنسجم مع روح الإنجيل، بل هي مضّادة له". » (صلاة يوم الأحد ظهراً، في 1996/2/18)

وكان البابا قد اعترف في رسالته من أجل يوم السلام، بتاريخ 1991/1/1، **أنّ المسيحيين، "طوال قرون"، لم يكونوا منزّهين عن الخطأ في ما يتعلّق بالحرّية الدينية:**

« لا يسعُنا أن ننكر، في ما يتعلّق بعدم التسامح الديني، أنّ العديد من المصاعب، بل من النزاعات قد نشأت طوال قرون، بين المسيحيّين والمؤمنين بديانات أخرى، على الرغم من التعليم الثابت للكنيسة الكاثوليكيّة، والقائل بأنّه لا يجوز أن يُقاد أيّ إنسان إلى الإيمان قسراً. وقد اعترف المجمع الڤاتيكاني الثاني بذلك صراحةً. » (رسالة من أجل اليوم العالمي للسلام عام 1991، الصادرة في 1990/12/18)

إنّ التنديد بالعلاقات بين "الصليب والسيف"، كان قد ورد في النقد الذاتي البابوي. فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني كان قد أكّد في "سانتو-دومنكو"، في شهر تشرين الأول عام 1984، في "تواضع الحقيقة":

« إنّ الكنيسة لا تريد أن تتجاهل الترابط الذي قام بين الصليب والسيف، خلال الموجة التبشيريّة الأولى (للقارّة الأميركية). » (سانتو-دومنكو، في 1984/10/12، خطاب أمام أساقفة جنوب القارة الأميركيّة)

لقد حلّل لاهوتي البيت البابوي، الأب "جورج كوتييه" (Georges COTTIER)، حالة التطرّف لدى كنيسة القرون الوسطى، في مرافعة دافع فيها عن فحص الضمير في نهاية الألفيّة، كما اقترحه البابا يوحنا بولس الثاني:

« لفترة طويلة، ساد التأكيد بأنّ ميزة المسيحي هي شرط انتمائه إلى المجتمع السياسي في إطار الدولة المسيحيّة. وفي سبيل الدفاع عن ذاتها، كانت الدولة تتدخل في الميدان الديني، بوسائل قمعيّة خاصة بها. وكانت الكنيسة، إزاء ذلك، تستند إلى السلطة الزمنيّة. وبهذه الطريقة، لما كانت الدولة، في دفاعها عن سلامتها، تتدخّل في المسائل الروحيّة، تمادت في عدد كبير من المبادرات، تحت شعار اللاتسامح والعنف. والكلّ يعلم أنّنا بِتنا أمام تجاوزات مؤسفة لوّثت التاريخ المسيحي. والمبدأ الذي اعتُمد في نهاية الحروب الدينيّة، والقائل بأنّ "الشعوب على دين ملوكها"، هو، في جوهره، مبدأ وثني. » (47)

حسبُنا أن نذكّر بأن البابا يوحنا بولس الثاني أطلق، مرّات كثيرة، حكماً مماثلاً لحكم الأب "كوتييه"، على مبدأ "الشعوب على دين ملوكها"، لكي نُظهر مدى التوافق بين البابا واللاهوتي الدومينيكاني: من ذلك، الخطاب الذي ألقاه إبّان لقاء عمومي في شهر تموز عام 1995، والذي أوردناه في الفصل الخاص بالحروب الدينيّة. ومن ذلك أيضاً، رسالته بمناسبة لقاء مسكوني، عُقد في سالزبورغ (SALZBOURG)، في شهر أيلول من عام 1983، ورد ذكره في الفصل ذاته.

ولكنْ يسعُنا أن نتساءل ما إذا كان البابا، في إدانته التطرّف الديني، ولاهوتيُه الذي يوفّر له الحجج العقائديّة لهذه الإدانة (على كل حال، ألا يسعُنا أن نلحظ سخريّة التاريخ في أنّ هذا الدور أُعطي لراهب دومينيكي، في حين أنّ الآباء الدومينيكيّين كانوا، هم بالذات، المسؤولين عن محاكم التفتيش، وعن الملاحقة المتطرّفة للهراطقة؟) يمثّلان حقّاً الكنيسة الكاثوليكيّة اليوم، أم أنّهما يمثّلان مجرّد طليعة، فقدت الاتصال بعمق الجماعة المسيحيّة: بكلمة واحدة، هل التعليم المسيحي يثبّت أقوالهما؟ والجواب إيجابي. فإنّ "ظلال" تاريخ القرون الوسطى المسيحي، قد عُرضت، عام 1995، من قبل هيئة الأساقفة الإيطاليّين، في كتاب "التعليم المسيحي للبالغين"، على هذا النحو:

« إنّ حضور الكنيسة في المجتمع انحلّ إلى تداخلٍ فوضوي بين الدائرة الدينيّة والدائرة المدنيّة، فأساء إلى نقاء الديانة، وإلى استقلاليّة الواقع الزمني. [...] إنّ حقّ حرّية الضمائر لم يقَرّ بما فيه الكفاية: من هنا، كان اللاتسامح حيال اليهود، ومحاكم التفتيش ضد الهراطقة، والتنصير القسري لشعوب برمّتها، والحروب الدينية. » (48)

الفصل الرابع عشر

الإسلام

إنّ الحدود مع الإسلام كانت، بالنسبة إلى البابا يوحنا بولس الثاني، أعسرها اجتيازاً. وهو يواصل التقرّب منه، في رسائل رئيسيّة ثلاث، على الرغم من عدم تلقّيه أيّ جواب:

إنّ المسيحيّين والمسلمين إخوة في الله.
يتوجّب عليهم تخطي ماضي الحروب التي باعدت بينهم.
لا يسعهم القيام بذلك إلا عبر تبادل الغفران فيما بينهم.

إن الرسائل الثلاث هي قائمة في قلب دعوة المجمع الفاتيكاني الثاني إلى الحوار. إلا أنّ للبابا يوحنا بولس الثاني فضلاً خاصاً في الإفصاح عن هذه الرسائل، وفي محاولته تبليغها أصحابها.

إنّ اسم "إخوة" لم يكن قد استُخدم قطّ من قِبل أي بابا، في وصفه المؤمنين بالإسلام، وهو يحمل ما يشبه الوعد بتغيير جذري في الموقف. وفي الواقع، فقد تُرجم إلى دعوة وُجِّهت للمسلمين، كي يشاركوا في أيام الصلاة في بلدة "أسيزي" (ASSISI)، عام 1986، وعام 1993. إنّ فكرة تسميتهم "إخوة"، ودعوتهم للقاءات صلاة، هي، على الأرجح، اختيار شخصي قام به البابا يوحنا بولس الثاني، وألهمَته إيّاه عبقريته العملية. وقد يكون فكّر أن المسيحيين والمسلمين، إنْ تعلّموا أن يصلّوا معاً، سيمتنعون عن الاقتتال.

إنّ الدعوة إلى تجاوز الماضي عن طريق تطهير الذاكرة التاريخيّة، لدى "شعبَي الله" هذَين، تظلّ حتى اللحظة، تحدّياً ذا مرمى عام، لم يجد له تطبيقات ذات دلالة. إلاّ أنّ تأكيد هذا المبدأ قد أفضى إلى

مـراجعتَين تـاريخيتَين خاصـتَين: الأولى تتعلّـق بـ"الحـروب الـصليبيّة"، والثانية أنجزتها هيئة أساقفة اسبانيا، بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لطرد المور (MAURES) من اسبانيا، وسنتحدث عنهما في القسم الثالث من هذا الفصل.

ثمّـة، أخـيراً، الـدعوة إلى الغفـران المتبـادل. ولكـن، في هـذا الميـدان، لم نشهد بعد أيّ مبادرة ملموسة. إلاّ أنّنا سنذكر (في القسم الرابع من هـذا الفصل) وثيقة ذات قوة مثيرة: إنّه شهيدٌ مـسيحي معاصـر، يغفـر لقاتلـه المسلم، وهو يقول له إنّ ما يدفعه للقتل ليس الإيمان.

وهكذا، فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني يوجّه للإسلام تحـدّي الغفـران هذا، فهو لا ينطق باسم إيمانٍ متهاوٍ، أفلت من التـاريخ ونزاعاتـه، ولكنـه المبشّر بإيمان الأصول المسيحي، الذي يمهر بدمه رسالته في أخـوّة كونيّـة. كلّ ذلك كان يغذّي تصميم البابا يوحنا بولس الثاني، في العامَين 1990-1991، عندما كان يعـارض حـرب الخليج: ولكنّ مـا كـان بوسـع العـالم أن يدرك مِن عمق هذا الهوى؟

الإخوة المسلمون:

لأوّل مـرة، يـدعو البابـا يوحنـا بـولس الثـاني المـسلمين إخـوة، أي إنّـه أعطاهم التسمية التي كان التقليد المسيحي العظيم يخـصّ بهـا الإخـوة في الإيمان، وسائر المعمّدين. وما في بـادرة البابـا مـن جـرأة، يكتـسب مزيـداً مـن الوضـوح، إذا عرفنـا الظـروف الـتي تـلا فيهـا هـذا التـصريح، وقـد ورد في خطاب أعدّه من أجل لقـاء لم يحـدث، بـسبب غيـاب المدعوّين. كـان ذلـك في مدينة "كادونا" (KADUNA)، في شمال نيجيريـا المسلم، عـام 1982، فاضـطر البابا لقراءة خطابه، على أهميّته القصوى، في المطار، أمام الشخصيّات التي قدِمت لتحيّته، لأنّ اللقاء المتوقع مع الزعماء المسلمين لم يتمّ. ذلـك بـأنّهم لم يحـضروا، لأنّهـم لم يكونـوا - كمـا بـدا - علـى اتفـاق فيمـا بينـهم. إلاّ أنّ بعـض الـصحف اتّهمـت البابـا، مـع أسـلافه، بتحمّـل مـسؤوليّة "الحـروب

الصليبيّة" في القرون الوسطى.(49) **وأيّاً كان الحال، فإنّ الشخصيّات المتواجدة في المطار كانت مسلمة، وقد تحدّث إليهم البابا بهذه العبارات:**

« كلّنا، مسيحيّون ومسلمون، نحيا تحت شمس إله الرحمة الواحد؛ وكلّنا نؤمن بالله الواحد، خالق الإنسان. ونعلن سيادة الله، وندافع عن كرامة الإنسان بوصفه خادماً لله. نعبد الله ونعلن خضوعنا الكلّي له. وإذن، يسعُنا، بكلّ ما في الكلمة من معنى، أن ندعو بعضنا بعضاً إخوةً وأخوات في الإيمان بالإله الواحد. » (كادونا، نيجيريا، 1982/2/14، لقاء مع الوجهاء المسلمين)

بعد ذلك بسبع سنوات، استخدم البابا يوحنا بولس الثاني، مرتين، عبارة "الإخوة المسلمين"، في رسالة رسوليّة إلى جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكيّة حول الوضع في لبنان، نُشرت في 1989/9/26. وفي اليوم نفسه، نُشر أيضاً نداء إلى المسلمين، يخاطبهم فيه على أنّهم إخوة في الإيمان، مستخدماً عبارة "نحن المؤمنين"، حيث قال:

« كيف يسعُنا، نحن المؤمنين، أبناء الله الرحيم، خالقنا وهادينا، ولكنْ ديّاننا أيضاً، أن نظلّ لامُبالين، إذ نشاهد شعباً برمّته يموت تحت عيوننا؟ » (نداء إلى جميع المسلمين من أجل لبنان، في 1989/9/26)

إنّ أهم نصّ يصف فيه البابا يوحنا بولس الثاني المسلمين على أنّهم إخوة في الإيمان، هو الصلاة التي أدرجها في الاحتفال من أجل السلام في أوربا، والذي أُقيم في بلدة "أسيزي"، في شهر كانون الثاني عام 1993، وحيث ذكر المسلمين، في آنٍ واحدٍ مع اليهود والمسيحيّين، على أنّهم إخوة، بوصفهم نسل إبراهيم:

« من أجل الذين يعترفون بإبراهيم أباً لهم في الإيمان، يهوداً ومسيحيّين ومسلمين: لكي تتلاشى من وسطهم أشكال عدم التفاهم،

والعقبات، ولكي ننشَط كلّنا معاً في بنـــاء الـــسلام. » (أســـيزي، في 1993/1/10، صلاة مسائيّة من أجل السلام)

إنّ هذه الصلاة هي حالة فريدة في الطقوس الكاثوليكيّة. فالمسلمون ذُكروا فيها في الموقع الأخير، لأنّهم، تاريخيّاً، ظهروا بعد المسيحيّين، فهم بمثابة الإخوة الصغار المتحدّرين من إبراهيم، مثلما أنّ اليهود يأتون في المقدمة، لأنّهم الإخوة الكبار. ولكن، في هذا اليوم، على نحوٍ ما (وكانت الأنظار متجهة صوب البوسنة، بشأن مصير السكان المسلمين، وقد هاجمهم الصربيّون والكرواتيّون)، كان المسلمون الأُول في اهتمام البابا. وفي الواقع، فقد تُليت الصلاة باللغة العربيّة، لأنّ البابا أراد في هذا القداس، أن تصلّي أوروبا "في جميع لغاتها"، والحال أنّ خمسة عشر مليون مسلم كانوا آنذاك يعيشون في أوروبا، لغة النصف منهم هي العربيّة. (50)

من أجل وضع حد لحروب الماضي:

بعد ذلك بثلاث سنوات، وجّه البابا يوحنا بولس الثاني، في "الدار البيضاء" (CASABLANCA)، أهم نداء له باتجاه الإسلام. ولقد كان، في هذه المناسبة، أوّل بابا في التاريخ يتكلّم أمام جمهور من الشبيبة المسلمة، فدعاهم إلى تجاوز الماضي، وإلى لقاء المؤمنين الآخرين، بل ألمحَ إلى الغفران:

« مسيحيّون ومسلمون، أسأنا عموماً فهْم بعضنا البعض؛ وفي الماضي، تصادمنا، بل استنفدنا بعضنا بعضاً في سجالات وحروب.

علينا أن يحترم بعضنا بعضاً، وأيضاً أن يستنهض بعضنا بعضاً في أعمال الخير على دروب الله.

أؤمن أنّ الله يدعونا، اليوم، إلى استبدال عاداتنا القديمة. وفي عالمٍ يرغب في الوحدة والسلام، وهو، مع ذلك، يعرف ألف توتّر ونزاع، ألا يجب على المؤمنين أن يؤيّدوا الصداقة والاتحاد بين البشر والشعوب،

الذين يؤلّفون على الأرض جماعةً واحدة؟ » (الدار البيضاء، المغـــرب، 1985/8/19، خطاب إلى الشبيبة المسلمة)

وفي ابتـهال ختـامي إلى "الله الـصالح والكلّـي الرحمـة" (وهـي عبـارة تُـصادفنا في الكتـاب المقـدس كمـا في القـرآن الكـريم)، سـأل البابـا، للمـسيحيّين والمسلمين، "عواطـف الرحمـة والـتفهّم، والمغفـرة والمصالحة، والخدمة والتعاون".

يتوجب علينا أن نغفر لبعضنا البعض:

كانـت ثمّـة عـودة إلى مـسألة "الغفـران المتبـادل"، في رسـالة الكردينـال "أرينزيـه" (ARINZE)، الـتي أرسـلها باسـم البابـا إلى المسيحيّين، في ختـام شـهر رمـضان عـام 1996، وقـد نُـشرت في اللغـات: الإيطاليّـة والإنكليزيّـة والألمانيّة والاسبانيّة والبرتغاليّة والعربيّة والأورديّة والتركيّة والإندونيسيّة، تحت عنوان: "مسيحيّون ومسلمون: في ما هو أبعد من التسامح":

« يجب على العلاقات بيننا، مؤمنين مسيحيّين ومسلمين، أن تمـــضي إلى ما هو أبعد من التسامح، بوصفه مجرّد تحمّل للآخـــر. ذلـــك بـــأنّ الإنسان لا يتحمّل أخاه، أنّه يحبّه. ولكي يتسنّى لنا أن نمضي إلى ما هو أبعد بكثير من التسامح، أي إلى حدود المـــصالحة والحـــب المتبـــادلَين، يتوجب علينا، مسيحيّين ومسلمين، أن نجتاز طريقاً طويلاً. ولا يـــسعُنا، إذ نحن نُعدّ للمستقبل، أن ننسى لا الماضي ولا الحاضـــر. [...] حـــان الوقت كي نطهّر ذاكرتنا من آثار الماضي السلبيّة، بالغاً ما بلغـــت مـــن الألم، وأن ننظر نحو المستقبل. وعلى الذي أهـــان الآخـــر، أن ينـــدم ويستغفره. يتوجب علينا أن نغفر لبعضنا البعض، فليس ثمّـــة مـــصالحة حقيقيّة، دون هذا الغفران. ودون مصالحة حقيقيّة، لا يسعُنا الالتزام معاً بخير مؤمنينا، وخير العالم كلّه. إنّه بوســـع المـــسلمين والمـــسيحيّين، أن يصبحوا في عالم اليوم، مثالاً للمصالحة وأدواتٍ للسلام.

ولكنّا لا نواجه ثقل الماضي وحده. فإنّ النزاع في البوسنة والهرسك قد فُهم خطأً من قِبل البعض، على أنّه واحدة من المجابهات بين الإسلام والمسيحيّة. والحرب في جنوب السودان، التي استطالت سنوات، لها – دون شكّ – أسباب كثيرة، ولكن حالة العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين يمكنها أن تُعتبر أحد عوامل النزاع. وفي بعض البلدان، فإنّ ظروف بعض الأقليّات الدينيّة المختلفة هي، أحياناً، مصدر لتوتّرات. تلك هي أوضاع مؤلمة، نحن مدعوّون للتفكّر فيها تحت نظر الله، كي نجد لها الحلول.

سوف تذهب العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين في اتّساع دائم. فما الذي نريده في المستقبل؟ هل هي المجابهة، أم مجرّد التعايش، أو بالأحرى المعرفة والاحترام المتبادلان، مع أشكال من التعاون المثمر؟ أَوَلَيس هذا ما يريده الله منّا؟ وإنّ ذلك ليفترض، كما قلت، غفراناً متبادلاً من أعماق القلب، ومصالحة حقيقيّة، وإرادة مشتركة، من أجل بناء عالم أفضل للأجيال القادمة. » (رسالة الكردينال "أرينزيه" للمسلمين، بمناسبة ختام شهر رمضان، 1996/2/15)

يقول الكردينال "أرينزيه" في رسالته: "ليس بوسعنا أن ننسى هذا الماضي، ولكنّ يتوجب علينا أن نتحمّله ونتجاوزه". وإليكم مثالاً على التجاوز. فقد أكّد المطران "توريلا كسّانته" (Torrella CASSANTE)، **رئيس أساقفة "تاراكون"** (TARRAGONE) **ورئيس هيئة أساقفة اسبانيا، "من أجل العلاقات بين الأديان" (وقد كان، حتى عام** 1983، **الشخصيّة الثانية في اللجنة المسكونيّة في الڤاتيكان)، بتاريخ** 1992/3/26، **في تصريح رسمي عام (سبق وتحدثنا عنه في الفصل الخاص باليهود)، قال:**

« ما من شكّ أنّ ما فعله المسيحيّون باليهود والمسلمين في اسبانيا، عام 1492، هو بالضبط نقيض ما كان يجب فعله وفق مبادئ إيماننا المسيحي. » (51)

ما هي أقصى حدود الغفران؟

كثيراً ما يتحدّث البابا يوحنا بولس الثاني عن "شجاعة الغفران"، وهو يطبّق هذه العبارة أيضاً، على التطرّف الإسلامي. أهي يوطوبيا؟ أهو هذيان إنسان يبحث عن سند في الكلمات، عندما تدميه الوقائع؟ كلا! إنّ ذلك يمضي بعيداً؛ فإنّ كلمة "غفران"، التي يستخدمها البابا في حديثه عن الإسلام، ليست بالهلوَسة: فثمّة حادثة فظيعة تعود إلى ربيع عام 1996، تُظهر أنّ الكلمة اكتسبت معنىً قدسيّاً، كان ثمنه شهداء كثيرين.

في 1996/5/24، أعلنت الجماعة الإسلاميّة المسلّحة أنّها "ذبحت" الرهبان السبعة التابعين لـ"دير سيدة الأطلس"، الذين كانوا قد اختُطفوا ليلة 3/27-26. وفي يوم أحد العنصرة، 5/26، علّق البابا على هذا النبأ بقوله:

« على ما بنا من ألمٍ عميقٍ، إنّنا نشكر لله شهادة المحبّة التي قدّمها هؤلاء الرهبان. فإنّ أمانتهم وتماسكهم يشرّفان الكنيسة، ويشكّلان – دون أدنى شكّ – بذار مصالحة وسلام للشعب الجزائري الذي تضامنوا معه. وإنّ صلاتنا لتتّحد بالطبع بعائلاتهم، ورهبانيّتهم، والجماعة الكنسيّة الصغيرة القائمة في الجزائر: عساهم، في هذا الاختبار المأساوي، لا يفقدون أبداً شجاعة الغفران وقوة الرجاء، المؤسّسَين على المسيح الذي قهر الموت.

مع كلمات سفر التكوين، حيث جاء: "إنّي أطالب بحساب دمٍ كلّ منكم" (تكوين 9: 5)، أوجّه نداءً إلى جميع الناس الطيّبي النيّة، وأخصّ بندائي أيضاً، جميع مَن يعتبرون إبراهيم أباً لهم، كي لا تعود تتكرّر أبداً، لا في الجزائر ولا في أيّ مكانٍ آخر، مثل هذه الأعمال. »

قد يبدو خالياً من المعنى، بلهَ استفزازياً، الحديث عن الغفران في جوابٍ على جرائم التطرّف الإسلامي، لولا أنّ جذريّة الغفران الإنجيليّة قدّمت مؤخراً مثالاً وافياً، من خلال المسيحيّين الذين يعيشون في أرضٍ

إسلاميّة. فهناك شهادة خارقة حول روحانيّة الغفران هذه، قد تجلّت إبّان ذبح الرهبان الجزائريين: فإنّ رئيسهم، الأب "كريستيان- ماري دو شيرجيه" (Christian-Marie DE CHERGÉ)، **وكان قد توقّع مصيره، كتب لأهله هذه الوصيّة، التي تحمل تاريخ** 1994/1/1:

« لو حدث لي ذات يوم – وقد يكون اليوم – أن أكون ضحيّة الإرهاب، الذي يبدو أنّه يريد أن يشمل الآن جميع الأجانب المقيمين في الجزائر، عندها أحبّ أن تتذكّر جماعتي الرهبانيّة، وكنيستي وعائلتي، أنّ حياتي كانت معطاةً لله ولهذا البلد...

... لقد مُنحتُ من العمر ما يجعلني أعرف أنّني متواطئ مع الشر الذي يبدو، للأسف، مسيطراً على العالم، بل متواطئ مع الشر الذي قد يضربني ضربةً عمياء.

في هذه اللحظة، أحب أن يكون لدي من الوعي، ما يتيح لي أن أطلب الغفران من الله ومن إخوتي البشر، وفي الوقت نفسه أن أغفر من كلّ قلبي لمن قد يضربني.

ليس لي أن أتمنى مثل هذه الميتة. يبدو لي من المهم أن أصرّح بذلك.

وفي الواقع، أنا لا أرى كيف يسعني أن أبتهج من أنّ هذا الشعب الذي أحببته، سيُتّهم كلّه دونما تمييز بمقتلي. إنّه لثمنٌ باهظٌ جدّاً لما سوف يُسمّى، ربّما، "نعمة الاستشهاد"، أن أدين بها لجزائري، أيّاً كان هذا الجزائري، لا سيما إذا كان يقول إنّه يُقْدِم على ذلك بوحيٍ ممّا يعتبره الإسلام.

أعرف الاحتقار الذي أتيح للبعض أن يحيطوا به مجمل الجزائريّين.

وأعرف أيضاً الكاريكاتورات التي أُلحِقت بالإسلام، والتي يشجّعها نمطٌ ما من الإسلام.

وإنّه لبمنتهى الرخص أن يخدّر الإنسان ضميره إذ يماهي بين هذه الطريقة الدينيّة وأشكال الأصوليّة لدى متطرّفيها.

فالجزائر والإسلام هما، في نظري، شيء آخر. إنّهما جسدٌ وروح...

... وأنت أيضاً، يا صديق الدقيقة الأخيرة، الذي لم يتسنَّ لـــك أن تدرك ما كنت تفعل. أجل، من أجلك أيضاً، أرفع هذا الشكر وهـــذا "العبور إلى الله" الذي صمّمتَه.

ولنُمنَح، نحن اللِّصّين السعيدين، أن نلتقي في الفردوس، إن شاء الله، أبونا كلينا. آمين! إن شاء الله! »

إنّ المسألة الحقيقيّة المطروحة مع الإسلام، هي مسألة التبادل. ولقد بحثت عن أمثلة لمراجعة تاريخيّة من قِبل هيئات أو شخصيّات إسلاميّة، فلم أجد؛ إلاّ أن هناك مثقّفين سبق لهم أن أقرّوا بهذه الصعوبة. من ذلك، أن خالد فؤاد علاّم قد أُتيح له مراراً أن يفكّر في مبادرات الحوار التي قام بها البابا يوحنا بولس الثاني. فهو يقول:

« في عام 1986، شاركتُ في البعثة الإسلاميّة إلى الصلاة المـــشتركة في أسيزي، وقد فوجئتُ بهذه العبارة للبابا: "نحن الكاثوليك، لم نكـــن دائماً حمَلة سلام". ففي جميع مداخلات البابا، نلحـــظ، في آنٍ واحـــد، تجاوزه لهاجس الدفاع، وانفتاحاً عظيماً. في الإسلام، لم نبلغ هذا الحدّ: فالمسائل مختلفة، وعلينا أوّلاً أن نواجه أزمةً اقتصاديّةً مرعبةً، وكـــذلك الجذرية الإسلاميّة، من إندونيسيا إلى الجزائر. » (53)

الفصل الخامس عشر

لوثـــر

يرى البابا يوحنا بولس الثاني أنّه كان بمثابة "خطيئة"، واقع رفْض الكنيسة الكاثوليكيّة، الاستجابة لنداء لوثر من أجل إصلاح الكنيسة: إنّه لموقف شجاع، توصّل إليه في مراحل متتابعة، عبر خمسة عشر عاماً من التفكير، وقد وجد ما يحثّه على ذلك في كونه بابا رحّالة. فأطلق أهم تصريح له بهذا الشأن في "بادربورن" (PADERBORN)، في 1996/6/22، خلال احتفال مسكوني مع أتباع لوثر. إلاّ أنّه كان قد خطا خطوَته الأولى في مناسبة مماثلة، في مدينة "ماينس" (MAYENCE)، يوم 1980/11/17: يومها، كان قد تكلّم بإعجاب عن المصلِح الألماني، واعترف بأنّ أخطاء كانت قد حصلت من الطرفين، وأفضت إلى تقسيم الكنيسة، في عهد الإصلاح. وكان قد خطا خطوات أخرى إبّان زيارته للكنيسة اللوثريّة في روما، يوم 1983/12/13، وخلال رحلته إلى أوروبا الشماليّة في حزيران عام 1989، التي حفلت بالحوارات مع الجماعات اللوثريّة. بذلك، فإنّ قضيّة لوثر ميّزت بصورة خاصة إعادة فحص لمسألة، وقد أنجزت إعداداً للقاء البابا مع محاورين متطلّبين.

ضرورة إنصافه:

يجدر بنا أن نستشهد أوّلاً بأكثر النصوص دقّة، ذاك الذي قاله في "بادربورن"، في شهر حزيران عام 1996:

« اليوم، بعد مرور أربعمائة وخمسين عاماً على وفاته، يتيح لنا الزمان الذي مضى، أن ندرك، على نحو أفضل، شخص المصلِح الألماني وعمله، وأن نكون أكثر إنصافاً نحوه. ليست أبحاث خبراء مهمّين، بروتستانتيين

وكاثوليكيين، هي التي ساهمت وحدها في تكوين صورة، على درجة أكبر من الكمال والوضوح، لشخصيّة مارتن لوثر. فإنّ الحوار بين اللوثريّين والكاثوليكيّين قدّم، بدوره، مساهمة هامّة من أجل تجاوز السجالات القديمة، والاقتراب من رؤية مشتركة.

لقد اتّسمت فكرة لوثر بالتركيز الواضح على الفرد، أكثر منها على وجدان مقتضيات الجماعة. إنّ إصلاح الكنيسة، الذي كان مطلبه، كان في نيّته الأصليّة، نداءً إلى التوبة والتجديد، اللذين يجب أن يبدآ في حياة كلّ إنسان. والأسباب التي قادت إلى الانقسام كانت كثيرة؛ منها تكرار الرفض من قِبل الكنيسة الكاثوليكيّة، هذا الأمر الذي كان قد سبّب الحزن للبابا أدريانوس السادس، فأعرب عنه بكلمات مؤثّرة، منها إقحام المصالح السياسيّة والاقتصاديّة، ومنها أيضاً، هوى لوثر بالذات، الذي اقتاده إلى ما هو أبعد من مقاصده الأولى، حتى انتقاد الكنيسة الكاثوليكية نقداً جذريّاً، في بنيتها وعقيدتها. لقد اقترفنا كلّنا أخطاء، ولذا، فكلّنا مدعوّون للتوبة، وكلّنا بحاجة إلى تنقية الرب لنا على نحوٍ دائمٍ، وبصورة متكررة. » (بادربورن، ألمانيا، 1996/6/22، احتفال مسكوني)

قبل هذا الاحتفال المسكوني، كان البابا يوحنا بولس الثاني قد التقى ممثلي الكنائس البروتستانتيّة، وقد أوضح في هذه المناسبة أسباب إعجابه بإنجاز لوثر، على الرغم من حدوده الشخصيّة، وعلى الرغم ممّا كان، في عقيدته، لا يزال بحاجة إلى توضيح:

« إنّ ذكراه، بعد قرون من تباعد مؤلم ومن خصومات، تتيح لنا أن نقرّ اليوم، على نحو أوضح، القيمة الكبيرة التي اكتسبها إصراره على لاهوت لصيق بالأسفار المقدسة، وعلى ما أراد من تجدّد روحي في الكنيسة. » (بادربورن، ألمانيا، 1996/6/22، لقاء مع ممّثلي الكنائس البروتستانتيّة)

وإنّ هذا التجدّد بالذات، هو الذي لم تتقن الكنيسة الكاثوليكيّة الإصغاء لنداء لوثر بشأنه. ولنلاحظ هنا أنّ البابا يرى أنّ "الكنيسة الكاثوليكيّة بالذات" هي التي رفضت الاستجابة للنداء، وليس "أبناء الكنيسة الكاثوليكيّة".

تديّن عميق:

كان البابا يوحنا بولس الثاني، في رسالة له بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لولادة لوثر، عام 1983، قد أقرّ للمصلح بـ"تديّن عميق"، وبنصيب سلطات الكنيسة الكاثوليكيّة في مسؤوليّتها عن "انقسام الوحدة الكنسيّة":

« في الواقع، إنّ الجهود العلميّة للمختصّين البروتستانتيّين والكاثوليكيّين، إذ تتقاطع على نطاق واسع في نتائج أبحاثها، أفضت إلى صورة أوفى وأوضح لشخصيّة لوثر، ولتعقيد سياق المعطيات التاريخيّة في نطاق المجتمع والسياسة والكنيسة، خلال النصف الأول من القرن السادس عشر. بذلك، برز إلى النور، على نحوٍ مقنِع، عمق الفكر الديني لدى لوثر، المشحون بهوىً حارق لمسألة الخلاص الأبدي. وقد اتّضح أيضاً، أنّ فصم الوحدة الكنسيّة لا يجوز أن يُنسب فقط، لا إلى سوء فهم من قبل رعاة الكنيسة الكاثوليكيّة، ولا إلى نقص في فهم الكاثوليكيّة الحقيقيّة من قِبل لوثر، على الرغم ممّا كان لهذين العاملين من دور. فإنّ القرارات المثارة كانت أعمق من ذلك، ففي الجدل حول العلاقات بين الإيمان والتقليد، كانت أسئلة أساسيّة تُطرح بشأن التفسير الصحيح للإيمان المسيحي، وحول تقبّله، وهي أسئلة أفضت نتائجها إلى تقسيم الكنيسة، ولا يمكن تجاوزها باستيعابها استيعاباً تاريخيّاً صِرفاً.

ولذلك، كان المطلوب مجهوداً مزدوجاً، في ما يتعلق بمارتن لوثر، وبالبحث عن استعادة الوحدة. وقبل كلّ شيء، من المهمّ أن نواصل في رويّة البحث التاريخي. ونحن مطالبون بالوصول، عبر بحث مجرّد من كلّ

حكم مسبق، وخاضع فقط للسعي وراء الحقيقة، إلى صورة صحيحة للمصلِح، ولعهد الإصلاح كلّه أيضاً، وللشخصيات التي انخرطت فيه. ويجب أن يُعترف بالخطأ، أينما وجِد، وأيّاً كان مرتكبه. وحيثما شوّه السجال النظر، يجب أن يقوَّم، بمعزل عن الجهة التي ارتكبته. وعلى هذا الصعيد، لا يحقّ لنا أن نخضع لرغبتنا في تنصيب أنفسنا قضاةً للتاريخ، إلا أنّ الهدف الأوحد الذي يسعُنا أن نبتغيه، هو أن نعرف التاريخ على نحو أفضل، فنصبح بذلك حمَلة للحقيقة. فإنّ اتّخاذنا موقفاً يخضع للتنقية بواسطة الحقيقة، هو وحده، يتيح لنا بلوغ فهم مشترك للماضي، وبالتالي العثور على نقاط انطلاق مشتركة من أجل الحوار اليوم. ولكنْ ههنا بالذات، تكمن النقطة الثانية الضروريّة: إنّ التوضيح التاريخي الذي يهتمّ بماضٍ، تتواصل دلالته حتى الآن، يجب أن يتزامن مع حوار الإيمان، ويقوم على البحث عن الوحدة، هنا والآن. وهذا الحوار يجد أساسه الصلب، وفق النصوص الإنجيليّة اللوثريّة، في ما يجمعنا حتى بعد الانفصال: أعني بذلك كلمة الكتاب المقدس، قوانين الإيمان، ومجامع الكنيسة القديمة. وإنّي لأثق – أيّها السيد الكردينال – أنّ أمانة السر من أجل الوحدة، تحت إدارتك، ستواصل الحوار القائم بجدّية كبيرة في ألمانيا، منذ ما قبل المجمع الڤاتيكاني الثاني، في روح متوافق مع أسّسه: في أمانة للإيمان الذي وُهِبناه كعطيّة، وهو إيمان يتضمن التوبة والاستعداد التام للاستيعاب عبر الإصغاء. » (رسالة إلى الكردينال "فيلبراندز" "WILLEBRANDS"، في الذكرى المئوية الخامسة لولادة مارتن لوثر، 1983/11/3)

إنّه نصّ أساس، بسبب المعايير التي يريد لها البابا أن تُعتمد في عمليّة "التوضيح التاريخي"، في سبيل "فهم مشترك للماضي"، الذي يجدر انتهاجُه في موقف "تطهيري"، فيه يُعترف بالأخطاء، وتصوَّب

"وجهة نظرنا". ويسعُنا أن نقول إنّ هذه الرسالة تحتوي بذور مجمل النهج التربوي، الخاص بفحص الضمير في نهاية الألفيّة، ذلك النهج الذي لن تتّضح معالمه إلا بعد ذلك بعشر سنوات. وهي تؤكّد، إذن، أن لهذا النهج التربوي أصلاً مسكونيّاً حقّاً.

ينتهي مفعول الحُرم الكنسي بالموت:

كان البابا يوحنا بولس الثاني قد ألمح، في شهر تشرين الثاني من عام 1980**، في "ماينس"** (MAYENCE)**، إلى الأخطاء التي يجب الاعتراف بها، وقد أقرّ بتلك التي ارتكبها الطرف الكاثوليكي في الأحداث التي قادت إلى "انقسام المسيحيّين البائس":**

« أتذكّر الوقت الذي قدِم فيه مارتن لوثر إلى روما، عام 1510-1511، ليزور ضريحَي زعيمَي الرسل، بوصفه حاجّاً، ولكن أيضاً، بوصفه إنساناً يبحث ويسأل. واليوم، وأنا قادم إليكم نحو الإرث الروحي الذي خلّفه مارتن لوثر، آتي بوصفي حاجّاً. وإنّي، بفضل هذا اللقاء في عالم تبدّل، قدِمتُ لأخُطّ علامة اتحاد في السر المركزي لإيماننا. [...]

اسمحوا لي، في بدء حوارنا، أن أعرب لكم عمّا يثير مشاعري على نحو خاص. أفعل ذلك في عودة إلى شهادة الرسالة إلى الرومانيّين، هذا السِّفر الذي كان بالغ الحسم بالنسبة إلى مارتن لوثر؛ فقد كتب يقول، عام 1522: "هذه الرسالة هي حقاً رائعة أسفار العهد الجديد، وهي زبدة الإنجيل".

وفي خطى رسول الأمم، يسعُنا أن ندرك أننا - كلّنا - بحاجة إلى اهتداء: "لا نريد أن يحاكم بعضنا بعضاً" (روما 2: 23). على العكس من ذلك، نريد أن نعترف معاً بخطيئتنا. » (ماينس، 1980/11/17، لقاء مع الكنيسة اللوثرية)

هنا يشبّه البابا الحاجُ نفسَه بلوثر حاجّاً، وهو يستشهد بنصٍ كان المصلِح قد نشره عام 1522**، في الفترة التي كان الحُرم قد صدر بحقّه:**

فإنّ القرار البابوي "انهض يا رب"، الذي أصدره البابا لاون العاشر، والذي أعلن فيه هذا الحُرم، يعود في الواقع إلى عام 1520. ولذلك، فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني يعتبر أنّ لوثر لم يعُد خاضعاً للحُرم، مثلما سيصرّح بذلك بعد تسع سنوات، خلال زيارته للبلدان الإسكندنافيّة: "إنّ كلّ حُرم ينتهي مفعوله بموت صاحبه". (54)

وبمناسبة زيارته للكنيسة اللوثريّة في روما، في 1983/12/11، كان البابا يوحنا بولس الثاني قد قام بمبادرة عرفان بالجميل حيال لوثر؛ فقد أراد أن تُتلى في ختام الاحتفال، صلاة جميلة جدّاً كان لوثر قد كتبها، وقد جاء فيها:

« أيها الرب،
نصلّي ونبتهل إليك،
نحن، الخطأة المساكين، كي تتلطّف
وتعيد، بقوة روحك،
الوحدة إلى ما تهشّم،
وتجمع ما تفرّق، وتجعل منه شيئاً واحداً.
اجعلنا نلتفت نحو حقيقتك الأزليّة وحدها،
ونتخلّى عن جميع الانقسامات،
بحيث يقودنا إليك فكرٌ واحدٌ وشعورٌ واحد،
أنت، الرب يسوع المسيح. » (55)

باختصار، إنّ البابا يوحنا بولس الثاني لا يطلب الغفران من لوثر، ولا يُلغي الحُرم الذي حلّ به، إذ يعتبره خالياً من كلّ مفعول. وهو يبحث عن "تقويم جديد للأسئلة الكثيرة التي طرحها لوثر وتبشيره". (56) **وقد قدّمنا العناصر الأساسية لهذا "التقويم الجديد"، وأهمّها هو الاعتراف بأنّ سبب الانقسام الأوّل كان انعدام جواب الكاثوليك على نداء لوثر من**

أجل إصلاح الكنيسة. وإنّ البابا يوحنا بولس الثاني، بمبادرته هذه، وهو أوّل بابا معاصر غير إيطالي، يرتبط في شجاعةٍ بالبابا أدريانوس السادس، وهو آخر بابا غير إيطالي من عصر النهضة، حاول عام 1522، أن يدفع الكنيسة الرومانيّة في برنامج إصلاحي، ردّاً على حركة لوثر. وقد رأينا أنّ البابا يوحنا بولس الثاني، استشهد بالبابا أدريانوس السادس في خطابه في "بادربورن". (57)

هل يسعُ البابا أن يقول اليوم المزيد بشأن لوثر؟ ربما قد يسعُه أن يقول باسمه الشخصي ما كان البابا بولس السادس قد قاله، في شهر تموز 1970، على لسان الكردينال "فيلبراندز"، الذي كان أكّد، إبّان المؤتمر الخامس للاتحاد اللوثري العالمي، في "أفيان" (EVIAN)، أنّ "لوثر هو معلّمنا المشترك في ميدان عقيدة التبرير". (59)

في الحقيقة، فإنّ البابا يوحنا بولس الثاني قد أقرّ بأنّ لوثر هو "معلّم مشترك"، وقد استشهد بنصوصه وامتدحها مرّات كثيرة، كما شاء أن تُعتمد صلاة للوثر في أحد الاحتفالات. وقد قال إنّ هواه الديني، ومطالبته بلاهوت لصيق بالكتاب المقدس، وإنّ نداءه من أجل إصلاح الكنيسة، كانت أموراً ربانيّة، وكان يمكنها أن تكون حاسمة، لولا أنّها فقدت فاعليّتها منذ البدء، بسبب انعدام الجواب من الكنيسة الكاثوليكيّة. وفي الواقع، فإنّه من الممكن أن يقول البابا يوحنا بولس الثاني بنفسه، ما كان البابا بولس السادس قد قاله بواسطة الناطق باسمه، الكردينال "فيلبراندز". وبخلاف ما حدث لسلفه، فلا خوف على البابا يوحنا بولس الثاني من أن يُتّهم بالضعف إزاء البروتستانتيّة، لأنّ الأزمنة قد تبدّلت.

الفصل السادس عشر

المافيـــا

تحدّث البابا يوحنا بولس الثاني مرتين على المافيا، أو بالأحرى، على المافيات، وهو يشير إلى مسؤوليّات الكنيسة: المرة الأولى كانت في مقاطعة "الكالابري" (CALABRE)، عام 1983، والمرة الثانية في روما، عندما استقبل أساقفة جزيرة صقلية، عام 1995. وفي مناسبات أخرى، خلال زيارتَيه لصقلية عام 1993 وعام 1994، فقد أدان المافيا، ونعتها بالعمل الشيطاني، وهدّدها بالعقاب الإلهي. فأحدثت هذه المواقف تبدّلاً في موقف الكنيسة إزاء هذه الظاهرة، وقد لاحظ الجميع هذا التبدل، بما فيهم رجال المافيا أنفسهم. سوف نكتفي هنا بالاستشهاد بالمداخلتَين اللتين دعا فيهما الكنيسة إلى فحص ضميرها وإلى التوبة.

لا تستطيع الكنيسة أن تصمت:

استخدم البابا كلمةً ونبرةً نبويّتَين، عندما تكلّم على المافيا في "كوسنزا" (COSENZA)، في تشرين الأول 1983، خلال عظة دارت حول قول لأشعيا، جاء فيه أنّ الشعب المختار يشبه كرمةً متمردة:

« نحن، نحن الذين نشكّل كرمة الرب، لَكَم من ثمر برّي أنتجنا، بدلاً من الخمرة الطيبة! لكَم من حقد وانتقام ودم مسفوك وسرقة ولصوصيّة وخطف للأشخاص ومظالم وأشكال من العنف لا تحصى! [...] والكنيسة، في مواجهة هذه المسائل، لا يمكنها أن تصمت، ولا يسعها أن تظلّ غائبة، أو لامبالية. إنّه ليتوجّب على الكنيسة وعلى المسيحيّين أن يكونوا في الصفوف الأولى في فضح هذه المظالم، ولكن أيضاً في إنشاء وعي

قوي، أخلاقي واجتماعي وسياسي، يُفضي إلى مبادرات عمليّة. [...] إنّه ليتوجّب على الكنيسة في "كالابري" أن تنخرط في واقع هذه الأرض الاجتماعي؛ يتوجب عليها أن تساعد الرجال والنساء في "كالابري"، كي يرسّخوا فيهم شعورهم بكرامتهم، شعورهم بحقوقهم وواجباتهم، شعورهم الأخلاقي باحترام حقوق الآخرين، الشعور بالعدالة والتضامن في العلاقات الإنسانيّة والاجتماعية. [...] فإنّ كرمة الرب هي أرض "كالابري" الغالية علينا جداً. عساها تكون محطّ محبّة الله، كما كانت الكرمة التي يتحدّث عنها النبي أشعيا! » ("كوسنزا"، 1983/10/6، عظة)

في هذا التحذير الكتابي، لم يستخدم البابا يوحنا بولس الثاني، لا كلمة "مافيا"، ولا كلمة "ندرانغيتا" (N'DRANGHETTA)، كما تسمّى المافيا في "كالابري". إلاّ أنّ قائمة الشرور التي أنتجتها "كرمة الرب" المسماة "كالابري"، هي رصد لنشاطات "ندرانغيتا": "أحقاد، انتقامات، دم مسفوك، سرقات، لصوصيّات، خطف بشر، مظالم، وأشكال من العنف لا تحصى".

فحص ضمير شجاع:

إنّ النص الثاني ينطوي على وضوح أكبر، سواء في إحالاته إلى المافيا، أو في دعوته لمراجعة الماضي. كان ذلك خطاباً ألقاه في حزيران عام 1995، أمام حجّاج من صقلية، دعاهم إلى إجراء فحص ضمير، استعداداً للألفية الثالثة:

« لئن كنت أطلقت صرخة من القلب في مدينة "آغريجنته" (AGRIGENTE)، في ختام الاحتفال القرباني الذي أقيم في الوادي المسمّى "وادي رجال المعبد"، فلأني أدركت أنّ صقلية، التي تزخر بالإنسانيّة والموهبة والموارد والإيمان، يشار إليها، منذ زمان بعيد، بالاهتمام والشجب، في قطاعات واسعة من الرأي العام، كما لو كانت التنظيمات

الإجراميّة فيها اليوم، هي أكثر تعابيرها دلالة. وقد أملت عليّ هذه الصرخة ثقتي بالصفات الإنسانيّة والمسيحيّة لشعبها الشهير، بسبب التراث الحضاري الغني جداً الذي يميّز ما فيه، وهو يستحق الاحترام، بسبب ما يعاني اليوم من آلام كثيرة، هذه الآلام التي لم تستطع أن تكسر إرادة الفداء لديه.

أيّها الصقليّون الأحبّاء،

لقد آن الأوان لتستنهضوا جميع الطاقات السليمة لديكم. ومع دنوّ الألفيّة الجديدة، دعوت الكنيسة مراراً للإقدام على فحص ضمير شجاع، كي يتسنّى لقوة الله ونعمته أن تكتبا صفحة جديدة في التاريخ. وأقترح عليكم أن تقوموا بالأمر نفسه، يا أحبّائي مؤمني صقلية. فعليكم أن تقرّروا بتصميم، عدم التراخي في مجهودكم، كي تمنحوا أرضكم وجهاً جديداً، وجهاً يليق بالثقافة والحضارة المسيحيّتين، اللتين وسَمتا جزيرتكم. وهذا ما شئت أن أنادي به في "آغريجنته". فإن المافيا أنتجها مجتمع عاجز روحيّاً عن الاعتراف بالغنى، الذي ينطوي عليه شعب صقلية. ولذلك، أكرر ما كنت قلته لكم، إبّان زيارتي الأخيرة لصقلية: "كوني سعيدة، يا صقلية. كوني مدركة لثروتك، وخصوصاً تلك التي لا تقدَّر بثمن: إيمانك بيسوع المسيح". ستنالين الحريّة إذا كانت لك شجاعة الوقوف الواعي مع سيد التاريخ الأوحد. » (قاعة اللقاءات العامة، 1995/6/22، لقاء مع حجّاج صقليين)

إنّ الكردينال "سالفاتوريه بابالاردو" (Salvatore PAPALARDO)[1]**، الذي أدهش العالم كلّه بصراعه الشجاع مع المافيا الصقليّة، يشهد بشأن**

[1] هو رئيس أساقفة "بالرما"، وقد لعب دوراً ناشطاً إبّان انعقاد المؤتمر الكنسي في شهر تشرين الأول عام 1978، ويظلّ شخصية رئيسية في الكنيسة الإيطالية. (الناشر)

المافيا، أنّ الكنيسة ارتكبت خطأً يسعُنا تسميته، على الأقل، بأنّه "تواطؤ سلبي"، وكأنّي به "ازدواجيّة". من ذلك أنه، يوم 1985/4/10، إبّان انعقاد المؤتمر الوطني للكنيسة الإيطاليّة، في مدينة "لوريتا" (LORETTA)، تحدّث الكردينال "بابالاردو"، بوصفه نائب رئيس الهيئة الأسقفيّة الإيطاليّة، بالعبارات التالية:

« بوصفي أسقفاً من أساقفة إيطاليا، أعتقد أنّه يسعني التكلّم باسم الجميع عندما أتوسّل رحمة الرب، الذي هو صالح ومحبّ للبشر، إذ أعترف بالأخطاء التي قد نكون ارتكبناها حيال العالم، وأعتقد أنّه يسعني أن أطلب الغفران، باسم كنائسنا، لكلّ ما كان بوسعنا أن نفعله، كمّاً ونوعاً، و لم نفعله. [...] سواء أكان الأمر يتعلّق بانحرافات طفيفة، بالجريمة المنظمة، بانزياح سياسي، أو أيضاً بالإرهاب والمافيا، فهذه دائماً ظواهر تُلزم الكنيسة بما هو أبعد من المآتم التي عوّدنا عليها التاريخ الحديث. فيليق بنا أن نعترف بأخطائنا، حتى لو لم تكن إلا في نطاق التواطؤ، أقلّه السلبي، أو الازدواجيّة، والتي قد تكون الجماعات الكنسيّة ارتكبتها أو أهملتها. » (59)

إنّ نصّ الكردينال "بابالاردو" يكتسب أهمّية كبرى، لأنّه يشكّل "الاعتراف بالخطأ" الوحيد، في مجمل تاريخ الهيئة الأسقفيّة الإيطاليّة، التي انتهت من تلقاء نفسها إلى طلب الغفران، قبل أن يكون البابا قد أطلق توجيهه بهذا الشأن، والتي لم تجرؤ على تكراره، بعد مداخلة البابا. وهي، على كلّ حال، لم تعد تفعل ذلك، عندما انعقد في "باليرما"، في شهر تشرين الثاني عام 1995، المؤتمر الوطني الثالث للكنيسة الإيطاليّة، والذي كان قد أعلن عنه على أنّه "فرصةٌ ثمينةٌ لطلب الغفران بسبب أشكال التواطؤ والتقصير، التي لا يمكن تبريرها في ضوء إنجيل المحبّة". (60)

مع ذلك، فمنذ عام 1982، كان المطران "فنشنزو فاجيولو" (Vincenzo

FAGIOLO)، الذي قُيّض له أن يصبح كردينالاً في الإدارة الرومانيّة، والذي كان آنذاك مسؤولاً عن جمعية "كاريتاس"، ونائب رئيس هيئة الأساقفة، قد وجّه دعوةً للكنيسة الإيطاليّة كي تشعر بـ"مسؤوليّتها" إزاء جرائم المافيا:

« إنّ جرائم المافيا والكامورا[1] قد تجاوزت كلّ حدّ، وهي تستدعي عقاب الله على مرتكبيها، وتستنهض ضمائرنا. يتوجّب على كنيسة إيطاليا كلّها، أن تشعر بمسؤوليّتها حيال هذه الاغتيالات، وأن تبذل جهدها كي يُثقل كلٌّ جماعة من جماعاتها، الشعورُ بالخزي لاستقبالها في حضنها، مسيحيّين ليسوا جديرين بأن يكونوا من فصيلة البشر، ولكي تنبذهم أخلاقيّاً، وتفصِلهم عنها، وتفرض عليهم وضعاً يُحرمون فيه من كلّ عَون، بل يجابَهون، على العكس، بالمعارضة والرفض، حتى يُصلِحوا أنفسهم بأنفسهم. » (61)

[1] هو اسم آخر للمافيا.

الفصل السابع عشر

العنصرية

كثيراً ما يتكلّم البابا يوحنا بولس الثاني على العنصريّة، التي يدينها تحت أشكالها المختلفة، من اللاسامية إلى الفصل العنصري (APARTHEID)، إلى نظام الطبقات الهندوسيّة، إلى التمييز حيال الهنود الحمر في أميركا، إلى الصراعات القبليّة، إلى قمع المواطنين في جميع القارات، إلى تجارة الزنوج.

وهو، في حديثه عن كلّ واحدة منها، يُقرّ بالمسؤوليّات الكاثوليكيّة، أو هو، أقلّه، يشير إليها. وقد قدّمنا أمثلةً كثيرةً على ذلك، في الفصلَين المتعلّقَين باليهود وبهنود أميركا. وسنرى أمثلةً أخرى في الفصلَين المتعلّقَين برواندا وبتجارة الزنوج. ونفتقر إلى اتّخاذ موقف من مجمل مسؤوليّات الكنيسة الكاثوليكيّة إزاء ظاهرة العنصريّة، إلاّ أنّ الفاتيكان قد نشر، عام 1989، وثيقةً تشكّل نقداً ذاتيّاً حقيقيّاً في ميدان المواقف العنصريّة، عبر التاريخ وفي عالم اليوم:

« ليس المقصود هنا استعراض التاريخ الكامل للعنصريّة، ولا لموقف الكنيسة حيالها، ولكن المقصود هو ذكر بعض النقاط البارزة من هذا التاريخ، والتأكيد على تماسك تعليم الكنيسة الرسمي إزاء ظاهرة العنصريّة. هذا لا يعني أنّنا نرمي إلى إخفاء هنات بعض المسؤولين الكنسيّين، وأحياناً أيضاً تواطئهم، وكذلك بعض المسيحيّين العاديّين. [...]

كان العصر الوسيط المسيحي يميّز أيضاً الشعوب وفق معايير دينيّة، ما بين مسيحيّين ويهود و"كُفّار". ولهذا السبب، كثيراً ما عَرف اليهود، داخل المجتمع المسيحي، بوصفهم شهوداً متصلّبين لرفض الإيمان بالمسيح، مذلاّت جسيمة، واتّهامات، وإقصاءات...

لئن كان البحّارة العِظام في القرنَين الخامس عشر والسادس عشر، منزّهين من الأحكام العنصريّة المسبقة، فإنّ الجنود والتّجار لم يكن لديهم الاحترام نفسه: فقد قتلوا ليستوطنوا، وفرضوا نظام العبوديّة على "الهنود"، ثمّ على الزنوج، ليستثمروا عملهم، وأخذوا يصوغون نظريّة عنصريّة، كي يجدوا ما يبرّرهم. »

وسرعان ما جاء ردّ فعل البابوات؛ ففي 1537/6/2، أصدر البابا بولس الثالث براءته البابويّة "الإله العليّ"، يفضح فيها مَن يدّعون أنّ "سكان الهند الغربيّة والقارات الجنوبيّة... يجب أن يعامَلوا كالبهائم غير العاقلة، وأن يُستخدموا حصراً لفائدتنا وخدمتنا". [...]

بمثل هذا الوضوح، كانت توجيهات الكرسي الرسولي، حتى لو واجه تطبيقها - للأسف - مصاعب فوريّة. فيما بعد، مضى البابا أدريانوس الثامن إلى إلقاء الحُرم على مَن يملكون عبيداً هنوداً.

من جهةٍ أخرى، فإنّ بعض اللاهوتيّين والمرسلين كانوا قد تصدّوا للدفاع عن السكان الأصليّين. [...]

ولكن الصلة الوثيقة التي كانت قائمة بين أرباب العمل ورجال الكنيسة في القارة الأميركيّة، لم تسمح دائماً للكنيسة باتّخاذ القرارات الرعويّة المفروضة. [...]

حيثما كان المرسلون في ارتباط أوثق مع السلطات السياسيّة، واجهوا مزيداً من الصعوبة في لجْم مشروع الهيمنة لدى المستوطنين؛ لا بل شجّعوهم أحياناً، باعتمادهم تفسيرات ماكرة للكتاب المقدّس.

« إنّ المعارضات القَبَليَّة تعرّض أحياناً للخطر، إن لم يكن السلام، فأقلّه السعي وراء خيرٍ مشترك يعني المجتمع برمّته، وتُحدث أيضاً، مصاعب في حياة الكنائس، وفي تقبّل رعاةٍ من إثنيات أخرى. [...]

فالكنيسة مدعوّة دعوةً ساميةً، هي تحقيق وحدة الجنس البشري في ذاتها أوّلاً، بعيداً عن التباينات الإثنية والثقافيّة والوطنيّة والاجتماعية وسواها، كي تُظهر بالتحديد بُطلان هذه التباينات عينها، والتي ألغاها صليب المسيح. [...] وما هو محدّد للكنيسة من دعوة ورسالة، عليها تحقيقهما بتكليفٍ إلهي، لا يمكن، بأيّ حال، أن تُبطله الإخفاقات المتكررة، بسبب بَلادات البشر وخطايا أعضائها.

صحيح أنّ المسيحيّين أنفسهم، يتوجّب عليهم الإقرار في اتّضاع، بأنّ بعض أعضاء الكنيسة، من جميع المستويات، لم يسلكوا دائماً سلوكاً متماسكاً على هذا الصعيد، عبر التاريخ.

مع ذلك، فإنّ الكنيسة، في استنكاراتها للعنصريّة، تحاول أن تحتفظ بموقف إنجيلي حيال الجميع. ههنا، دون شكّ، تكمن أصالتها...

تسعى الكنيسة خصوصاً إلى تغيير الذهنيّات العنصريّة، حتى داخل جماعاتها الخاصة. [...] وعلى الرغم من محدوديّات أعضائها الخاطئة، أمس واليوم، فهي تدرك أنّها إنّما أُقيمت شاهدة على محبّة المسيح على الأرض، علامة وأداة لوحدة الجنس البشري. » (الكنيسة في مواجهة العنصرية من أجل مجتمع أكثر أخوّة، وثيقة اللجنة البابوية "عدالة وسلام")

لقد قلنا إنّ هذا الفصل هو الوحيد الذي لم نجد بشأنه أيّ خطاب مباشر للبابا، يحتوي نقداً ذاتيّاً صريحاً. ولكنّا عثرنا على خطاب جميل جداً، يحتوي نقداً ذاتيّاً غير مباشر، واضحاً في السياق الذي أُلقي فيه.

في شهر أيلول عام 1987، **إذ كان البابا يقوم بزيارة للولايات المتحدة، التقى في مدينة "نيو أورليانز"** (NEW ORLEANS)، **الكاثوليك الزنوج الأميركيّين. وكان الأسقف "جوزيف لوسن هوز"** (Joseph LAWSON HOWZE)، **أسقف مدينة "بيلوكسي"** (BILOXI) **بولاية لويزيانا - وهو الأسقف**

الزنجي الوحيد على رأس أبرشيّة أميركيّة - (كان ثمّة عشرة أساقفة زنوج في تلك الفترة، ولكنّهم كانوا يحملون فقط لقب أسقف مساعد)، قد أكدّ أنّ "العنصريّة في الكنيسة أيضاً، تحول دون التطور التام في داخلها لزعامة زنجيّة". وأضاف أنّ الزنجي يواجه المصاعب في الانتماء إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، لأنّها تبدو له وكأنها "كنيسة بيضاء، أوروبيّة وأميركيّة"، وهو يخشى، إذا ما التحق بها، أن "يتخلّى عن تراثه العرقي، وعن شعبه". (62) فأجابه البابا بكلماتٍ حارّة، ألهبت مشاعر هذا الجمهور من الزنوج، ودوّت في مسامعه على أنّها نقد ذاتيّ هام بشأن ماضٍ وحاضر ملتبسَين في ميدان العنصريّة:

« ليس هناك لا كنيسة سوداء، ولا كنيسة بيضاء، ولا كنيسة أميركيّة. بل هناك، ويجب أن يقوم في كنيسة يسوع المسيح الوحيدة، بيت للبيض والسود والأميركيّين، ولجميع الثقافات وجميع الأعراق. » (نيو أورليانز، 1987/9/12، لقاء مع الجماعة السوداء في الولايات المتحدة)

إقرار بالأخطاء، استغفار، مصالحة: إنّ البابا يوحنا بولس الثاني يحاول أن ينهض، في نطاق العلاقات بين الأعراق والثقافة، بذلك النهج التربوي ذاته، الذي حاول تطبيقه في الميدان المسكوني. وفي أثناء هذا اللقاء الأميركي بالذات، كان البابا قد طلب من محدّثيه الابتهال إلى الله، "كي يواصل إلهامنا الرغبة في الغفران والمصالحة مع جميع أقوام هذه الأمّة، حتى مع الذين يُنكرون عليكم ظلماً، الممارسة الكاملة لحقوقكم الإنسانيّة". وسيستعيد هذه الحجّة ذاتها، في شهر أيار عام 1989، في "لوساكا" (LUSAKA) بزامبيا، في ما عُهد عنه من مواقف لا تعَدّ ولا تحصى، ضد نظام الفصل العنصري (APARTHEID):

« بوصفكم أمّة قُدوة في أفريقيا، فأنتم تواجهون تحدّي بناء مجتمع، تقام فيه علاقات متناسقة بين الأشخاص الذين يؤلّفون كلّ مجموعةٍ عرقيّة.

إنّ هذا الأمر، وجهودكم المتواصلة لتطوير الحوار البنّاء بين الأطراف المعنيّة، يجب أن يشكّلا ردّكم على نظام الفصل العنصري غير المقبول. إنّ العنصريّة مدانة، ولكن الإدانة لا تكفي، بل يجب تشجيع الحلول التي تؤدي إلى استبعاد الخوف، وإلى بلوغ المصالحة. » (لوساكا، زامبيا، في 1989/5/2، خطاب البابا لحظة وصوله إلى المطار)

إنّ الاعتراف بالخطايا بشأن العنصريّة في الميدان المسكوني، يتّسم بمزيدٍ من قوّة، أو، على كلّ حال، بمزيدٍ من مباشرة، وهو أقلّ اهتماماً بربط النقد الذاتي بالهاجس الدفاعي. فإنّ الوثيقة الختاميّة للجمعيّة المسكونيّة العالميّة المنعقدة في "سيول" (5-1992/3/12)، **تحتوي، على سبيل المثال، هذا التأكيد: "لِنُقم تحالفاً كي نقرّ بتواطئنا، المتفاوت الوعي، مع العنصريّة التي تخترق الكنيسة والمجتمع على السواء، وكي نتوب عنها".** (63)

الفصل الثامن عشر

رواندا RUWANDA

إنّ مثال "رواندا" يقدّم الدليل على أنّ البابا يوحنا بولس الثاني لا يُقرّ بأخطاء الماضي وحسب، ولكن بأخطاء الحاضر أيضاً. وفي جملة المداخلات التي كرّسها البابا لهذه الحرب القَبَليّة التي اجتاحت هذا البلد، اخترنا اثنتين، وهما أكثرها دراميّة: الأولى صلاة يوم الأحد من عام 1994، يقرّ فيها بمسؤوليّة الكاثوليك في الإبادة الجماعيّة، والثانية رسالة من عام 1996، يدعو فيها الكاثوليك المسؤولين عن المجزرة، إلى قبول مثولهم أمام المحاكم.

سيتوجب عليهم جميعاً أن يتحمّلوا مسؤوليّة جرائمهم:
أن يفضح البابا مسؤوليّات الكاثوليك في مجزرةٍ قائمةٍ، ذلك حقّاً موقف تاريخي جديد:

« هناك إبادةٌ حقيقيّةٌ، يؤسفني أن يكون من الكاثوليك مَن هم مسؤولون عنها أيضاً. أنا أقف مع هذا الشعب المحتضر، وأودّ من جديد، أن أستنهض ضمير جميع الذين يخطّطون هذه المجازر وينفّذونها. إنهم يُلقون البلد في الهاوية! سوف يؤدّون كلّهم الحساب عن جرائمهم، أمام التاريخ وأمام الله. كفانا دماءً! إنّ الله يتوقّع من جميع سكان رواندا، بدعم من البلدان الصديقة، يقظة أخلاقيّة: شجاعة للغفران، وشجاعة للتآخي. » (صلاة يوم الأحد 1994/5/15، سُجّلت في مشفى الدكتور "جميلي" "GEMELLI"، حيث كان البابا يعالج، وأُعيد بثّها من راديو الڤاتيكان)

في السابق، كان هناك مسيحيّون منعزلون يستنكرون "خطيئة" جماعات كاثوليكيّة برمّتها: مثلاً، "برنانوس" (BERNANOS)[1] كان وحده مَن استنكر الدور الذي لعبته الكنيسة في الحرب الأهليّة الإسبانيّة. ويسعُنا أن نرى علامة من علامات الأزمنة، في أنّ البابا هو الذي يقوم بهذه المهمّة اليوم. وقد يوفّر ذلك الحماية للجماعات الكاثوليكيّة في أفريقيا، التي نمت بسرعة فائقة، والتي ما تزال تشكو من طابعها الأفريقي الهزيل، وربّما أيضاً من طابعها المسيحي السطحي.

إلاّ أنّنا نشعر أنّ البابا، في هذه الكلمات، يلتحم شخصيّاً مع مأساة رواندا: فهو يطلق هذه الرسالة من سريره في المشفى، في يومٍ كان يُفترض فيه أن يقدّم للكنيسة الكاثوليكيّة برنامجه من أجل اليوبيل الكبير عام 2000. وفي أعقاب سقوطه بتاريخ 4/29، اضطرّ أن يعود، للمرة السادسة، إلى مشفى الدكتور "جميلي"، حيث وضعوا له مفصلاً اصطناعيّاً في الورك الأيمن، فاضطره هذا الحادث الطارئ لإلغاء عدد من مواعيده، بينها المؤتمر الاستثنائي الذي دعا إليه من 8 إلى 10 أيار، والذي عُقد أخيراً في 13 و 14 حزيران. وكان، إعداداً لهذا المؤتمر، قد أرسل إلى الكرادلة الوثيقة المذكِّرة، التي كنّا قد تحدثنا عنها في الفصل الثامن من القسم الأوّل. وكانت هذه الوثيقة تطرح فكرة فحص الضمير في نهاية الألفيّة، حول الأخطاء التاريخيّة للكنيسة؛ وإذ بأخطاء الحاضر تقفز إلى مقدمّة المشهد، في عنفٍ ماثِل، يضفي دماً نديّاً إلى القائمة المرعبة. فيقبل البابا، على الفور، هذا التحدي الجديد، ويكون بذلك رائداً في تقديم القدوة.

إلى الكاثوليك الذين أخطأوا:

مضى عامان، وأتت عمليّة الإبادة على أكثر من مليون إنسان، من أصل ثمانية ملايين يقطنون رواندا، بينهم 45٪ من الكاثوليك. وقد

[1] كاتب فرنسي مسيحي شهير (1889–1948)

أُحصي بين القتلى ثلاثة أساقفة ومئات من الكهنة والراهبات ومدرّسي التعليم المسيحي. ها إنّ ربع الكهنة قد قُتلوا! وقد جرت المجازر الكبرى - في الغالب - في الكنائس، فتحوّلت إلى مسالخ للأبرياء، كما قال الكردينال "أتشيغاراي" يائساً، يوم 1994/6/26، في مدينة "جيزيني" (GISENYI)، وقد أوفدَه البابا إلى هناك. أحياناً، كان بعض الكهنة والراهبات في عداد القتلى، لأنّهم كانوا يعارضون المجازر. وأحياناً أخرى، تحمّلوا هم مسؤوليّة هذه المجازر؛ بل إنّ بعض رجال الكنيسة كانوا في عداد المطلوبين من قِبل المحكمة الجزائيّة الدوليّة من أجل رواندا. ولقد كان البابا يفكّر في هؤلاء أيضاً، عندما نشر رسالته، عشية الذكرى الثانية لبدء أعمال الإبادة (1994/4/6):

« أنحني أيضاً أمام ذكرى جميع ضحايا هذه المأساة، لا سيما الأساقفة والرعاة وسائر مؤمني الكنيسة، سائلاً الرب أن يغمرهم برحمته.

في الوقت الذي يبحث فيه بلدكم عن طرق للمصالحة والسلام، أشجّع بحرارة جميع أبنائه على اكتشاف رجاءٍ جديدٍ في المسيح. ففيه تتجلّى، بكلّ كمالها، رحمة الله غير المحدودة، فهو يغفر للجميع، وفي جميع الظروف. [...] وأدعوكم كلّكم، أساقفة وكهنة ورهباناً وراهبات وعلمانيّين، على اختلاف أصولكم العرقيّة، كي تتوجّهوا نحو الله بقلبٍ صادق، وكي تغفروا وتتصالحوا. [...]

إنّ الدولة تواجه تحدّياً كبيراً وصعباً: فمن واجبها الأساسي أن تحكم بالحق للجميع. وأودّ أن أضيف أنّ العدل والحقيقة يجب أن يتلازما، عندما يكون المطلوب تسليط الضوء على المسؤوليّات، في المأساة التي عرفها بلدكم. [...]

أمضي بفكري، على نحوٍ خاص، إلى الأسرى الكثيرين الذين ينتظرون محاكمتهم، وإلى أولئك الذين فقدوا جميع أحبّتهم أو ممتلكاتهم، والذين ينتظرون

حُكماً عادلاً، وإلى لاجئي الداخل، وإلى أولئك الكثيرين الكثيرين الذين ينتظرون وراء الحدود، أن تُتاح لهم العودة إلى البلد في أمانٍ وكرامة. [...]

إنّ الكنيسة، بوصفها كنيسة، لا يمكن اعتبارها مسؤولة عن أخطاء أعضائها، الذين تصرّفوا خلافاً لشريعة الإنجيل؛ سوف يؤدّون حساباً عن أفعالهم. ويتوجّب على جميع أعضاء الكنيسة، الذين أخطأوا خلال عمليّات الإبادة، أن يتحمّلوا في شجاعة، نتائج الأفعال التي ارتكبوها ضد الله وضد القريب. » (رسالة إلى رئيس مجلس أساقفة رواندا، في 1996/3/20)

كان البابا يوحنا بولس الثاني قد تحدّث، في مناسبات أخرى، عن عمليّات الإبادة، وأقرّ بمسؤوليّة بعض الكاثوليك أيضاً عنها. ولكنّه، في هذه المرّة، يمضي إلى أبعد من ذلك: فيأمر الكاثوليك "الذين أخطأوا" بعدم التهرّب من العدالة، ويؤكّد أنّ "الكنيسة، بوصفها كنيسة"، لا يمكن اعتبارها مسؤولة عن أخطاء أعضائها، ويطالب الدولة بـ"ممارسة العدالة حيال الجميع".

هذه التأكيدات كانت على درجة عظيمة من الجرأة: من جهة أولى، بسبب الشجاعة التي كان البابا يضع فيها إصبعه على الجرح (فبين المتّهمين بعملية الإبادة، كهنة كانوا قد هربوا خارج بلدهم)، ومن جهة ثانية، لأنّ أقواله كانت تعارض سياسة النظام. فإنّ دعوة الدولة إلى ممارسة العدالة، كان يعني إقامة المحاكم التي كانت الجبهة الوطنيّة الرواندية (وهي الامتداد العسكري لقبيلة "التوتسي"، التي أمسكت بالسلطة منذ شهر تموز 1994) تُرجئها إلى أمدٍ غير مسمّى، في حين كان خمسون ألف سجين تقريباً، ينتظرون في السجون تقرير مصيرهم.

مع ذلك، فإنّ الدعاية الرسميّة كانت تتّهم الكنيسة بدعم النظام السابق، الذي كان تحت سيطرة أفراد قبائل "الهوتو" (HUTUS)، بل بمساندتها له خلال عمليّة الإبادة. ففي هذه الظروف، يتّخذ التمييز

الذي أقامه البابا، كلّ قيمته: فالكنيسة ليست مسؤولة عمّا فعله الأفراد، وعليهم، بالتالي، أن يخضعوا للمحاكمة.

ولكنّ ما هو المعنى الذي كان يمكن أن تحمله تحريضات البابا ودعوته إلى المصالحة؟ صحيح أنّ صوته يظلّ مرجعاً لجماعة كاثوليكيّة زلزلَتها مأساة بهذا الحجم، ولكنّ ما عسى بابا بولوني أن يدرك من شؤون رواندا؟ "أنا لا أفهم، وما من أحد يستطيع أن يفهم، وحتى أنتم ليس بوسعكم أن تفهموا ما انتهيتم إليه"، هذا ما قاله الكردينال "أتشيغاراي"، في الظروف التي أشرنا إليها سابقاً. ولكن، لحسن الحظ، لم تغِب الأصوات في رواندا بالذات، التي ارتفعت عالياً، وهي في انسجام تام مع صوت البابا؛ وكان أقواها صوت أسقف مدينة "بوتاره" (BUTARE)، وقد وجّه رسالة إلى شعبه، نشرها في الذكرى السنويّة الأولى لبدء أعمال الإبادة:

« لقد كنّا مجلَبة عارٍ لله ولاسم ابنه يسوع المسيح. [...] من المسيحيّين مَن قَتلوا، بل عَذّبوا. اضطهدوا جيرانهم، وهم إخوة مسيحيّون مثلنا، دون أن يكونوا ارتكبوا أيّ خطأ بحقّهم، ولكن فقط بسبب ما هم عليه، لأنّهم هكذا خلقهم الله. [...] بعض المسيحيّين تطاولوا على حُرمة الشخص البشري، إذ أنّهم جرّدوا الكثيرين من كامل ثيابهم، وقبل أن يقتلوهم في ساديّة، أخضعوهم للتعذيب، واغتصبوا الفتيات والأمّهات، وتركوا ضحاياهم دونما قبور، وجرّدوهم من ملابسهم، وأطلقوا كلابهم في أعقاب الهاربين. [...] فما من قبيلة امتنعت عن ارتكاب الفظائع في هذه الإبادة، ويسعُنا القول إنّها تنافست جميعاً في الوحشية. » (65)

لدينا أيضاً أحكام غير هذا الذي تلا أعمال الإبادة. ذلك بأنّ أسقف "كبغايي" (KABGAYI)، وهو أعلى المسؤولين في الكنيسة الكاثوليكية في رواندا، إذ كان رئيساً لهيئة الأساقفة فيها (وقد اختاره الطرفان

المتصارعان وسيطاً بينهما في مفاوضات المصالحة)، كان قد قال منذ بدء المجازر، وأيّاماً قليلة قُبيل قتله هو بالذات:

« إنّ هذه المجازر، وقد أتت بعد أربعة وتسعين عاماً من انتشار المسيحيّة في رواندا، قد برهنت على فشلنا. فإنّ العديد من كهنة أبرشيّتي قد شاهدوا أبناء كنائسهم، بأعداد كبيرة، يُشهِرون سواطيرهم، ويدمّرون حتى أماكن العبادة. تلك هي الحقيقة المريعة: فإنّ الناس لم يتمثّلوا القيم المسيحيّة. يتوجّب علينا أن نعاود التبشير بأساليب جديدة. [...] إنّنا نكتشف أنّنا ارتكبنا خطأ ممارسة التبشير الجماهيري. لقد شاهدنا عمادات كثيرة، ولكنّا لم نشهد إلاّ القليل من التغيير في أسلوب الحياة. » (66)

لم يكن البابا ينظر إلى هذه الإبادة على أنّها عمل مفاجئ، نبتَ من لا شيء. فقد كان إبّان زيارته، في شهر أيلول 1990، **إلى "بوروندي"** (BURUNDI) **و"رواندا"** (RUWANDA)، **سمع الكثير عن كمون مأساة الحروب القبليّة. وكان اللاجئون الروانديّون من قبيلة "التوتسي"، قد وجّهوا إليه نداءً إلى روما، قبل سفره، يفضحون فيه واقع انتماء جميع الأساقفة إلى قبيلة "الهوتو"، وبروز تمييز عنصري شديد، داخل الكنيسة، متلازم مع العنصريّة السياسيّة. وفي "استاد" مدينة "كيغالي"** (KIGALI)، **كان الشبّان قد طرحوا عليه هذا السؤال المزعج، الذي ضاع في زحمة الأسئلة المطروحة الراهنة: "هل تدري أن العنصريّة في رواندا متفشّية داخل الكنيسة بالذات؟" وكان البابا قد أجابهم بالنبرة ذاتها:**

« إنّ الأفكار العنصريّة هي في تعارُض مع رسالة المسيح، لأنّ ذلك القريب الذي يطالبني المسيح بمحبّته، ليس هو فقط الإنسان الذي ينتمي إلى فريقي الاجتماعي، وإلى ديانتي أو إلى أمّتي. إنّ قريبي إنّما هو كلّ إنسانٍ ألتقيه في طريقي. » (67)

ثمّة رؤية شاملة لأحداث رواندا، جمعت في آنٍ واحدٍ بين فظائع

الإبادة وشهادات مسيحيّة، وقد قدّمها، في إحدى أصعب الفترات، المطران "جيوسيبّي برتيلو" (Giuseppe BERTELLO)**، الذي كان سفيراً بابويّاً في "كيغالي"** (KIGALI) **منذ عام** 1991:

« ربّما يترتّب علينا إعادة النظر في أساليبنا التبشيريّة: فلقد حدث انفجار في الاهتداءات، ربّما كان مفرطاً. سندرس هذه المسألة.

إنّ اشتراك المسيحيّين في المجازر، "ألم اخترق الكنيسة كلّها"، خلال هذه الحرب الأهليّة، التي بدأت منذ سنوات، وليس في 1994/4/6، كما يظنّ الجميع. ولكنْ لا يحقّ لنا أن ننسى أيضاً، أنّنا شاهدنا أحداثاً بطوليّة: فهناك مِن "الهوتو" مَن أنقذوا أناساً من "التوتسي"، والعكس بالعكس... لم نكفّ يوماً عن التحدّث عن المصالحة والوحدة الوطنيّة. ولكنْ مِن المحتّم أنّ التوتّرات بين العرقَين في مدارس التنشئة الكهنوتيّة، كانت ملموسة. » (68)

إنّ الكردينال "هياسانث ثياندوم" (Hyacinthe THIANDOUM)[1]**، وهو مقرِّر المجمع الأفريقي** (1994)**، قد أطلق نقداً ذاتيّاً صارماً حول الطريقة التي اتّبعها المرسَلون والكنائس المحليّة في تبشير أفريقيا. وكان ذلك بالتحديد، بسبب أحداث رواندا وبوروندي:**

« هذان البلدان هما، في أفريقيا، اللذان يحتويان أعلى نسبة مئويّة من الكاثوليك. ولقد تساءلنا، نحن آباء المجمع: ما هو نمط الإيمان المسيحي الذي تغلغل في هذين البلدين؟ حقّاً، إن كان التبشير لا يبدّل الإنسان بحيث يغيّر، في العمق، القلوب والأدمغة، أي طريقةَ تقييم الذات وتقييم العالم، فإنّ جميع جهودنا تكون قد ذهبت هباءً، وستُفضي إلى العدم في لحظة. » (69)

[1] **هو رئيس أساقفة داكار في السنغال.**

الفصل التاسع عشر

الانشقاق الشرقي

إنّ قلب البابا يوحنا بولس الثاني يخفق في الشرق، ولقد خصّ الانفصال عن الشرق بأكثر دعواته إلى التوبة، حرارةً وتواتراً. سنُدلي بأربعة نصوص له، تلفّظ بها خلال السنوات الخمس الأخيرة: اثنان منها مستمدّان من وثائق ذات أهميّة كبيرة، وهي براءاته ورسائله الرسوليّة. ثمّة نصّ آخر ورد في تصريح مشترك، صدر عن البابا يوحنا بولس الثاني وبطريرك القسطنطينيّة "برثولوميوس" (BARTHOLOMEOS). والرابع نطق به أثناء احتفال مسكوني، أقيم في كنيسة أرثوذكسيّة في بولونيا، عام 1991. **وقد يكون هذا الأخير أكثرها أهميّة، لأنّه أقدمها، وهو يحتوي بذور جميع النصوص التالية.**

وإنّه لَذو دلالة أن يكون هذا الاعتراف بالخطايا أكثرها تواتراً في السنوات الأخيرة: فذلك يشير إلى أنّ البابا يدرك مصاعب الاتحاد مع الشرق، في أعقاب انقطاع الحوار الذي حدث بعد سقوط الأنظمة الشيوعيّة. سوف نبدأ، إذن، عرضَنا للنصوص بذاك الذي قاله في بولونيا. ذلك أنّ البابا يوحنا بولس الثاني، كان، طوال ثلاث عشرة سنة لبابويّته، قد أبدى ثقة بقرب الاتحاد مع الشرق:

« إنّ الزيارة التي أقوم بها اليوم، أريد أن يكون لها معنى اللقاء على الطريق الرسوليّة المشتركة، ولكي نسير معاً نحو الوحدة الكاملة، لَكَم من ظروف تاريخيّة محزنة سبّبت جراحاً، خصوصاً خلال الألفيّة الثانية. كيف لنا ألا نعبّر عن رجائنا القوي بالله، كي ينهض قريباً عهدٌ جديد؟ »

هذا ما قاله البابا في شهر تشرين الثاني عام 1979، **إذ كان يقوم**

بزيارة، في اسطنبول، لبطريرك القسطنطينية "ديمتريوس الأوّل" (DIMITRIOS I). ومع المصاعب التي برزت، بخلاف المتوقّع، إثر انهيار الأنظمة الشيوعيّة، أدرك البابا يوحنا بولس الثاني أنّ طريق الاتحاد لم يعُد ممكناً، إلا إذا مرّ بالتوبة أو بالغفران المتبادل.

كلّنا ارتكبنا أخطاءً:

صحيح أنّ الكلمات هنا هي المهِمّة، ولكنّ المكان الذي نُطقت فيه، والذي اختيرت من أجله، ليست خالية من الدلالة: إنّنا في بولونيا، في كاتدرائيّة "بياليستوك" (BIALYSTOK) الأرثوذكسيّة، على بعد بضعة كيلومترات من الحدود مع "روسيا البيضاء" (BIELORUSSIE). فخلال الحرب الأخيرة، كان النازيّون قد دمّروا المدينة، وأبادوا سكانها، وخصوصاً اليهود: إنّه مكان نشبت فيه، طوال قرون، حروب مسيحيّة، جعلت الحكم فيها تتناوبه السيطرة الكاثوليكيّة والسيطرة الأرثوذكسيّة، وفق ما كانت المنطقة تخضع لملوك بولونيا أو لقياصرة روسيا. أمّا الكاتدرائية الأرثوذكسيّة التي اختيرت ليُقام فيها الاحتفال الديني المسكوني، الذي نطق خلاله البابا بتصريحه، فقد كانت قد شُيّدت في مكان الكاتدرائيّة الكاثوليكيّة السابقة، ذات الطقس الشرقي، التي كان الحكم القيصري قد دمّرها في القرن الأخير.» (70)

لقد شارك البابا يوحنا بولس الثاني في احتفالات مسكونيّة، في العديد من الكنائس التابعة لجماعات مسيحيّة أخرى: في معابد لوثريّة في روما وسالزبورغ، في كاتدرائيّة الفنار الأرثوذكسيّة في اسطنبول، في كاتدرائيّات أنكليكانيّة في "كانتربري" (CANTERBURY) و"تورونتو" (TORONTO)، في الكاتدرائيّات اللوثرية في "ستراسبورغ" (STRASBOURG)، و"ترونديم" (TRONDHEIM) بالنرويج، في "ريكيافيك" (REYKJAVIK) بإيسلندا، في "توركو" (TURKU) بفنلندا، في "روسكيلد" (ROSKILDE) بالدانمارك، في "أوبسالا" (UPPSALA) بالسويد، في "ريغا" بليتوانيا، وفي أمكنة أخرى كثيرة

أيضاً. ولكنّه، في أيّ من هذه الأمكنة، لم يُتقن، حتى اليوم، التوفيق بين الفعل والقول في ما هو أكثر دلالة ونجاعة، منه في بولونيا:

« إذ توجّهنا نحو الرب خلال هذه الصلاة الرسميّة والسامية، التي فيها ترّجعت مراراً أصداء الدعاء: "رُحماك يا رب"، لا يسعُنا إلا الإقرار في اتّضاع، بأنّ العلاقات بين الكنائس، في الماضي، لم يسُدها دائماً روح الأخوّة الإنجيليّة. وأنّ الاختبارات المؤلمة تتواصل حيّة في ذاكرة الجميع. وفي عمق هذه الذاكرة، تضرب أيضاً جذور انعدام الثقة، الذي لم نستطع بعد تجاوزه كلّياً حتى اليوم. فكلّنا ننوء تحت ثقل نير الأخطاء التاريخية، وكلّنا ارتكبنا أخطاء: "إنْ قُلنا إنّنا خالون من الخطيئة، فنحن نخدع أنفسنا، والحقيقة ليست فينا" (يوحنا الأولى 1: 8). وحيثما حدث خطأ، أيّاً كان مرتكبه، فهو لا يكفّر عنه إلا بالإقرار بالخطيئة الذاتية أمام الله، وبالغفران. وإنّنا، في ألم صادق وعميق، نعترف بها اليوم أمام الله، ونسأل المغفرة لنا: "رحماك يا رب وغفرانك" (قالها بالروسية).

وإنّنا، إذ نتذكّر كلمات الرب: "واغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن لَمن أساء إلينا"، ونحن محمولون بروحٍ من المصالحة المتبادلة، لِنغفرْ لبعضنا البعض الإساءات التي ارتُكبت في الماضي، **لكي نبني، بطريقة جديدة متأصّلة في الإنجيل، علاقاتنا المتبادلة، ونُعدّ مستقبلاً أفضل لجميع الكنائس المتصالحة.** »
(بياليستوك، بولونيا، 1991/6/5، لقاء مسكوني في الكاتدرائية الأرثوذكسية)

لنسأل الغفران بقوة:

"كلّنا ارتكبنا أخطاءً"، قال البابا في "بياليستوك"، في ربيع عام 1991، وهو يوجّه كلامه للشرق المسيحي. ولكن، على الرغم من هذا النداء إلى الغفران المتبادل، يبدو أنّ الشرق يبتعد عن الكنيسة الكاثوليكيّة سنة بعد أخرى، محطّماً بذلك حلم البابا في وحدة سريعة بين الكنيستَين المسيحيّتَين الكبريَين. فانهيار الشيوعيّة يفجّر مسألة "الاتّحاديّين" (UNIATES) "وهم

المسيحيّون الشرقيّون الذين انفصلوا عن الكنيسة الأرثوذكسيّة، واتّحدوا بالكنيسة الكاثوليكيّة"، في أوكرانيا ورومانيا. وقد عمّقت الحرب بين الصرب والكروات، الهوّة القديمة من جديد، مع البطريركيّة الصربيّة. ثمّ إنّ إقامة أساقفة كاثوليك في الأراضي الروسيّة، جمّدت الحوار مع بطريركيّة موسكو. وعلى الرغم من انهيار النظام الشيوعي، لم يُسمح للبابا بزيارة أيّ من البلدان ذات الغالبيّة الأرثوذكسيّة: ففي السابق، كانت الحكومات غير راغبة فيه، أمّا اليوم، فـ"الكنائس الشقيقة" غير راغبة فيه. تلك هي أسباب ندائه الجديد إلى الشرق المسيحي، الذي جاء في براءته "نورٌ من الشرق"، وهي رسالة رسوليّة نُشرت في عام 1995، **وقد أطلق فيها البابا مبادرته من جديد، واتّخذ فيها لنفسه، على نحوٍ أوضح، مستوى من الندّية، "في ما هو أبعد من كلّ أذى احتُمل أو فُرض"، وطلب فيها من الجميع "خطوات ملموسة، شجاعة":**

« إنّ خطيئة انقسامنا جسيمة جدّاً. [...] يتحتّم علينا أن نكفّر عنها، بطلب الغفران المُلحّ من المسيح. [...] لقد حرمْنا العالم من شهادة مشتركة، كان يمكنها ربّما أن تجنّبه هذا الكمّ الهائل من المآسي، أو حتى أن تغيّر مجرى التاريخ. [...] أَوَلسنا أمام منزلقٍ جديد وخطيرٍ نحو الخطيئة، يتوجّب علينا جميعاً أن نحاول التغلب عليه بكلّ قوانا، إن كنّا نريد للشعوب التي تبحث عن إله المحبّة، أن تجده بسهولة أكبر، بدل أن تُصدم من جديد، بتمزّقاتنا ومعارضاتنا؟ » (نور من الشرق، 1995/5/6)

ندعو الجميع إلى الغفران:

هذا الشعار الداعي إلى الغفران المتبادل، ورد مرّةً أخرى، في الإعلان المشترك (الذي نذكر قسمه الثاني)، الذي أدلى به البابا وبطريرك القسطنطينيّة في ختام زيارة هذا الأخير لروما، في شهر حزيران 1995:

« في خضمّ هذه الاستعدادات، نحثّ مؤمنينا، من كاثوليكيّين

وأرثوذكسيّين، على تدعيم روح الأخوّة، الذي يأتينا من العماد الواحد، ومن تهيئتنا لحياة الأسرار المقدسة. عبر التاريخ، وفي الماضي الأقرب إلينا، حدثت إهاناتٌ متبادلةٌ ومشاكساتٌ. فنحن، إذ نستعدّ، بهذه المناسبة، لسؤال الرب رحمته الواسعة، ندعو جميع مؤمنينا لتبادل الغفران، ولإبداء تصميمهم الصريح على إنشاء علاقات جديدة، من الأخوّة والتعاون النشط.

إنّ مثل هذا الروح، من شأنه أن يشجّع الكاثوليكيّين والأرثوذكسيّين، خصوصاً حيث يعيشون جنباً إلى جنب، على تعاون يتّسم بمزيد من الكثافة في الميادين الثقافيّة والروحيّة والرعويّة والتربويّة والاجتماعيّة، على أن يتجنّبوا كلّ اندفاع مفرط لصالح جماعتهم الخاصة، على حساب الآخرين. وَلْيَعلُ دائماً خير كنيسة المسيح! فإنّ الدعم المتبادل، وتبادل المواهب، لا يسعُهما إلاّ أن يؤدّيا إلى فعاليّة أعظم، في نطاق العمل الرعوي بالذات، وأن يضفيا مزيداً من الشفافيّة على الشهادة للإنجيل الذي نريد التبشير به. ونحن نرى أنّ تعاوناً يتّسم بمزيد من النشاط والتنسيق، من شأنه أيضاً، أن يمهّد لتأثير الكنيسة، في نطاق دعم السلام والعدالة، في المناطق التي تَعرف حالياً نزاعات لأسباب سياسيّة أو عرقيّة. وإنّ لَفي الإيمان المسيحي إمكانات غير مسبوقة، لتقديم الحلول للتوترات والعداوات على نطاق البشريّة.

خلال لقاءاتهما، صلّى البابا والبطريرك المسكوني من أجل وحدة جميع المسيحيّين. وقد حمَلا في صلاتهما جميع المعمّدين، المتّحدين بالمسيح، وطلبا لمختلف الجماعات المؤمنة، وفاءً للإنجيل، يزداد نموّاً باطّراد.

إنّهما يحملان في قلبيهما هواجس البشريّة كلّها، دونما أيّ تفريق بين عِرق ولون ولغة وإيديولوجيا ودِين.

لذلك، فهما يشجّعان الحوار، لا بين الكنائس المسيحيّة وحسب، ولكن أيضاً بين مختلف الأديان، وخصوصاً مع الديانات التوحيديّة. [...]

ولِيتلطّف الربّ ويشفِ الجراحات التي تعذّب اليوم البشريّة، وليُصغِ إلى

صلواتنا وصلوات مؤمنينا، من أجل السلام في الكنائس، وفي العالم بأسره. »
(إعلان مشترك للبابا يوحنا بولس الثاني والبطريرك برثولوميوس الأول)

شجاعة الغفران:

ها قد بلغنا أخيراً تطبيق طريق التوبة أو الغفران المتبادل، على مسألة "الاتّحاديين":

« عسى آفاق يوبيل العام 2000 – وقد بات قريباً جدّاً – تُحدث لدى الجميع، موقفاً متواضعاً، قادراً على تحقيق "التنقية الضرورية للذاكرة التاريخية"، بواسطة توبة القلب والصلاة، بحيث تحثّ على التبادل في طلب الغفران ومنحه، بسبب ما حدث في القرون الماضية من إساءات فهم. [...]

ولنُصعد ابتهالاً حارّاً إلى الروح القدس، كي نسأله تسبيق اللحظة التي يرفع فيها جميع المؤمنين بالمسيح، المجدَ للثالوث "بقلبٍ واحدٍ وصوتٍ واحد". (روما 6/15)

وإنّ الشرط الذي لا يُستغنى عنه من أجلِ هذا الحدث المُفرح، هو أن تنضح في قلب كلّ مؤمن، شجاعة الغفران: وهو نعمة، يجب علينا أيضاً، أن نطلبها بمثابرةٍ لا تكِلّ. » (رسالة رسوليّة للذكرى /350/ لوحدة "أوزورود" ""UZHOROD، 1996/4/22)

إنّ تنقية الذاكرة التاريخيّة هي على درجة كبيرة من الصعوبة في المسألة الاتحادية. ولكنّ الكنائس الأرثوذكسيّة ذاتها، تريد أن تتعاون بشأنها. وإنّ وثيقة البلمند (لبنان)، الصادرة عن اللجنة المشتركة الدوليّة، في سبيل الحوار اللاهوتي بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة الأرثوذكسيّة، قد عادت فأكّدت ذلك في الفقرة 30:

« يجب أن يُقترح عرض نزيه وشامل للتاريخ، يهدف إلى كتابة موّحدة للتاريخ، بلهَ مشتركة للكنيستين. وبذلك سيسهُل تبديد الأحكام المسبقة، ويتمّ تجنّب استخدام التاريخ لغايات خلافيّة. وسيبيّن هذا العرض أنّ أخطاء الانقسام كانت مشتركة، وأنّها تركت لدى الأطراف جميعاً، جروحاً عميقة. » (71)

الفصل العشرون

تاريخ البابويّة

يمكن لتاريخ البابويّة أن يكون، بمجمله، مدعاة توبةٍ للبابا. وبعيداً عن التاريخ، ثمّة الواقع الراهن: فهناك الحرس البابوي والعُملة والدولة والدبلوماسيّة، ولقب البابا نفسه، ناهيك عن صياغة عقيدة العصمة البابويّة.

في سبيل استبعاد كلّ "فضيحة باطلة"، يجدر بالبابا أن "يحوّل الڤاتيكان كلّه إلى متحف، وأن يقيم في أحد الأبنية الإداريّة الكثيرة، القائمة بالقرب من روما": ذلك كان اقتراح اللاهوتي السويسري "هانس أورس ڤون بالتازار"، الذي منحه البابا يوحنا بولس الثاني لقب "كردينال". ولقد صرّح أيضاً "أورس ڤون بالتازار" أنّه يجدر بالكهنة والأساقفة والبابوات أن يتخلّوا عن ألقابهم "الهرِمة وغير المفهومة من وجهة نظر الإيمان المسيحي". وعلى سبيل المثال، فإنّ كلمات "الأب، أبونا، البابا..." تعارض إنجيل القديس متّى (23: 9)، حيث جاء: "لا تدْعوا أحداً على الأرض أباً لكم". ثم هو يرى أنّ لقب "العصمة"، المنسوب إلى الكنيسة والبابا، "ليس موفّقاً البتّة": "لأنّ البشر معرّضون دائماً للخطأ". (72)

لم يقل البابا يوحنا بولس الثاني شيئاً، ولم يُقدِم على أيّ إصلاح في هذا الشأن. ومع ذلك، فمن المرجّح أنّ اللاهوتيَّين "هانس أورس ڤون بالتازار" و"إيف كونغار" (Yves CONGAR)، إنّما مُنحا رتبة "كردينال"، لأنّهما تصدّيا أيضاً لهذه المسائل. فإنّ الأب "كونغار" قد طرح السؤال بشأن ألقاب البابا، كما كان "أورس ڤون بالتازار" قد فعل. وكان كلاهما قد ألحّا دائماً، على واقع كنيسة هي، في آنٍ واحدٍ، مقدّسة وخاطئة (فهناك محاولة للأب "أورس ڤون بالتازار" تحمل عنوان "الزّانية القديسة")،

وعلى ضرورة إصلاحها المستمر (وهناك دراسة للأب "كونغار" استلهمها من العبارة القديمة المأثورة، القائلة بأنّه "يجب على الكنيسة أن تُصلَح دوماً"، والدراسة تحمل عنوان: "الإصلاح السليم والخاطئ في الكنيسة" [74]). وإنّي لأعتقد أنّ البابا أراد أن يكافئ، في شخصَيهما، شجاعة إشارتهما إلى مدى توافق جذريّة الإنجيل مع مقتضيات المؤسّسة.

وما قاله البابا يوحنا بولس الثاني، وما فعله بشأن مراجعة تاريخ البابويّة، يمكن إيجازه بثلاثة فصول، هي: تأكيدات عامة، مبادرات رمزية، واعترافات محدّدة.

تأكيدات عامة:

إنّ أهمّ تأكيدٍ له جاء في براءته "ليكونوا واحداً" (1995)، التي يطلب فيها البابا الغفران من سائر المسيحيّين، بسبب أخطاء البابوات في الانقسامات بين الكنائس.

« إنّ يقين الكنيسة الكاثوليكيّة بأنّها، في وفائها للتقليد الرسولي ولإيمان الآباء، حافظت على العلامة المنظورة وعلى ضمان الوحدة في خدمة أسقف روما، يمثّل صعوبة بالنسبة إلى معظم المسيحيّين الآخرين، الذين تحتفظ ذاكرتهم ببعض الذكريات المؤلمة. وإنّي لأطلب الغفران عمّا نحن مسؤولون عنه، كما فعل سلفِي البابا بولس السادس. » ("ليكونوا واحداً"، 1995/5/30، فقرة 88)

هناك تأكيدان آخران عامّان، يتمّمان هذا الاعتراف، ويتعلّقان بالفساد الأخلاقي الذي يمكنه أن يبرز، حتى لدى مسؤولين كبار في الكنيسة؛ وكلا التأكيدين يُحيلان إلى مسؤوليّات البابوات التاريخيّة في الميدان الأخلاقي. وقد تلفّظ بالأوّل من شهر حزيران عام 1984، في جنيف، خلال لقاءٍ مع مجلس الكنائس العالمي:

« إنّ الكنيسة، على الرغم من التردّيات الأخلاقيّة التي رافقت حياة

بعض أعضائها، بل بعض مسؤوليها طوال تاريخها، تمتلك اليقين بأنّها حافظت، في أمانة مطلقة على التقليد الرسولي وإيمان الآباء، عبر خدمة أسقف روما، وهو القطب المنظور وضمان الوحدة. » (جنيف، في 1984/6/12، زيارة إلى مجلس الكنائس العالمي)

أمّا التأكيد الثاني، فقد أطلقه بعد أربع سنوات، في مدينة "نانسي" (NANCY)، خلال القداس، وليس أمام جمهور مسكوني: بذلك يتّخذ الاعتراف مزيداً من الثقل، مع أنّ صياغته جاءت دون غيره وضوحاً:

« إنّ مركب الكنيسة قد صمد وشقّ الطريق وسط **اضطرابات التاريخ**. إنّ العديد من الأحداث والمصائب قد استطاعت أن تعكّر سلامه؛ منها ما هو من الخارج، ومنها ما هو من الداخل: الاضطهادات الأولى في القدس، ثم في روما، بدءاً من "نيرون" (NERON). [...] ثم المنازعات اللاهوتيّة التي قسّمت المسيحيّين، فالاجتياحات التي فرضَت معاودة التبشير من جديد، ومخاطر الترهّل في الحسّ الديني والأخلاقي، بله حتى الفساد، وهي تستدعي إصلاحات مستمرة، كما في عهد سلفي البابا لاون التاسع، أسقف "تول" (TOUL) الأسبق. » ("نانسي" "NANCY"، 1988/10/10، العظة)

إنّ كان البابا يوحنا بولس الثاني قد ذكر البابا لاون التاسع، فلأنّ هذا البابا كان من منطقة "الألزاس" (ALSACE)، وهو إذنْ "جارُ" مستمعيه من سكان اللورين (LORRAINE)، ولأنّه كان يحظى بالتكريم بوصفه قديساً؛ وقد اعتبره المؤرّخون أفضل بابوات القرون الوسطى من أصل ألماني (فهو، ما إن انتُخب، حتى فرضَ إصلاحاً أخلاقيّاً في غاية الصرامة على البلاط البابوي). ولكنْ كان بوسع البابا يوحنا بولس الثاني أن يذكر العديد من البابوات الآخرين الذين اضطرّوا، ليل نهار، لأن يقاوموا فساد الدوائر البابويّة، أو بابوات آخرين كانوا، هم أنفسهم، فاسدين. وإنّها لُملفتةٌ

للانتباه هذه الطريقة البريئة في إشارته، ضمن عظته، إلى الفساد بوصفه أحد الشرور المألوفة في حياة المسؤولين الكنسيّين.

وإنّ هذه التأكيدات في النقد الذاتي، في جنيف ونانسي، تتقاطع، بعد ذلك، مع هذا المقطع من براءته "ليكونوا واحداً":

« بذلك تؤكّد الكنيسة الكاثوليكيّة أنّها، خلال ألفَي عام من تاريخها، قد حُفظت في الوحدة، مع جميع الخيرات التي شاء الله أن يهبَها لكنيسته، وذلك على الرغم من الأزمات الخطيرة – في الغالب – التي زلزلتها، وغياب الأمانة لدى بعض مسؤوليها، والأخطاء التي يواجهها كلّ يوم أعضاؤها. وإنّ الكنيسة الكاثوليكيّة لَتعرف، بفضل الدعم الذي يأتيها من الروح القدس، أنّ مظاهر الضعف والتفاهة والخطايا، وأحياناً خيانات بعض أبنائها، لن تستطيع تدمير ما وضع الله فيها، وفق مخطط نعمته؛ وحتى "أبواب الجحيم لن تقوى عليها" (متّى 16: 18). ومع ذلك، فإنّ الكنيسة الكاثوليكيّة لا تنسى أنّ الكثيرين فيها يحجبون مخطط الله. » ("ليكونوا واحداً"، 1995/5/30، الفقرة 11)

مبادرات رمزيّة:

لقد سبق لنا أن ذكرنا، في مختلف فصول هذا الكتاب، مبادرات رمزيّة تكشف عن تبدّلٍ في الموقف أو الصورة، بالنسبة إلى تاريخ البابويّة أو إلى ممارساتها. ولنذكّر بأبرز المبادرات المسكونيّة: الزيارة إلى الكنيس اليهودي في روما، الزيارات إلى كنائس الطوائف الأخرى، تكريم الشهداء البروتستانت في "بريسوف" (PRESOV)، اللقاء مع الشبيبة المسلمة في "الدار البيضاء". ولكنْ لنتوقّف أيضاً لحظة عند ثلاث زيارات لكنائس بعض الطوائف المسيحيّة، تقدِّم شهادة خاصة في التواضع، في إطار المراجعة لماضٍ كان مناوئاً للحركة المسكونيّة:

الزيارة الأولى، كانت لربّما أثقلها من حيث دلالتها الرمزيّة، وقد جرت

في الكاتدرائيّة اللوثريـة في مدينـة "روسـكيلد" (ROSKILDE) بالـدانمارك، في شهر حزيران عام 1989. في ذاك اليوم، اشترك البابا في لقاء صلاة، لم يُسمح له فيه أن يتكلّم. وقد أحدث هذا القرار صدمةً، وأثار سجالاتٍ داخل الكنيسة اللوثريّة نفسها في الدانمارك. وقد برّر ذلك المسؤول عن هذا القرار، المطران "برتيل فيبرغ" (Bertil WIBERG)، أسقف "روسكيلد"، بالعبارات التالية: "لا نريد أن يعتقد البعض، لدى سماعهم البابا في كنيستنا، أنّه أصبح بابا علينا. إنّنا نرحب بالحبر الأعظم، ولكنّ يحسن بنا أن نذكّر بأنّنا نحن مَن يستقبله، وليس العكس". (75)

والزيارة الثانية، تمّت خلال ذلك السفر عينه، للكاتدرائيّة اللوثريّة في مدينة "أوبسالا" (UPPSALA) بالسويد، بحضور الملك "شارل-غوستاف" والملكة "سلفيا". وقد عانق الأسقف اللوثري "برتيل فستروم" (Bertil WESTROM) البابا، وذكّر أنّ الحركة المسكونيّة انطلقت من هذه الكنيسة عام 1920، في احتفال ديني أقامه الأسقف اللوثري "ناثان سودربلوم" (Nathan SODERBLOM):

« في ذاك اليوم، مثّل الرسولَ يوحنا، هنا، الأسقفُ الأرثوذكسي، ومثّل الرسولَ بولس الأسقفُ اللوثري. كان الرسول بطرس غائباً؛ فاليوم، الرسول بطرس هو أيضاً معنا، ويُدعى يوحنا بولس الثاني. »

وضع البابا باقةً من الورد على قبر الأسقف "ناثان سودربلوم"، الذي كان، آنذاك، البابا بيوس الحادي عشر، قد ثارت ثائرته عليه. وأعلن البابا أنّه جاء مدفوعاً بـ"روح توبة"، ووجّه دعوةً للغفران المتبادل. وكان اللاهوتي "كارل بارث" (وقد ذكرنا ذلك في الفصل الخامس من القسم الأول من هذا الكتاب)، قد طالب الكنيسة الكاثوليكيّة بالاعتراف بأسبقيّة سائر الكنائس عليها في الميدان المسكوني: وتلك كانت القيمة الرمزيّة لباقة الورد هذه، التي وضعها البابا يوحنا بولس الثاني على قبر هذا الرائد للحركة المسكونيّة. وإنّ البابا، بمبادرته هذه، قد اعترف بتلك الأسبقيّة. (76)

ثمّ جاء الاعتراف المكتوب، بعد ذلك بستّ سنوات، في البراءة البابويّة "ليكونوا واحداً":

« انطلقت الحركة المسكونيّة في الكنائس الإصلاحيّة وجماعاتها. وفي الوقت نفسه، كانت البطريركيّة المسكونيّة، منذ كانون الثاني عام 1920، قد أبدت الرغبة في تنظيم تعاونٍ بين الطوائف المسيحيّة. هذه الواقعة تدلّ على أنّ تأثير الخلفيّة الثقافيّة ليسٍ حاسماً! بالمقابل، فما هو جوهري، إنّما هو مسألة الإيمان. فإنّ صلاة المسيح، وهو ربّنا الأوحد، وفادينا ومعلّمنا، تُخاطِب الجميع بالطريقة ذاتها، في الشرق كما في الغرب. وقد باتت ضرورةً تفرِض علينا أن نتخلّى عن انقساماتنا، كي نبحث عن وحدتنا ونجِدَها، تحت تأثير اختبارات الانقسام المريرة. » ("ليكونوا واحداً"، 1995/5/30، الفقرة 65)

والزيارة الثالثة، كانت تلك التي قام بها، في شهر حزيران 1991، إلى كاتدرائيّة "بياليستوك" (BIALYSTOK)، في بولونيا، على الحدود مع "روسيا البيضاء"، وقد تحدّثنا عنها سابقاً في الفصل الخاص بالانقسام الشرقي: في هذا السياق، يكمن العامل الرمزي في أنّ البابا ذهب ليطلب الغفران ويقترحه، لدى ضيوفه المسكونيّين، الذين كانوا قد شيّدوا كنيستهم فوق موقع كاتدرائيّة كاثوليكيّة قديمة، دُمّرت بأمرٍ من قياصرة روسيا.

اعترافات نوعيّة:

سبق لنا أن استعرضنا تصريحات، فيها إقرار بمسؤوليّات تاريخيّة خاصة، في جميع فصول هذا القسم الثاني. وهنا سنكتفي بإضافة بعض الأمثلة المتعلّقة بغياب التسامح حيال غير الكاثوليك، في عهد سلطة البابوات الزمنيّة، وإدانة أعمال "أنطونيو روسميني" (Antonio ROSMINI)، وإدانة الحريّة الدينيّة والقرارات "المعادية للحركة التحديثيّة" (ANTIMODERNISTES) في مطلع القرن العشرين.

1) **اللّوثريون في روما، في عهد البابا الملك:**

خلال زيارته، في كانون الأول عام 1983، إلى "كنيسة المسيح"، وهي الكنيسة اللوثريّة في روما، ذكر البابا "التاريخ المؤلم" لهذه الجماعة البروتستانتيّة، بكلمات موزونة، ولكنها بالغة الوضوح بالنسبة إلى سامعيه! وفي الواقع، كانت هذه الكنيسة قد شُيّدت بعد سقوط الحكم البابوي، إذ كان اللوثريّون خلاله، يضطرون للاجتماع في سفارة النمسا:

« نحن نعرف التاريخ المؤلم لهذه الجماعة الإنجيليّة اللوثريّة في روما: بداياتها الصعبة، ظلال وأنوار تطوّرها وسط الظروف الخاصة بهذه المدينة. فثمّة سؤال يطرح نفسه علينا، بإلحاحٍ يزداد شدّة: هل يحقّ لنا – على الرغم من هناتنا البشريّة، وعلى الرغم من استحالة العودة إلى القرون الماضية – أن نفقد ثقتنا بالرب، الذي تجلّى في أيامنا بكلمات الروح القدس التي تلقّيناها خلال المجمع الڤاتيكاني؟ » (الكنيسة اللوثرية في روما، 1983/12/11)

2) **"روسميني" المُدان تُعلَن قداسته:**

لقد سمح البابا يوحنا بولس الثاني بإجراءات تطويب "أنطونيو روسميني" (Antonio ROSMINI)، وهو مؤلِّف كان المجمع المقدس قد أدانه. فعلّق الأسقف الروسميني "كليمنته ريفا" (Clemente RIVA) على هذا القرار بقوله:

« إنّ إدانة أربعين من مقترحاته الفلسفيّة واللاهوتيّة، التي أصدرها المجمع المقدس عام 1887، تُثقل "روسميني" حتى اليوم. إنّها إدانة لا تخلو من غرابة، و لم تترافق، كما هي العادة في مثل هذه الحالة، بشرحٍ لاهوتيّ يبرّرها. وفي العام 1973، كلّف البابا بولس السادس لجنةً كنتُ في عدادها، بإعادة النظر في هذه الإدانة. وبعد ثلاث سنوات من المداولات، كتب كلٌّ من أعضاء اللجنة تقريراً شخصيّاً، سلّمه باليد إلى رئيس هيئة عقيدة الإيمان، وكان يومها الكردينال "فرانيو سيبر" (Franjo SEPER)، فلم تكن النتائج التي جمعها هذا المسؤول الكرواتي، في صالح "روسميني". فارتأت هيئة عقيدة الإيمان أنّ "إلغاء

الإدانة لم يكن، لا مُسنَداً ولا مناسباً". وبعد مضي خمس سنوات، عيّن البابا الحالي لجنة جديدة، تضمّ خمسة مسؤولين كنسيّين؛ وكُتبت نتائجها دون أن تُنشر، منذ بضع سنوات، ولكنّ البابا يعرفها، وهو الذي منح – بعد أن أخذ بعين الاعتبار أعمال هذه اللجنة – الإذن بإجراءات التطويب. » (77)

3) **الحرية الدينية والنزعة التحديثيّة** (MODERNISME):

صدرت وثيقة عن هيئة عقيدة الإيمان حول "دعوة اللاهوتي الكنسيّة"، ونُشرت في حزيران عام 1990، **وقد وقّعها الكردينال "راتزنغر"** (RATZINGER) **بموافقة البابا، وهي تُقرّ "ربّما للمرة الأولى بمثل هذا الوضوح" ("راتزنغر")، أنّ السلطة العليا، وهي تعني سلطة البابوات، "يمكنها أن تُخطئ"، إنّ هي بتّت في أمور مختلطة، أي "في أسئلة نوقشت، تتداخل فيها، إلى جانب مبادئ ثابتة، عناصر ظنّيّة وطارئة". وفي بعض الحالات، ثبت أن هذه السلطة أخطأت:**

« في هذا الميدان من المداخلات ذات الطبيعة الحذِرة، حدث أن كانت بعض الوثائق الرسميّة تشكو من خلل. فالرعاة لم يدركوا دائماً جميع جوانب المسألة أو جميع تعقيداتها. ولكنْ سوف يكون مخالفاً للحقيقة، انطلاقاً من بعض الحالات المعيّنة، الانتهاء إلى أنّ السلطة العليا في الكنيسة يمكنها أن تُخطئ، بصورة اعتياديّة، في أحكامها الحذِرة، أو أنّها لا تنعم بالعون الإلهي في الممارسة الكاملة لرسالتها. » (هيئة عقيدة الإيمان، توجيه بشأن دعوة اللاهوتي الكنسية، 1990/6/26)

وإنّ الكردينال "راتزنغر"، لدى تقديمه هذه الوثيقة، قد ذكر حالتين من التأكيدات المتخطّاة:

« يسعُنا أن نشير إلى تصريحات بابوات القرن الماضي بشأن الحريّة الدينيّة، وكذلك إلى القرارات المناهضة للنزعة التحديثيّة في بداية هذا القرن، لا سيما إلى قرارات لجنة الكتاب المقدس آنذاك. » (78)

الفصل الحادي والعشرون

تجارة الزنوج

لو لم يكن البابا يوحنا بولس الثاني قد سافر، ربما ما كان ليطلب الغفران. لهذا التأكيد قيمة عامة، ولكنّه دون شكّ، يجد تطبيقه على تجارة الزنوج: فقد تكلّم على ذلك في مناسباتٍ ثلاثٍ رئيسة، خلال جولتين في أفريقيا (الكاميرون عام 1985، والسنغال عام 1992)، وبمناسبة رحلته إلى أميركا (سانتو- دومنكو عام 1992). وكان في كلّ مرّة، يفعل ذلك بتأثّر عظيم وبروح تائبة. ثمّ تكلّم على ذلك في روما، أمام فريق من الأساقفة البرازيليّين، عام 1995. كانت نبرته قد تبدّلت: فهو، إذ كان يطلب الغفران بسبب ما فعله "مسيحيّون كثيرون"، قد ذكر أنّ البابوات أدانوا دائماً تجارة الزنوج، وأنّ الكنيسة لم تكفّ يوماً عن الدفاع عن العبيد. وقد سبق لنا أن لاحظنا هذا التوازن بين الإساءة والتعقّل، بصدد الهنود الأميركيّين. وعلى هذا الصعيد، تلفّظ البابا بأسخى كلماته خلال إحدى رحلاته، أو بعد عودته بفترة وجيزة، إذ كان يستذكر تأثّره بهذا أو ذاك من لقاءاته. وقد كان يحتفظ لروما بتصريحاته الملتزمة بموقف دفاعي. ههنا تكمن بالكلّية نعمة رحلاته: فقد كان يميل بطبعه إلى بذل ذاته بمزيد من الاندفاع، عندما يلتقي محاوريه في بلادهم.

نطلب الغفران من إخوتنا الأفارقة:

لقد نُطق بأوّل طلبٍ للغفران بسبب تجارة الزنوج، أثناء رحلة البابا يوحنا بولس الثاني إلى أفريقيا، في شهر أيار عام 1985، هذه الرحلة التي كانت عنصراً مفصليّاً في بابويّته: فهنا تجلّت، على أكمل وجه، روحه الرسوليّة، وقد شاءها رسالة لدى الشعوب. وخلال هذه الرحلة،

جرى له لقاء مع كهنة أحيائيّين في توغو (TOGO)، وأطلق إدانته، الصارمة أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بحقّ نظام الفصل العنصري (APARTHEID)، وهذا النقد الذاتي لتجارة الزنوج، وبدء لقاءاته المباشرة مع الإسلام. وفي سياق هذه الانطلاقة الرسوليّة، تجب قراءة هذه الكلمات من النقد الذاتي، التي تلفّظ بها البابا بعد أنْ ذكر أنّ المسيحيّة "تنادي بالحرّية وبحقوق الإنسان التي لا يجوز مسّها":

« عبر التاريخ، هناك أناس ينتمون إلى أمم مسيحيّة، لم يطبّقوا، للأسف، ذلك دائماً. وإنّنا لنسأل الغفران عن ذلك من إخوتنا الأفارقة، الذين طالما عانوا، مثَلاً، من تجارة الزنوج. إلاّ أنّ الإنجيل يظلّ خالياً من أي لبس. » ("ياوندیه" "YAOUNDÉ"، الكاميرون، 1985/8/13، خطاب إلى المثقّفين)

في معبد الألم الأسْوَد:

تلفّظ البابا يوحنا بولس الثاني بأقوى كلماته حول خطيئة تجارة الزنوج، في شهر شباط عام 1992، في جزيرة "غوريه" (GORÉE) بالسنغال، في إطار مداخلتين اثنتين له. فالخطاب الأوّل، وقد ألقاه في "بيت العبيد"، يحتوي التأكيد على أنّ هذه التجارة تشكّل "مأساة في الحضارة التي كانت تسمّى مسيحيّة". ويتابع، فيُقارِن تجارة الزنوج بمعسكرات الإبادة في زماننا، وقد قال بأنّها كانت "عيّنة". وأوضح أنّ المعسكرات المعاصرة، يجب أيضاً أن تُنسب إلى "حضارة كانت ولا تزال تسمّى مسيحيّة"! إنّنا حقّاً أمام نصّ مسيحي عظيم:

« هذه الأجيال من الزنوج والعبيد تحملني على التفكير بأنّ يسوع المسيح أراد أن يكون عبداً، وأن يصبح خادماً. لقد سلّط على العبوديّة نور الوحي، هذا الوحي الإلهي الذي يعني أنّ "الله محبّة". ولكنْ هنا، المقصود خصوصاً هو الظلم؛ إنّها مأساة الحضارة التي كانت تسمّى مسيحيّة.

كان سقراط، هذا الفيلسوف الكبير في العصور القديمة، يقول إنّ الذين يتحمّلون الظلم، هم في وضع أفضل من وضع الذين يفرِضون الظلم عليهم. إنّ هذا الوجه الآخر للظلم هو الذي حصل هنا... إنّها مأساة بشريّة: إنّ صرخة الأجيال تفرِض علينا أن نتحرّر إلى الأبد من هذه المأساة، لأنّ جذورها فينا، في الطبيعة البشريّة، في الخطيئة.

أتيت لأكرّم جميع الضحايا المجهولة. ما مِن أحد يعرف عددهم... ما مِن أحد يعرف مَن كانوا... من المؤسف أنّ حضارتنا التي كانت ولا تزال تسمّي ذاتها مسيحيّة، استرسلت، حتى في قرننا هذا، في ممارسة الاستعباد. ونحن نعرف ما كانت معسكرات الإبادة؛ وههنا عيّنة منها! ولكن لا يسعُنا أن ندَع أنفسنا نغرق في مأساة حضارتنا وضعفنا، وفي مأساة الخطيئة. يجب علينا أن نظلّ أوفياء لصرخة أخرى، هي صرخة القديس بولس الذي كتب يقول: "حيث تكثر الخطيئة، تفيض النعمة" (روما 5: 20). » (جزيرة "غوريه" "GORÉE"، السنغال، 1992/2/22، أثناء الزيارة إلى "بيت العبيد")

وفي نصّ آخر، ليس دون السابق جمالاً، إذ كان البابا يتحدّث، في اليوم نفسه، أمام سكان الجزيرة، سأل "عفو السماء"، من أجل خطيئة "أناس معمّدين، ولكنهم لم يعيشوا إيمانهم"، وطالب المسيحيّين بـ"ألاّ يكونوا بعد اليوم ظالمين لإخوتهم":

« إنّ زيارتي إلى "بيت العبيد" تُعيد إلى ذاكرتي التجارة بالزنوج، التي وصفها البابا بيوس الثاني، إذ كتب عام 1492 إلى أسقف مرسَل كان في طريقه إلى غينيا، وصفها بـ"الجريمة الفظيعة". فطوال حقبة من تاريخ القارة الأفريقيّة، اقتيد رجال ونساء وأطفال زنوج، إلى هذه الأرض الضيّقة، بعد أن اقتُلعوا من أرضهم، وفُصلوا عن أقربائهم، كي يباعوا فيها كالبضائع. وقد جُلبوا من كلّ البلدان، واقتيدوا مقيّدين إلى بلدانٍ أخرى، وكانت آخر صورة احتفظوا بها في ذواتهم من أفريقيا وطنهم، هذه الكتلة

من الصخر البازلتي في جزيرة "غوريه" هذه. ويسعُنا أن نقـــول إنّ هـــذه الجزيرة استقرّت في ذاكرة وقلب جميع أبناء الشتات الزنوج.

هؤلاء الرجال والنساء والأطفال كانوا ضحايا تجارة مخزية، شـــارك فيهـــا أناسٌ معمّدون، ولكنهم لم يعيشوا إيمانهم. كيف لنا أن ننسى الآلام الهائلة التي فُرضت على الشعوب التي اقتُلعت من القارة الأفريقيّة، في احتقار تام لأبـــسط الحقوق الإنسانيّة؟ كيف لنا أن ننسى الحيوات الإنسانيّة التي أُبيدت بالاستعباد؟

يجدر بنا أن نعترف بكلّ صدق واتّضاع، بهذه الخطيئة، خطيئة الإنسان بحقّ الإنسان، وخطيئة الإنسان بحقّ الله. ولَكَم هو طويل الطريـــق الـــذي يتوجّب على الأسرة البشريّة أن تجتازه، قبل أن يتعلّم أفرادها أن ينظروا إلى بعضهم البعض، وأن يحترموا بعضهم البعض بوصفهم صوراً لله، وأن يحبّوا أخيراً بعضهم البعض بوصفهم أبناء وبنات للآب السماوي الواحد!

في هذا المعبد الأفريقي، معبد الألم الأسوَد، نسأل عفو السماء، ونبتهل كي يسلك تلاميذ المسيح في المستقبل في أمانة تامّة، للتقيّد بوصيّة المحبّة التي تركهـــا لهم المعلّم. ونصلّي كي لا يكونوا بعد اليوم ظالمين لإخوتهم، أيّاً كـــان هـــذا الظلم، بل كي يسعَوا دائماً للاقتداء برحمة سامريّ الإنجيل، الطيب، بالمسارعة إلى نجدة الناس الذين يعانون من الفاقة. ونصلّي كي يتلاشى إلى الأبد، وبـــاء الاستعباد، ونتائجه معه: أَوَليس في أحداث مؤلمة حديثة، جرت في هذه القارة بالذات، ما يدعونا لليقظة الدائمة، ولمواصلة تنقية القلب، الطويلـــة والمـــضنية؟ ويجب علينا أيضاً، أن نقاوم أشكال الاستعباد الجديدة، وهي – في الغالـــب – خبيثة، مثل الدعارة المنظمة، التي تستغلّ، على نحوٍ مخزٍ، بؤس شـــعوب العـــالم الثالث. » (جزيرة "غوريه"، 1992/2/22، لقاء مع الجماعة المسيحية)

فعل تكفير:

إنّ الاعتراف الثالث بالخطيئة ورد في نصّين، ضعيف وقوي، تجب قراءتهما معاً، لأنّهما يرتبطان كلاهما بمناسبة رسميّة، هي إحياء

الذكرى المئوية الخامسة لتبشير أميركا اللاتينيّة، في "سانتو- دومنكو"، في شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام 1992:

« الكلّ يعلم الظلم الفادح جدّاً، الذي ارتُكب بحقّ الشعوب السوداء في القارة الأفريقيّة، وقد اقتُلعت من أراضيها وثقافاتها وتقاليدها، واقتيدت عبيداً إلى أميركا. وخلال سفري الرسولي الحديث إلى السنغال، أصررتُ على زيارة جزيرة "غوريه"، حيث جرى قسمٌ من هذه التجارة المخزيـــة، وأردتُ أن أؤكّد فيها رفض الكنيسة الثابت ضد ممارسة الرقّ. » (سانتو- دومنكو، 1992/10/13، رسالة إلى الأفارقة الأميركيين)

ما أن عاد البابا يوحنا بولس الثاني إلى روما، بعد حجّه الأفريقي، حتى صرّح خلال لقاءٍ عمومي أنّه أقدم أيضاً على فعل تكفير من أجل "الخطيئة والظلم والعنف"، التي رافقت فتح القارّة الأميركيّة وتبشيرها. وقد أوردنا هذا النص القوي في القسم الثاني من الفصل الخاص بهنود أميركا. حسبُنا هنا ذكر المقطع الذي خصّ به الزنوج:

« نحن لا نكفّ عن القول لهؤلاء الناس: "سامحونا!" وإنّ طلب الغفران هذا، يتوجّه خصوصاً إلى سكان هذه الأراضي الجديدة، الأصـــليّين، إلى "الهنود"، وكذلك أيضاً، إلى الذين هُجّروا إليها من أفريقيا، بصفة عبيـــد، ليقوموا فيها بأقسى الأعمال. » (مقابلة عموميّة، في 1992/10/21)

يجب أن نوضح أنّ البابا يوحنا بولس الثاني لم يتكلّم على تجارة الزنوج في المناسبات التي ذكرناها وحسب. فقد تكلّم عليها أيضاً، في مناسبات دونها أهميّة، تشهد مدى تحوّل هذا الموضوع الجديد جداً، في فترة وجيزة، إلى موضوع مألوف في كرازة البابا.

من ذلك أنّ البابا، خلال اللقاء العمومي في 1992/3/4، ذكر رحلته إلى أفريقيا، التي كان قد قام بها منذ فترة وجيزة، كما ذكر وقفته في جزيرة "غوريه"، التي حرّض الناس فيها على أن تشمل توبتهم، خلال

الصيام الكبير، هذه الخطيئة التاريخيّة، واعترف "بروح تائبة بجميع الإساءات التي حلّت، طوال هذه الحقبة الطويلة، بالناس والشعوب في أفريقيا، بسبب هذه التجارة المخزية".

وكان، قبل ذلك بسنتين، قد أطلق هذا التصريح، خلال رحلة سابقة إلى "پرايا" (PRAIA)، **في أرخبيل الرأس الأخضر** (CAP-VERT)، **بتاريخ** 1990/1/26:

« إنّ أرضكم آنذاك [...] عُرفت أيضاً للأسف، في عهد الرقّ، بالتجارة البغيضة للبشر.

من المحتمل أن تستمرّ في ثقافتكم الجراح الناجمة عن ذلك. واليوم، أودّ أن أشدّد معكم على أمرين، هما من ثوابت التعليم الكنسي الرسمي: الأوّل، هو رفض جميع أشكال التمييز، أيّة كانت، فبعد اليوم، لا مكان البتّة لاستعباد الإنسان للإنسان. »

في مناسبات أخرى، لم يكن التذكير بخطيئة تجارة الزنوج وارداً في النص المعدّ، ولكن البابا كان يضيفه ارتجالاً، مدفوعاً بما يشعر به ضيفٌ قدمَ ويداه فارغتان، في حين أنّه يريد أن يلبّي توقّع الناس الذين يقوم بزيارتهم. من ذلك قوله، في 1992/6/6، **خلال زيارته لجزيرة "ساو تومه"** (SÃO TOMÉ) **بأنغولا:**

« في هذه الجزيرة التي شهدت ظاهرة تجارة العبيد المخزِنة، لا يسعُني إلا أن أُبدي أسفي – كما فعلتُ سابقاً في "غوريه" بالسنغال – لهذه الإهانة الفظيعة لكرامة الإنسان الأفريقي. وإنّ هذه الآلام الماضية تقدّم للبابا الفرصة ليعيش لحظةً عظيمةً من الحبّ والتضامن مع شعب "ساو توميه". »

لم يتحَلّ أسلافي بالحزم المناسب:

بعد الخطاب الحارّ الذي ألقاه البابا الحاجّ، إذ كان ضيف شعبٍ وقع ضحيّة مظالم دامت قروناً، لنسمعْ دفاعه، إبّان استقباله في روما لأساقفة

البرازيل، القادمين في زيارتهم القانونية[1]، وقد أخذ بعين الاعتبار الانقسامات التي تحدثها اليوم، لدى هؤلاء الأساقفة، ذكريات هذا الماضي المأساوي:

« في ما يتعلّق بالرقّ الأفريقي، أُتيحت لي الفرصة قبل اليوم، لأن ألتمس غفران السماء بسبب تجارة الرقّ المخزية، التي شارك فيها العديد من المسيحيّين، والتي انطلقت من القارة الأفريقيّة، ووفّرت اليد العاملة للأراضي المكتشَفة حديثاً. وفي هذه العهود المحزنة، فإنّ تحريمات سلفَيّ الوقورَين البابا بيوس الثاني عام 1462، والبابا أُوربانوس الثامن عام 1693، لم تكن كافيةً، ولا حتى ثورات غضب البابا بنيدكتوس الرابع عشر عام 1740، الذي ذهب حتى إطلاق الحُرم على الذين يملكون ويبيعون ويعذّبون العبيد، أو الذين يحوّلون الأفارقة إلى عبيد.

وعلى الرغم من مجتمع ذاك العصر وثقافته، فإنّ الكنيسة لم تكفّ يوماً عن الدفاع عن العبيد، ضد الوضع الظالم الذي كانوا ضحاياه، كما تُدلّل على ذلك – مثلاً – قوانين "باهيا" (BAHIA) عام 1707، وهي أوّل قاعدة قانونيّة صيغت في أرض برازيليّة، وقد حاولت، قدر الإمكان، التخفيف من نتائج الرقّ الرهيبة. » (قانون 303 وقانون 304، زيارة أساقفة البرازيل القانونية، في 1995/4/1)

دون الدخول في صُلب هذا الدفاع البابوي، سأكتفي بالتذكير بنتيجة الرصيد الذي رسمه مؤرخ يسوعي، سبق لنا أن أصغَينا إليه في شؤون أخرى، وهو "جياكومو مارتينا" (Giacomo MARTINA):

« إنّ الكنيسة، التي دافعت بفعاليّة، في شخص البابا بولس الثالث والبابا أوربانوس الثامن، عن الهنود، لم ترفع يوماً صوتها ضد تجارة الزنوج، قبل القرن التاسع عشر. وإنّ الوثائق التي تذكّر عادة بهذا الشأن، تتعلّق بالهنود، ولا تتكلّم عن الزنوج. » (79)

---

[1] كل خمس سنوات، يقوم أساقفة كل منطقة رسولية بزيارة لروما (حيث ضريحا الرسولين بطرس وبولس)، تسمّى زيارة الأعتاب الرسولية، كي يتدارسوا مع البابا ومختلف هيئات الإدارة الرومانية، شؤون كنائسهم. (الناشر)

الملحـق
"إعلان توبة"
كنيسة فرنسا

إنّ أساقفة فرنسا قد نشروا على الملأ، في 1997/9/30، في "درانسي" (DRANCY)، هذا "الإعلان" بشأن موقف الكنيسة الكاثوليكيّة في فرنسا، في عهد فيشي:

« إنّ مشروع إبادة الشعب اليهودي على يد النازيّين، هو حادث جسيم في تاريخ القرن العشرين، وهو يطرح على الضمير أسئلةً مرعبةً، لا يجوز لأيّ إنسان أن يلغيها. وإنّ الكنيسة الكاثوليكيّة، بدل أن تغيّب ذلك في النسيان، تعرف أنّ الضمير يتكوّن بالذاكرة، وأنّ ما من مجتمع أو فرد لا يستطيع أن يعيش في سلام مع ذاته، فيما هو يطوي ماضياً مكبوتاً أو كاذباً.

إنّ كنيسة فرنسا تطرح السؤال على ذاتها. وهي مدعوّة إليه، مثلها مثل سائر الكنائس، بصوت البابا يوحنا بولس الثاني، مع دنوّ الألفيّة الثالثة:

"يجدر بالكنيسة أن تجتاز هذا المعبر، وهي تدرك تماماً ما الذي عاشته [...]. إنّ الإقرار بسقطات الأمس هو فعل نزاهة وشجاعة، يساعدنا على تدعيم إيماننا، ويجعلنا نتبيّن الإغراءات والمصاعب الراهنة، ويُعدّنا لمواجهتها".

بعد الاحتفال هذا العام بالذكرى الخمسين لإعلان "سيلسبرغ" (SEELISBERG) (1947/8/5)، هذه القرية السويسريّة الصغيرة، التي وضع فيها، غداة الحرب، بعض اليهود والمسيحيّين، معالم تعليم جديد بشأن اليهوديّة، فإنّ أساقفة فرنسا، الموقّعين أدناه، بسبب وجود معسكرات الاعتقال في أبرشيّاتهم، وبمناسبة الذكرى السنويّة، بعد بضعة أيام، لأوّل تشريع خاص باليهود، قرّرتْه حكومة الماريشال "بيتان" (1940/10/3)،

يودّون إنجاز خطوة جديدة. وهم يفعلون ذلك، استجابةً منهم لمقتضيات ضميرهم في ضوء تعليم المسيح. وقد حان الوقت، بالنسبة إلى الكنيسة، كي تُخضع تاريخها الذاتي، بصورة خاصة، خلال هذه الحقبة، لقراءة نقديّة، دون أن تتردّد في الاعتراف بالخطايا التي ارتكبها أبناؤها، وأن تطلب الغفران من الله ومن البشر.

في فرنسا، لم يبدأ الاضطهاد العنيف فوراً. ولكنْ، في سرعة كبيرة، ومنذ الأشهر الأولى التي أعقبت هزيمة عام 1940، انتشرت لاسامية الدولة، التي حرمت اليهود الفرنسيّين من حقوقهم، واليهود الأجانب من حرّيتهم، وقد جرفت في تطبيق الإجراءات المقرّرة، مجملَ الهيئات القائمة في الأمّة.

وفي شهر شباط عام 1941، وُجِد في معسكرات الاعتقال الفرنسيّة، قرابة (40000) يهودي. وفي حين كان البلد خاضعاً لاحتلال جزئي، منهاراً ومصدوماً، كان المسؤولون في الكنيسة يعتبرون أنّ واجبهم الأوّل هو حماية المؤمنين، وتوفير الشروط المثلى لحياة مؤسّساتهم. وإنّ منح الأولويّة المطلقة لهذه الأهداف، المشروعة في ذاتها، قد نجمت عنه نتيجة مؤسفة، وهي تغييب مقتضى الإنجيل في احترام كلّ إنسان خُلق على صورة الله.

وقد أضافت السلطة الكنسيّة إلى هذا الانكفاء في الرؤية الضيّقة لرسالة الكنيسة، غياباً في إدراك حجم المأساة الكونيّة التي كانت قائمة، والتي كانت تهدّد مستقبل المسيحيّة بالذات. ومع ذلك، فقد كان هناك، لدى المؤمنين والكثيرين من غير الكاثوليك، توقّعٌ عظيم لكلمات تنطق بها الكنيسة، وتذكّر فيها – وسط تشوّش الأفكار – برسالة يسوع المسيح.

وفي غالبيّتها، ظلّت السلطات الروحيّة، المرتبكة في ولاء وخضوع تجاوزا الطاعة التقليديّة للسلطة القائمة، قابعة في موقف من الامتثال والحذر والغياب، أملَته على نحوٍ ما الخشية من إجراءات انتقاميّة حيال أعمال وحركات الشبيبة الكاثوليكيّة؛ فلم يدرك المسؤولون الكنسيّون أنّ

الكنيسة، المدعوّة آنذاك لأداء دورٍ بديلٍ عن هيئة اجتماعيّة مفكّكة، كانت تملك في الواقع سلطةً وتأثيراً ضخمين، وأنّها إزاءً صمت سائر المؤسّسات، كان يمكن لكلمتها، بدويّها، أن تَحول دون وقوع الكارثة. ويجب أن نتذكّر أنّنا كنّا، إبّان الاحتلال، لا نزال نجهل البُعد الحقيقي لعمليّة الإبادة الهتلرية. وإن كان يصحّ أنّه يسعُنا ذكر العديد من مبادرات التضامن، إلاّ أنّه يجب أن نتساءل ما إذا كانت مبادرات محبّة وتعاون، تكفي لتحقيق مقتضيات العدالة واحترام حقوق الشخص البشري.

وهكذا، ففي مواجهة تشريع لاسامي أصدرته الحكومة الفرنسيّة – بدءاً من القانون الخاص باليهود في تشرين الأول عام 1940، والقانون الصادر في حزيران عام 1941، هذين القانونين اللذين انتزَعا من فئة من الفرنسيّين حقوقهم كمواطنين، واللذين فرزاهم ووضعاهم في وضع كائنات دنيا داخل الأمة – وفي مواجهة قرارات الاعتقال في معسكرات خاصة باليهود الغرباء، الذين ظنّوا أنّه بوسعهم الاعتماد على حقّ اللجوء وعلى الضيافة الفرنسيّة، لا بدّ لنا من الإقرار بأنّ أساقفة فرنسا لم يتّخذوا موقفاً معلناً، فأيّدوا بصمتهم هذه الخروق الفاضحة لحقوق الإنسان، وتركوا الطريق مفتوحاً أمام هذا المسار القاتل.

نحن لا ندين لا الضمائر ولا الأشخاص في تلك الفترة، ولسنا بمسؤولين عمّا حدث بالأمس. ولكنْ يجب أن نقوّم السلوكات والأفعال. إنّها كنيستنا، ونحن مضطرّون لأن نلاحظ اليوم، بصورة موضوعيّة، أنّ هناك مصالح كنسيّة، فُهمت على نحو بالغ التضييق، فتغلّبت على أوامر الضمير، ويجب علينا أن نتساءل لماذا؟

بعيداً عن الظروف التاريخيّة التي ذكرناها للتوّ، علينا، بصورة خاصة، أن نتساءل بشأن الجذور الدينيّة لهذا التعامي. فما كان تأثير معاداة اليهود الموغِلة في القديم؟ وفي هذا الجدل الذي نعرف أنّه قام، لماذا لم تُصغِ الكنيسة إلى

أصوات أفضل مَن فيها؟ قبل الحرب، ومرات كثيرة، جهد "جاك ماريتان"، في مقالات له ومحاضرات عامّة، أن يفتح عيون المسيحيّين على نظرة مغايرة إلى الشعب اليهودي، وكان يحذّرهم أيضاً بقوة، من شرّ اللاسامية التي كانت آخذة في الانتشار. كما كان المطران "ساليج" (SALIÈGE)[1]، قُبيل الحرب، يهيب بكاثوليك القرن العشرين، أن يبحثوا عن النور في تعليم البابا بيوس الحادي عشر، وليس في هذا القرار أو ذاك للبابا أنوشنتيوس الثالث في القرن الثالث عشر. وأثناء الحرب، كان هناك لاهوتيّون وشرّاح كتابيّون في مدينتَي ليون وباريس، يُبرزون بأسلوب نبويّ، الجذور اليهودية للمسيّحية، ويؤكّدون أنّ فرع "يسّى" (JESSÉ) قد أزهر في إسرائيل، وأنّ كلا العهدَين لا ينفصلان، وأنّ العذراء والمسيح والرسل كانوا يهوداً، وأنّ المسيحيّة مرتبطةٌ باليهوديّة، مثلما أنّ الغصن مرتبط بالجذع الذي حمله. لماذا لَمْ تجِد مثل هذه الكلمات إلا قلّة قليلة أصغت إليها؟

صحيحٌ أنّ الكنيسة كانت، على الصعيد العقائدي، تعارض جذريّاً العنصريّة، لأسبابٍ لاهوتيّة وروحيّة معاً، كان البابا بيوس الحادي عشر قد شرحها بقوة في براءته "**بقلق حارق**"، التي أدانت المبادئ الأساسية للإيديولوجيا النازيّة، وحذّرت المسيحيّين من مخاطر أسطورة العِرق، ومن السلطة المطلقة للدولة. ومنذ عام 1928، كان المجمع المقدس قد أدان اللاسامية. وفي عام 1938، صرّح البابا بيوس الحادي عشر بقوّة: "**نحن، كلّنا، على الصعيد الروحي، ساميون**". ولكن ما عسى أن يكون ثقل مثل هذه الإدانات، وما عسى أن يكون ثقل فكر بعض اللاهوتيّين المذكورين آنفاً، بالنظر إلى الأحكام النمطيّة المعادية لليهود، والسائدة أبداً، والتي نجد آثارها، حتى بعد عام 1942، في تصريحات لم تكن، على كلّ حال، خالية من جرأة؟

نحن مضطرّون للتسليم أوّلاً بالدور، إن لم يكن المباشر، فأقلّه غير المباشر،

[1] كان أسقف مدينة "بوردو" (BORDEAUX) آنذاك. (المترجم)

الذي لعبته الأفكار العامّة المعادية لليهود، والتي شُحن بها الشعب المسيحي، بطريقة آثمة، عبر السيرورة التاريخيّة التي انتهت إلى المحرقة. وفي الواقع، على الرغم من – وجزئيّاً بسبب – الأصول اليهودية للمسيحيّة، وأيضاً بسبب وفاء الشعب اليهودي لشهادته للإله الواحد عبر تاريخه، فإنّ "القطيعة الأصليّة" التي برزت في القسم الثاني من القرن الأوّل، قادت إلى الطلاق، ثم إلى بغضٍ، فإلى عداء، امتدّا قروناً طويلة بين المسيحيّين واليهود. ليس لنا، على كلّ حالٍ، أن ننكر ثقل المعطيات الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، في هذه المسيرة الطويلة، من سوء فهم، ومن تعارض في الغالب، بين اليهود والمسيحيّين، فإنّ أحد أسس الخلاف يظلّ من طبيعة دينيّة. وهذا لا يعني أنّه يحقّ لنا أن نقيم علاقة مباشرة سببيّة بين هذه الأفكار العامة والمحرقة، لأنّ المخطط النازي الرامي إلى إفناء الشعب اليهودي، له مصادر أخرى.

ويرى المؤرّخون أنّ هناك أمراً ثابتاً، وهو أنّه قد ساد في الشعب المسيحي، طوال قرون، وحتى المجمع الڤاتيكاني الثاني، تقليد من المعاداة لليهوديّة، ترك أثره على نحو متفاوت، في العقيدة والتعليم المسيحي، وفي اللاهوت والدفاع عن العقيدة، وفي التبشير والصلوات. وفي هذه التربة، نبتت سموم بغض اليهود! من هنا، نجَم إرث ثقيل ذو نتائج يصعب محوها، حتى في هذا القرن... ومن هنا، جراح أبداً نازفة.

وبقدر ما ترك رعاة الكنيسة ومسؤولوها، لهذا التعليم القائم على الاحتقار، أن يتطوّر طويلاً، وغذّوا في الجماعات المسيحيّة، قاعدة مشتركة من الثقافة الدينيّة، التي وسمت بصورة دائمة العقليّات وشوّهتها، فإنّهم يتحمّلون مسؤوليّةً جسيمةً؛ حتى إنّهم، بعد أن أدانوا النظريّات اللاساميّة في منشئها الوثني، يسعُنا أن نعتبر أنّهم لم ينيروا العقول، كما كان عليهم أن يفعلوا، لأنّهم لم يدينوا هذه الأفكار وهذه المواقف الضاربة في الزمن.

ولذلك، كانت الضمائر غالباً في حالة رقاد، وقدرتها على المقاومة منقوصة،

عندما نشبت، بكلّ عنفها الإجرامي، اللاسامية النازيّة، وهي شـــكل شـــيطاني ومرَضي من البغض لليهود، تأسّس على مقولات العِرق والدم، وهدفَ صراحةً إلى إلغاء الشعب اليهودي، إلغاء جسديّاً. وقد وصفها البابا يوحنا بولس الثـــاني بأنّها "**إبادة غير مشروطة [...] نُفّذت بإصرارٍ وتصميم**".

في ما بعد، عندما تفاقم الاضطهاد، وانطلقت على الأرض الفرنـــسيّة سياسة الإبادة النازيّة، وتوَلّت تنفيذها سلطات فيشي، فوضـــعت تحـــت تصرّف المحتلّ، مؤسّساتها البوليسيّة، عرف بعض الأســـاقفة الـــشجعان أن يرفعوا الصوت للاحتجاج بقوّة، باسم حقوق الإنسان، ضـــد مـــداهمات الاعتقال بحقّ اليهود. وهذه الكلمات المعلنة، على قلّتها آنذاك، استمع إليها العديد من المسيحيّين.

لا يجوز أن ننسى المساعي الكثيرة التي قامت بها السلطات الكنسيّة من أجل إنقاذ رجال ونساء وأطفال من خطر الموت، ولا تيّار المحبّة المـــسيحيّة الذي سرى في نطاق عامّة الناس، في سخاء متعدّد الأشكال، وفي تعـــرُّض لأشد الأخطار، من أجل إنقاذ الآلاف المؤلّفة من اليهود.

من ناحيتهم، وقبل هذه المداخلات بزمانٍ طويل، فإنّ عدداً من الرهبان والكهنة والعلمانيّين، لم يتردّدوا في اختيار طريق المقاومة السرّية، فأنقـــذوا شرف الكنيسة، بطريقة غالباً ما كانت خفيّة ومجهولة. وقد فعلـــوا ذلـــك أيضاً وخصوصاً في "**دفاتر الشهادة المسيحيّة**"[1]، حيث كانوا يفـــضحون بقوة سمّ النازية، الذي كان يهدّد النفوس بكلّ ما فيه من زخـــمٍ وثـــنيّ جديد، عنصريّ ولاسامي، كما كانوا يذكّرون دائماً بكلمة البابا بيـــوس الحادي عشر: "**على الصعيد الروحي، نحن كلّنا ساميّون**". وإنّـــه لواقـــع تاريخي ثابت، أنّ جميع هذه الأعمال الإنقاذيّة، الصادرة مـــن الأوســـاط

[1] هي، في الحقيقة، مجلة المقاومة الفرنسية السرّية، التي أسّسها المثقّف الفرنسي المسيحي الشهير "جورج مونتارون" (Georges MONTARON)، إبان الاحتلال النازي لفرنسا.

الكاثوليكيّة، كما من العالم البروتستانتي ومن المنظمات اليهوديّة، قد ضمِنت البقاء لعدد كبير من اليهود.

إلاّ أنّ الحقيقة أيضاً، أنّه، لئن كانت أعمال شجاعة قد بدرت في الأوساط المسيحيّة، من كهنة ورهبان أو علمانيّين، من أجل الدفاع عن بعض الأشخاص، يتوجّب علينا الاعتراف بأنّ اللامبالاة قد فاقت كثيراً الاستنكار، وأنّ الصمت حيال اضطهاد اليهود، ولا سيما حيال الإجراءات اللاسامية المتعددة الأشكال، التي أقرّتها سلطات فيشي، كان هو القاعدة، وأنّ كلمات الدفاع عن الضحايا، كانت الاستثناء. ومع ذلك، كما كتب "فرانسوا مورياك": "**إنّ جريمةً بمثل هذا الحجم، تقع بقسم كبير على جميع الشهود الذين لم يرفعوا الصوت، أيّة كانت أسباب هذا الصمت**".

والنتيجة كانت أنّ محاولة إبادة الشعب اليهودي، بدل أن تظهر بمثابة مسألة مركزيّة على الصعيدَين الإنساني والروحي، ظلّت في حالة رهان ثانوي. وإزاء فداحة المأساة وطابع الجريمة المروّع، فإنّ العدد الأكبر من رعاة الكنيسة قد أهانوا، بصمتهم، الكنيسة ذاتها ورسالتها.

اليوم، نعترف بأنّ هذا الصمت كان خطيئة. ونعترف أيضاً، بأنّ الكنيسة في فرنسا خانت عندها رسالتها في تهذيب الضمائر، وأنّها بذلك تتحمّل، مع الشعب المسيحي، مسؤوليّة عدم تقديم المساعدة، منذ اللحظات الأولى، عندما كان الاحتجاج والحماية ممكنَين وضروريَّين، حتى لو حدثت، بعد ذلك، أفعال شجاعة لا تُحصى.

إنّ ذلك واقعٌ نعترف به اليوم. فإنّ تخاذل كنيسة فرنسا هذا، ومسؤوليّتها التاريخيّة حيال الشعب اليهودي، إنّما هما جزء من تاريخها. نعترف بهذه الخطيئة، ونسأل الغفران من الله، ونطلب من الشعب اليهودي أن يستمع لكلمة التوبة هذه. إنّ فعلنا هذا يدعونا لمزيد من اليقظة في صالح الإنسان، في الوقت الحاضر، ومن أجل المستقبل. »

مراجع الكتاب

القسم الأول

الفصل الأول: في الماضي، ما من أحد كان يطلب الغفران

(1) هانس أورس فون بالتازار، "من هو مسيحي؟" ترجمة "رينيه فريون" (René VIRRION)، مولوز، سلفاتور، 1967 – ص (15–16)؛ الطبعة الألمانية تعود إلى عام 1965.

(2) "دانس باتستا موندن" (Dans BATTISTA MONDIN)، قاموس موسوعة البابوات، روما، سيتانوافا، 1995 – ص (312).

(3) رسائل رسولية للبابا بيوس التاسع، للبابا غريغوريوس السادس عشر وللبابا بيوس السابع، باريس، 1998 – ص (207–209).

(4) جياكومو مارتينا، "الكنيسة في عهود الاستبداد والليبرالية والشيوعية"، بريشيا، مورشيليانا، 1974 – ص (419).

الفصل الثاني: البروتستانت كانوا السبّاقين

(5) "نداء إلى جميع المسيحيّين من الأساقفة المجتمعين في مؤتمر لامبث عام 1920"، في "وثائق حول الوحدة المسيحيّة"، 1920–1924، بقلم (G.K.A. BELL)، لندن، مطبوعات جامعة أوكسفورد، 1924 – ص (2).

(6) في "وثائق حول الوحدة المسيحية"، المرجع ذاته، ص (7).

(7) أعمال البابا بيوس الحادي عشر، الجزء الرابع، دار المطبوعات الصالحة، 1932 – ص (80).

(8) سنتحدث عن ذلك في الفقرة الثانية من الفصل (20). تاريخ البابوية. راجع أيضاً "الموسوعة البابوية" (CATANE – دار PAOLINE)، 1984 – ص (1115–1124).

(9) "المؤتمر الأول لمجلس الكنائس العالمي"، بقلم (W.A.WISSER'T HOOFT)، نيويورك، (HARPER and Brothers)، 1949 – ص (50–56).

(10) "المؤتمر الثاني لمجلس الكنائس العالمي"، 1954، لندن، (SCM PRESS)، 1955 – ص (87–89).

(11) مجلة "الوثائق الكاثوليكية"، 1950 – ص (330–335).

الفصل الثالث: البابا يوحنا الثالث والعشرون يصحّح الصلوات

(12) ميلانو، موندادوري، 1987 – ص (219). يروي الحاخام "إيليو طواف" (Elio TOAFF):

« بعد أن باشر بإصلاح طقوس يوم الجمعة العظيم، إذ ألغى الصلاة من أجل "اليهود الـدّهاة"، شاء مع المجمع، أن يعيد الحق إلى الشعب اليهودي الذي كان يحترمه ويحبّه، وقد دلّـل علـى هـذا الاحترام والمحبّة، ذات سبت ربيعي، إذ كان يمرّ بأحد جسور نهر التيبر، رأى اليهود وهم يخرجون من الكنيس بعد الصلاة. فأوقف موكب السيارات الذي كان يرافقه، وبارك الإخوة اليهود، الذين، بعد لحظة اندهاش طبيعي، أحاطوا به، وصفّقوا له بحماس. وفي الواقع، كانت تلك المرّة الأولى التي يبارك فيها أحدُ البابوات اليهودَ، وربما كانت تلك المبادرة الأولى الحقيقية من أجل المصالحة. »

(13) (Stjepan SCHMIDT)، "أغوستينو بيا (Agostino BEA)، كردينال الوحدة"، روما، شيتا نووفا (CITTA NUOVA)، 1987 – ص (351).

« في كتب الصلاة الفرنسية قبل عام 1960، لم تكن صلاة يوم الجمعة العظـيم تحتـوي عبـارة "اليهود الدّهاة"، بل رديفها الحديث "اليهود الكفّار". مع ذلك، أبقَينا على الصفة الخلافيّة، وأدرجناها في ترجمة كتاب الصلاة. (المترجم الفرنسي). »

(14)الكاتب الفرنسي (Jean TOULAT): "زيارة لجول إسحق" في مجلة (RASSEGNA MENSILE DI ISRAELE)، نوفمبر- ديسمبر 1972 - ص (3-13).

(15)خطاب إلى المجمع الڤاتيكاني الثاني، دار (CERF)، 1964 - ص (270).

(16)"رسالة من مونسنيور (RONCALLI) إلى شاب أرثوذكسي"، بتاريخ 1926/7/27، وفّر لي هذا النص مونسنيور (Loris Francesco CAPOVILLA).

(17)صحيفة (AVVENIRE D'ITALIA)، في 1954/1/21.

(18)"روجيه شوتز" في "اللقاء الأوربي ضمن مجمع الشبيبة في كنيسة "نوتردام" بباريس"، 1978/12/29، الساعة (21) - تسلّمت صورة النص المطبوع من مونسنيور (Loris Francesco CAPOVILLA).

(19)"صلوات"، للكاتب (VICENZE)، دار نشر (FAVERO)، 1959 - ص (18).

الفصل الرابع: البابا بولس السادس يطلب الغفران ويمنحه

(20)كنّا تكلمنا في الفصل الثاني عن "اعتراف" أمستردام. سنهتمّ في هذا الفصل بطلب الغفران من قِبل البابا بولس السادس، وفي الفصل الثامن بدعوة البابا يوحنا بولس الثاني.

(21)خطاب للمجمع الڤاتيكاني الثاني، المصدر نفسه - ص (156-157).

(22)مجلة "الوثائق الكاثوليكية"، عام 1963 - ص (1422).

(23)سنتحدث في الفصل السابع عن استخدام هذه العبارة في نصوص الأساقفة البولونيين، ولدى البابا يوحنا بولس الثاني.

(24)مجلة "الوثائق الكاثوليكية"، عام 1963 - ص (1259).

(25)"المجمع الڤاتيكاني الثاني"، المصدر ذاته، المجلد الثاني - ص (2215-2226).

(26)المصدر ذاته، المجلد الرابع - ص (332).

(27)المصدر ذاته، المجلد الرابع - ص (431).

(28)المصدر ذاته، المجلد الخامس - ص (509).

(29)المصدر ذاته، المجلد الثالث - ص (233).

(30)"كارلو كريمونا"، "بولس السادس"، روما، روسكوني، 1992 - ص(234).

(31)(G. CERETI)، "توبة واهتداء على طريق يوبيل الألفية الثانية" في كتابه: "الحركة المسكونية واهتداء الكنيسة"، ميلانو ساو باولو، 1995 - ص (79).

(32)"ج. كريمونا"، "بولس السادس"، مصدر سابق - ص (177).

الفصل الخامس: المجمع يسير في خطى البابا

(33)استعادة الوحدة، (7)، راجع المجمع المسكوني الڤاتيكاني الثاني، "وثائق مجمعية"، الجزء الأول، باريس، دار (CENTURION)، 1965 - ص (206).

(34)المرجع ذاته، الفقرة (3) - ص (198).

(35)"نور الأمم"، فقرة (8)، المرجع ذاته - ص (36).

(36)كما في قضية غاليليو: راجع الفصل الذي يخصّ غاليليو، في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(37)البيان المجمعي "في عالم اليوم"، (4)، "وثائق مجمعية"، الجزء **II**، 1965 - ص (218).

(38)البيان المجمعي "في الكرامة الإنسانية"، (12)، "وثائق مجمعية"، الجزء **III**، 1966 - ص (367).

(39)البيان المجمعي "فرح ورجاء"، (19) و (43)، "وثائق مجمعية"، الجزء **III**، 1966 - ص (98).

(40)البيان المجمعي "ذاته"، الجزء **III**، 1966 - ص (66) و (118-119).

(41)"محادثات في روما بعد المجمع"، 1968، "الدفاتر اللاهوتية" (58).

(42)المرجع ذاته، ص (41).

(43)المرجع ذاته، ص (41).

(44)المرجع ذاته، ص (43).

(45)المرجع ذاته، ص (33).

(46)سنتحدث عنه في النقطة الثانية من الفصل العشرين: "تاريخ البابوية"، في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(47)سنحلّله في الفصل الثالث عشر: "التطرّف الديني"، في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(48)نُحيل ذلك إلى الفصول (1) و (5) و (14) من القسم الثاني من هذا الكتاب.

الفصل السادس: البابا يوحنا بولس الأول كان له مشروع

(49)(Camillo BASSOTTO): "قلبي ما يزال في البندقية"، البندقية، لدى المؤلف، 1990 – ص (265).

الفصل السابع: امتياز البابا البولوني

(50)(Rocco BUTTIGLIONE) في مجلة "الصوت" (La Voce)، 1994/4/16 – ص (7): "هناك عاملان يميّزان تاريخ بولونيا وثقافتها عن تاريخ وثقافة بقية أوروبا. الأول هو الطريقة التي عاشت فيها بولونيا الإصلاح البروتستانتي؛ ففي حين أن ذلك انتهى، في سائر الدول، إلى فضيحة الحرب الأهلية وإشعال "المحارق" لدى الطرفين، واجهت الكثلكة في بولونيا، الإصلاحَ بإصلاح آخر، على طريقة "إيراسموس": لم يحدث أي قمع عسكري ضد البروتستانتيين، بل تبشير مكثّف للجماهير، انتهى إلى احتواء الانشقاق البروتستانتي. والعامل الثاني هو أن بولونيا لم تعرف المواجهة بين القضية الوطنية والقضية الكاثوليكية، كما عرفها الإيطاليون إبّان النهضة. فجميع أشباه كاريبالدي في بولونيا كانوا كاثوليكيين، وإن بعضاً منهم، تُجرى لهم اليوم إجراءات التطويب في روما. وهنا أيضاً، لم تحدث مواجهة بين قضية الله وقضية الإنسان، التي أفضت في أماكن أخرى، إلى الحركة العلمانية المناهضة. وعندما كانت أوروبا كلها، تؤكّد أن "الناس على دين ملوكهم"، كان ملك بولونيا يتساءل: "مَن أقامني سيّداً على وجدان رعاياي؟"

(51)مأخوذة من قصيدة عنوانها: "سهرة الفصح عام 1966"، لـ"كارول فويتيلا": "ديوان"، تُرجم إلى الفرنسية عام 1979 – ص (124).

(52)إن كتاب كوبرنيك "في دوران الأجرام السماوية" (الجزء السادس)، الذي نُشر عام (1543)، لم يواجه الحُرم من قِبل السلطة الكنسية، يوم كان كوبرنيك على قيد الحياة، ولم يُحرم إلا عام (1916)، أي بعد أوّل تحريم لطروحات غاليليو. وفي إحياء ذكرى كوبرنيك، يوم 1993/10/18، بمناسبة الذكرى (450) لوفاته، شدّد البابا يوحنا بولس الثاني على الفارق في الموقف بين العالم الفلكي البولوني والإيطالي: فالأول كان حكيماً، فقدّم نظريته على أنها احتمال ليس إلاّ، أما الثاني، فقد كان يميل إلى عرضها بوصفها يقيناً علمياً. وقد أشاد البابا يومها بـ"حكمة وشجاعة كوبرنيك، إذ حاول أن يوفّق بين حرية البحث العلمي والوفاء المطلوب إزاء الكنيسة".

(53)"كارول فويتيلا" في مؤلفاته، حاضرة الفاتيكان، المكتبة الفاتيكانية، 1980 – ص (245)، رقم (1207).

(54)راجع الفصل الرابع في القسم الأول من هذا الكتاب.

(55)راجع النقطة الأولى من فصل "تاريخ البابوية"، في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(56)سنتناول هذا الموضوع في القسم الثاني من هذا الكتاب، أثناء الحديث عن "يان هوس".

(57)راجع الفصل الرابع من القسم الأول، المخصص له.

(58)هناك مختصر وثائقي حول مسيرة المصالحة بين الأساقفة البولونيين والألمان، قد نُشر في عدد خاص من صحيفة الفاتيكان الرسمية، "المراقب الروماني"، بتاريخ 1995/12/23، تحت عنوان: "الذكرى الثلاثون لتبادل الرسائل بين الأساقفة البولونيين والألمان".

(59)حديث أجراه الصحفي (Jas GAWRONSKI)، ونُشر في جريدة (LA STAMPA)، في 1993/11/2: كان البابا آنذاك يفكر في فحص الضمير في نهاية الألفية الثانية، الذي سيعرضه في الوثيقة المذكّرة، في ربيع عام 1994.

الفصل الثامن: معارضة الكرادلة

(60) "عبارة معترضة استغلالية": بهذه الكلمات وصف الصحفي (Vittorio MESSORI) المقطع في "الوثيقة المذكّرة"، الذي يحمل عنوان "مصالحة وتوبة"، وهو لم يكن قد قرأه في النص الأصلي، إذ يصفه بأنه عبارة عن "ثمانية أسطر"، أقحمها في النص أحد موظّفي الدوائر الرومانية.

(61) مثل الأب (Franz SCHMID BERGER)، خليفة المطران "لوفيفر" في "أخوية ÉCÔNE"، في مقابلة صحفية، بتاريخ 4/28، لوكالة الأنباء (ANSA).

(62) صحيفة "الجمهورية" الإيطالية، بتاريخ 1996/1/19.

(63) صحيفة (CORRIERE DELLA SERA)، في 1994/6/15 – ص (9).

(64) نسخة طبق الأصل وضعت في تصرّف الكرادلة. والاستشهاد ورد في ص (23–24).

(65) نجد صدى له في مجلة (TRENTA GIORNI)، 1994/5 – ص (11).

(66) (Giacomo BIFFI) في "المسيح اليوم"، بولونيا، 1995، والنص من الصفحة (23–26).

(67) ثمّة موقف شبيه بموقف الكردينال "بيتي" (BITTI)، وقد تبنّاه مراراً مطران "كوم"، "ساندرو ماجيوليني" (Sandro MAGGIOLINI).

الفصل التاسع: يوحنا بولس الثاني يواصل السعي بمفرده

(68) إن دراسة الأب "كوتييه": "الكنيسة أمام الاهتداء: أهم ثمار السنة المقدسة"، وردت في الصفحات (160–171).

(69) أكتفي من هذه الحاشية الطويلة والهامّة، بما يلي: "في 33 يوماً، أنجز البابا في نهاية ربيع 1995، سلسلة من المبادرات ذات المرمى الخارق، تجدّد الانطلاقة المسكونية للمجمع الشاتيكاني الثاني، بعد اختتامه بثلاثين عاماً: البراءة "ليكونوا واحداً" (5/30)، طلب الغفران ومنحه بسبب الحروب الدينية (أولوموك 5/21)، تكريم شهداء البروتستانت السلوفاكيين الذين قتلهم الكاثوليكيون (بريشوف، 7/2)، واللقاء مع بطريرك القسطنطينية "برثولوميوس" (27–6/30). وكانت ردود أفعال الأوساط المسكونية، قوية وإيجابية".

(70) هناك، على الأقلّ، خمس مداخلات للبابا حول هذا الموضوع، ما بين حزيران وأيلول عام 1994.

(71) نحيل إلى العدد الخاص، الذي نُشر في شهر شباط، من أجل الاستشهادات الواردة في الفقرات التالية.

(72) كان يترأسها أسقف (WÜRZBURG) – ألمانيا: المطران (Paul-Wirner SCHEELE).

(73) يترأسها المونسينيور "مايكل فيتزغيرالد"، أمين سرّ مجلس الحوار بين الديانات.

(74) يترأسها المونسينيور (Diarmuid MARTIN)، أمين سرّ مجلس العدالة والسلام.

(75) إنها أكثر اللجان عدداً، ففيها (26) عضواً.

(76) تؤكد مجلة "الألفية الثالثة" أن أسماء (HUS) و (Las CASAS) و(SAVONAROLE)، كانت قد اقتُرحت في إطار اللجنة ذاتها.

(77) مجلة (IL REGNO)، 1987/16 – ص (152).

(78) من أجل تصريح براغ، راجع صحيفة (CORRIERE DELLA SERA)، في 1990/1/6 – ص (13).

(79) في مجلة (IL REGNO)، 1996/8 – ص (203–205).

(80) ج. مارتينا: "الكنيسة من الاستبداد إلى الليبرالية والشيوعية"، المرجع ذاته – ص (291)

القسم الثاني

الفصل الأول: الحملات الصليبية

(1) ألسّندرو فالاسي (Alessandro FALASSI): "حياة وموت ومعجزات كاترينا السيانية"، ميلانو، مونتادوري، 1980 – ص (151).

(2) (Franco CARDINI)، "محاكمة الكنيسة: كذب ودفاع"، 1994.

(3) مجلة (IL REGNO)، 1995/18 – ص (537).

(4) صحيفة (AVVENIRE)، في 1995/2/14 - ص (19).
(5) الهيئة الأسقفية الإيطالية: "التعليم المسيحي للبالغين"، روما، 1995 - ص (284).

الفصل الثاني: الأنظمة الاستبدادية

(6) (Enrico NISTRI): "الكنيسة والأنظمة الاستبدادية" في "محاكمة الكنيسة"، المصدر السابق - ص (453-482).
(7) مجلة "الوثائق الكاثوليكية"، 1995/2/19، رقم (2110) - ص (188-189).
(8) "الكنيسة الكاثوليكية والنازية"، 1979/1/31 - ص (281-285).
(9) هيئة أساقفة الأرجنتين، راجع مجلة "الوثائق الكاثوليكية"، 1996/7/21، رقم (2142) - ص (691-692).
(10) المرجع ذاته - ص (371).

الفصل الثالث: الانقسامات بين الكنائس

(11) (Giovanni CAPRILE): "المجمع الاستثنائي 1985"، روما، عام 1986 - ص (398).
(12) مجلة (IL REGNO)، 1994/15 - ص (453).

الفصل الرابع: النساء

(13) (Hans KÜNG)، "لا محلّ لليأس"، دار (CERF)، 1991 - ص (144).
(14) (Francisco de JUANES): "كتابات سرّية ليوحنا بولس الثالث"، أسيزي، 1994 - ص (268)
(15) في مجلة (CIVITTA CATTOLICA)، 3477، 1995/5/6 - ص (245-246)
(16) (COM)، "الأزمنة الجديدة"، 1988/12/18 - ص (4) و (8) و (10)

الفصل الخامس: اليهود

(17) دونما خوف، يتحدث البابا عن "تحوّل"، وقد لخّص هذا التحوّل كلّه بكلمتين، وصف بهما اليهود بقوله: إنهم "إخوتنا الكبار".
(18) "الكنيسة المسيحية والعبرانيين"، مرجع مذكور - ص (54).
(19) (G. CAPRILE)، "المجمع الاستثنائي لعام 1985"، مرجع مذكور - ص (227).
(20) في صحيفة (CORRIERE DELLA SERA) في 1990/12/3 - ص (13).
(21) المرجع ذاته، في 1990/12/6 - ص (13).
(22) في صحيفة (CORRIERE DELLA SERA) في 1983/10/5.
(23) صحيفة "المراقب الروماني" في 1992/3/3.
(24) راجع (Augusto SEGRE)، "شعب إسرائيل والكنيسة"، روما، 1982 - ص (122).

الفصل السادس: غاليليو

(25) ننشر بيان الكردينال "بوبار" كاملاً، للأهمية التي يمثّلها ولضيق رقعة انتشاره.
(26) (Luigi SANDRI) في "البابا الأخير فويتيلا: تاريخ موجَز لبابوية مثيرة للجدل"، روما، 1996 - ص (35).
(27) الأب "ج. كوتييه": "الكنيسة أمام الاهتداء"، نص وتعليق، المصدر المذكور ذاته - ص (164).

الفصل السابع: حرب وسلام

(28) (BASILEA): "عدالة وسلام"، بولونيا، 1989 - ص (189).

الفصل الثامن: الحروب الدينية

(29) في (CORRIERE DELLA SERA)، 1995/7/3.
(30) راجع الموسوعة الكاثوليكية، المرجع المذكور، كلمة (SALISBURGO).
(31) الأب "ج. كوتييه": "الكنيسة أمام الاهتداء" في "حلول الألفية الثالثة"، نص وتعليق، المصدر المذكور ذاته - ص (166).

الفصل التاسع: هوس، كالفان وزفانكلي

(32) راجع مجلة "الوثائق الكاثوليكية"، عام 1965 – ص (1787).

(33) مقابلة صحفية مع الكردينال (Miloslav VLK) في مجلة (SEGNOSETTE)، 1995/6/4 – ص (29).

(34) راجع صحيفة (AVVENIRE)، 1995/7 – ص (18).

الفصل العاشر: هنود أميركا

(35) في صحيفة (CORRIERE DELLA SERA)، في 1984/9/11.

(36) "سيول": "عدالة وسلام ومحافظة على الخليقة"، بولونيا، 1990 – ص (191).

(37) ذُكرت في (Giovanni FRANZONI): "دعوا الأرض تستريح"، روما، 1996 – ص (94).

الفصل الحادي عشر: المظالم

(38) (G. CAPRILE): "المجمع الاستثنائي"، 1985، المرجع ذاته – ص (113).

(39) المرجع ذاته – ص (281).

(40) المرجع ذاته – ص (318).

(41) (BASILEA)، "عدالة وسلام"، المرجع ذاته – ص (190).

(42) (SEOUL)، "عدالة وسلام ومحافظة على الخليقة"، المرجع المذكور – ص (173).

(43) (Luigi ACCATTOLI)، في (CORRIERE DELLA SERA)، 1994/12/16.

الفصل الثاني عشر: محاكم التفتيش

(44) (Nicolo DEL RE): "الإدارة الرومانية"، روما، 1970 – ص (89–101).

(45) مجلة (IL REGNO)، 1994/15 – ص (453).

(46) في صحيفة (IL GIORNALE)، 1994/4/16 – ص (1).

الفصل الثالث عشر: التطرّف الديني

(47) الأب كوتييه في "الكنيسة أمام الاهتداء"، في البراءة البابوية: "حلول الألفية الثالثة"، نص وتعليق، المرجع المذكور – ص (169).

(48) هيئة الأساقفة الإيطاليين: "التعليم المسيحي للبالغين"، المرجع المذكور – ص (238).

الفصل الرابع عشر: الإسلام

(49) صحيفة (CORRIERE DELLA SERA): 15–1982/2/16.

(50) المرجع ذاته، 1993/1/11.

(51) "المراقب الروماني"، 1982/4/1.

(52) صحيفة (LA CROIX)، 1996/5/29.

(53) صحيفة (AVVENIRE)، 1995/2/14 – ص (19).

الفصل الخامس عشر: لوثر

(54) راجع "الوثائق الكاثوليكية"، 1989/7/16، رقم 1988 – ص (688–691).

(55) "لأول مرّة يصلي البابا في كنيسة لوثرية" في صحيفة (CORRIERE DELLA SERA)، في 1983/12/12 – ص (1).

(56) إبّان اللقاء مع الأساقفة الدانماركيين، ذُكرت في ملاحظة رقم (54).

(57) راجع الفصل الأول من القسم الأول من هذا الكتاب.

(58) ذُكرت في كتاب (LA SFIDA DELL'ECUMENISMO)، تورينو، 1995 – ص (36).

الفصل السادس عشر: المافيا

(59) في صحيفة (CORRIERE DELLA SERA)، 1985/4/11 – ص (1).

(60) هو اليسوعي (Bartolomeo SORGE) الذي قدّم هذا الاقتراح في "الكنيسة والمافيا"، في مجلة (CIVILTA CATTOLICA)، الجزء الثالث، 1995 - ص (496-504).

(61) خطاب أُلقي في روما، في 1982/11/11. راجع صحيفة (CORRIERE DELLA SERA) في 1982/9/15 - ص (2).

الفصل السابع عشر: العنصرية

(62) صحيفة "المراقب الروماني"، 1987/9/16.

(63) (SEOUL): "عدالة وسلام"، مرجع مذكور - ص (190).

الفصل الثامن عشر: رواندا

(64) رسالة الكردينال "آتشيغاراي" إلى شعب رواندا، في مجلة الكرسي الرسولي، في 1994/7/2 - ص (11).

(65) رسالة رعوية لأُسقف "بوتاريه" (J-B. GAHAMANYI) في "المراقب الروماني"، في 1995/5/11 - ص (7).

(66) مذكورة في مجلة (MISSIONÉ OGGI)، أيار 1995 - ص (31).

(67) في كتاب (D. DEL RIO)، "فويتيلا: بابوية رحّالة"، كتاب مذكور - ص (691).

(68) في صحيفة (CORRIERE DELLA SERA)، في 1994/6/22 - ص (7).

(69) في مجلة (TRENTAGIORNI) في 1995/10 - ص (19).

الفصل التاسع عشر: الانشقاق الشرقي

(70) راجع (D. DEL RIO)، "فويتيلا: بابوية رحّالة"، مرجع مذكور - ص (711-713).

(71) راجع "مجلة إعلام" المجلس البابوي من أجل وحدة المسيحيين، رقم (83)، عام 1993.

الفصل العشرون: تاريخ البابوية

(72) اقترح "أورس ڤون بالتازار" هذا الانتقال في كتابه: (POINTS DE REPÈRE)، FAYARD، 1973 - ص (247)؛ وأثار موضوع الألقاب الكنسية في (SPONSA VERBI)، عام 1969 - ص (385)؛ وألمح إلى قضية العصمة في مقابلة صحفية في صحيفة (AVVENIRE)، في 1980/2/24.

(73) نُشر مقال الأب (CONGAR) في مجلة (CONCILIUM)، في كانون الأول 1975 - ص (55-64).

(74) إن المحاولة (CASTA MERETRIX) (1961) وردت في الصفحات (189-284) من كتابه (SPONSA VERBI)، الذي صدر بالفرنسية تحت اسم: "إصلاح سليم وخاطئ في الكنيسة" عام 1968.

(75) راجع (D. DEL RIO)، "فويتيلا: بابوية رحّالة"، مرجع مذكور - ص (625).

(76) المرجع ذاته - ص (630).

(77) مقابلة صحفية في مجلة (TRENTAGIORNI)، أيار 1995 - ص (54-55).

(78) "المراقب الروماني"، في 1990/6/27.

الفصل الحادي والعشرون: تجارة العبيد

(79) (Giacomo MARTINA)، "كنيسة الاستبداد والليبرالية والشيوعية"، مرجع مذكور - ص (415).

الفهرس

تقديم المترجم 5

المقدمة فحص الضمير في نهاية الألفيّة 7

القسم الأول سوابق تاريخية ومسكونية

الفصل الأول في الماضي، ما من أحد كان يطلب الغفران 16

الفصل الثاني البروتستانتيّون كانوا السبّاقين 23

الفصل الثالث البابا يوحنا الثالث والعشرون يصحّح الصلوات 27

اليهود 27

الإخوة المنشقّون 30

الإسلام 31

الفصل الرابع البابا بولس السادس يطلب الغفران ويمنحه 32

الفصل الخامس المجمع يسير في خطا البابا 39

الفصل السادس البابا يوحنا بولس الأول كان له مشروع 45

الانقسامات بين الكنائس 46

النساء 47

اليهود 47

الهنود والأميركيون والزنوج 49

محاكم التفتيش 50

شهداء البلدان الشرقية 50

إعادات اعتبار 50

تاريخ البابويّة 51

ألقاب البابا 51

الفصل السابع امتياز البابا البولوني 53

الفصل الثامن معارضة الكرادلة 60

توبة ونقد ذاتي 67

التوبة عن الخطايا الشخصية 67

الكنيسة لا خطيئة فيها 67

الأخطاء الكنسيّة الماضية 68

فعل إيمانٍ غريب 69

لنُعط بعض الأمثلة 69
المساوئ المجهولة الفاعل..... 69
الفصل التاسع **يوحنا بولس الثاني يواصل السعي بمفرده** 71
في حلول الألفيّة الثالثة..... 72
الأب جورج كوتييه 73
نحو اليوبيل الكبير 74
لجنة التاريخ واللاهوت..... 77
اللاسامية ومحاكم التفتيش..... 80

القسم الثاني تصريحات البابا يوحنا بولس الثاني

الفصل الأول **الحملات الصليبية** 83
الفصل الثاني **الأنظمة الاستبدادية**..... 87
الفصل الثالث **الانقسامات بين الكنائس**..... 93
تنقية الذاكرة..... 94
الإقرار بالخطايا الذاتيّة 94
الغفران الدائم 95
الإقرار بالخطايا يصبح برنامجاً 97
الواجب الأول..... 97
الخطيئة الأولى..... 98
معاً من أجل التكفير 98
الفصل الرابع **النســـاء**..... 101
إنّه يصحّح القديس بولس 102
إنه يُبدي أسفه 104
يشعر بالأسى..... 105
إعادة كتابة التاريخ بطريقة غير أحادية الجانب..... 107
تشجيع مشاركة النساء..... 107
عندما تكون المرأة أختاً..... 108
الفصل الخامس **اليهـــود** 110
إلى الإخوة الكبار 110
كيف يسعنا ألاّ نكون إلى جانبكم؟ 112
ألمٌ بسبب اللامبالاة في الماضي..... 113
السلبيّة إزاء المحرقة 114

الفصل السادس **غاليليو** 119

ليُصرَّ إلى إعادة فحص المسألة 119

تقرير الكردينال بوبار 120

البابا يوحنا بولس الثاني يعترف بالأخطاء التي ارتُكبت 126

انفتاح حيال نظريّة التطور 130

الفصل السابع **حرب وسلام** 132

الحرب هي مجموع كلّ الخطايا 132

اعتراف أسيزي 134

أوروبا المسيحيّة؟ 134

الغفران لنا وللعالم بأسره 135

التوبة بسبب الحرب التي أحدثتها النازيّة 135

الفصل الثامن **الحروب الدينية** 137

أطلب الغفران وأقترحه 137

تكريم الشهداء البروتستانتيّين 138

طرد البروتستانتيّين الظالم 140

الفصل التاسع **هوس، كالفان وزفانكلي** 142

"يان هوس" (Yan HUS) 142

"كالفان وزفانكلي" 145

الفصل العاشر **هنــود أميــركا** 147

آلام هائلــة 148

فعل تكفير 148

أخطاء المرسَلين 149

مسيحيّون محزونون 150

استخلاص العِبر من أخطاء الماضي 150

الفصل الحادي عشر **المظالم** 154

الفصل الثاني عشر **محاكم التفتيش** 160

لاتسامح وعنف 160

أخطاء وتجاوزات 161

عنف باسم الإيمان 162

الفصل الثالث عشر **التطرّف الديني** 164

الفصل الرابع عشر **الإسلام** 169

الإخوة المسلمون 170

من أجل وضع حد لحروب الماضي 172
يتوجب علينا أن نغفر لبعضنا البعض 173
ما هي أقصى حدود الغفران؟ 175
الفصل الخامس عشر **لوثر** 178
ضرورة إنصافه 178
تديّن عميق 180
ينتهي مفعول الحُرم الكنسي بالموت 182
الفصل السادس عشر **المافيا** 185
لا تستطيع الكنيسة أن تصمت 185
فحص ضمير شجاع 186
الفصل السابع عشر **العنصرية** 190
الفصل الثامن عشر **رواندا** RUWANDA 195
سيتوجب عليهم جميعاً أن يتحمّلوا مسؤوليّة جرائمهم 195
إلى الكاثوليك الذين أخطأوا 196
الفصل التاسع عشر **الانشقاق الشرقي** 202
كلّنا ارتكبنا أخطاء 203
لنسأل الغفران بقوة 204
ندعو الجميع إلى الغفران 205
شجاعة الغفران 207
الفصل العشرون **تاريخ البابويّة** 208
تأكيدات عامة 209
مبادرات رمزيّة 211
اعترافات نوعيّة 213
الفصل الحادي والعشرون **تجارة الزنوج** 216
نطلب الغفران من إخوتنا الأفارقة 216
في معبد الألم الأسود 217
فعل تكفير 219
لم يتحَلّ أسلافي بالحزم المناسب 221
الملحق "إعلان توبة" كنيسة فرنسا 223
مراجع الكتاب 230
الفهرس 237